رحلة إلى الفرات



تأليف

رحلـة إلى الفـرات

منشورات
دار فادي برس

مؤسسة رسلان علاء الدين
للطباعة
الدار السورية الجديدة

* رحلة إلى الفرات
* الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢ عدد النسخ ٥٠٠ نسخة

* يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة رسلان علاء الدين

الدار السورية الجديدة

سورية دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١ فاكس: ٥٦١١٣٢٤١

وصفي زكريـا

حياته ومؤلفاتـه

كثيرون منا عرفوا أو سمعوا أو قرؤوا شيئاً مما ألفه المهندس الزراعي وصفي زكريا، العالم الموسوعي والمؤرخ المدقق، ومن قرأ له يدرك مباشرة أنه كاتب موسوعي مدقق وبحاثة متتبع دؤوب، وعلى الرغم من شهرته الأدبية والعلمية والزراعية في سورية وفي أرجاء العالم العربي، وعلى الرغم من جهوده الوطنية وخبرته العلمية، التي قدمها لكل من سورية ولبنان وفلسطين والعراق والأردن واليمن، وعلى الرغم من أنه شهيد القلم، فقد توفي في ٢١ نيسان ١٩٦٤ في منزله في دمشق عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بانفجار في الدماغ أثناء مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط "حيوانات وطيور بلاد الشام" (الذي طبع سنة ١٩٨٣).

وهذه الأيام بعد مراجعات استمرت أكثر من ثلاثين سنة خصص له بنهايتها شارع في العاصمة السورية.

* * *

عاش وصفي زكريا إذن خمسة وسبعين عاماً، أمضاها في الدرس والتنقيب، وفي البحث في مجموعة كبيرة من المراجع والكتب التاريخية والزراعية، فترك خلفه مكتبة ضمت ما يزيد على مائة موسوعة ومئات الكتب العلمية التي تتناول الزراعة والآثار والتأريخ، حتى أنه في خواتيم حياته، وكانت تقدمت به السن، كان يُشاهد وهو يستحث الخطى متكئاً على عصاه متنقلاً من تل إلى آخر، ومن قرية إلى أخرى، باحثاً منقباً عن "نهر مرا" (المرأة)، الذي ذكره الرحالة والشعراء، والذي بقيت آثاره مجهولة حتى قام، طيب الله ثراه، بالكشف عن بعض مواقعه وتحديدها. وليعد بحثاً عنه نشر بعد وفاته في مجلة "الحوليات الأثرية" التي

كان يغذي صفحاتها بأبحاثه واكتشافاته ونظرياته وشروحاته التاريخية والأثرية التي كان لها الفضل العميم في تغيير العديد من آراء الأثريين والمؤرخين الباحثين في تأريخ بلاد الشام.

* * *

ولد المهندس العلامة وصفي زكريا عام ١٨٨٩ في طرابلس (الشام) في كنف عائلة تعود أصولها إلى عشيرة "الشبصغ" الشركسية.

والده زكريا وصفي شركس، الذي حمله والده وصفي (الكبير) وهو صغير من مدينة "باكو" عاصمة أذربيجان الحالية، إلى إسطنبول عاصمة السلطنة العثمانية، بعدما مني الشراكسة عام ١٨٥٩ بهزيمة في حربهم ضد الجيش الروسي في أواسط روسيا القرن التاسع عشر، وهم يحاولون المحافظة على الاستقلال من أطماع الروس القياصرة الهادفة إلى ضم بلادهم إلى إمبراطوريته الواسعة.

في اسطمبول انتمى زكريا وصفي شركس إلى الكلية العسكرية في سبعينيات القرن التاسع عشر وتخرج ضابطاً، أولى مهماته العسكرية كانت في طرابلس (الشام) حيث تزوج الضابط الشاب من السيدة الحسناء سمينة شقيقة إبراهيم سمينة الذي كان رجل أعمال فرزق منها عام ١٨٨٥ بابنة سمياها زهراء، ثم بابنين هما وصفي عام ١٨٨٩ وحقي عام ١٨٩١.

بعد ولادة ابنه حقي نقل العقيد زكريا شركس من طرابلس (الشام) إلى موقع عسكري في مدينة "تل كلخ: وبقي فيه حتى عام ١٩٠٣ أمر بقيادة حملة من ثلاثة آلاف جندي إلى اليمن، الذي كان ثار قد على حكم العثمانيين. لكن الثوار اليمنيين طوقوهم وجنده في جبال عسير وأبادوهم، فانتقلت حسناء مع أولادها إلى دمشق حيث انصرفت إلى تربيتهم وتعويض حنان الأب ورعايته.

***

في دمشق أتم وصفي زكريا دراسته الابتدائية والثانوية، لينتقل عام ١٩٠٦ إلى اسطمبول ويلتحق بالمدرسة الزراعية العليا، ويتخرج منها عام ١٩١٢ مهندساً زراعياً.

بعد تخرجه عُين في "السلمية" حيث درس في مدرستها الزراعية، التي كانت أنشئت حديثاً، ثم أصبح مديراً لها.

سنة ١٩١٤ شغل منصباً في مديرية "دار الحرير" في بيروت. لينتقل بعدها أستاذاً محاضراً في مدرسة "اللطرون" (بين القدس ويافا). وهناك استدعي إلى الخدمة العسكرية الإلزامية برتبة ملازم أول في الجيش العثماني، الذي كان يحتل البلاد ويخوض حرباً ضد الجيش البريطاني على جبهتي سيناء والنقب، لكنه بعدما أمضى حوالي العامين متنقلا بين غزة وبئر السبع، انتقاه الجنرال جمال باشا من بين عديدين من المثقفين ليعيدهم إلى الحياة المدنية لتستفيد الدولة العثمانية من ثقافتهم في الميدان المدني.

في سنة ١٩١٦ كلف بمهمة مكافحة الجراد الذي اجتاح "دير الزور".

سنة ١٩١٩ تولى إدارة مدرسة "السلمية الزراعية" وفي سنة ١٩٢٤ عين مفتشاً لأملاك الدولة وظل في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٦ عندما تعاقدت معه الحكومة اليمنية في صنعاء ليصبح مستشاراً زراعياً هناك لمدة سنتين، غادر بعدها إلى العراق ليعمل فيها خبيراً زراعياً ومحاضراً في دار المعلمين. ورغم مغادرته لليمن إلا أنه ظل على اتصال مع اليمن ومختصي الزراعة هناك للاطمئنان عن أبحاثه وتجاربه الزراعية وحسن سير منجزاته، وقد ترك في أوراقه الكثير من الرسائل والأوراق، التي تثبت متابعته واهتمامه بذلك على الرغم من تركه تلك البلاد.

بقي وصفي زكريا في العراق حتى سنة ١٩٤١ خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني، ولم يترك بغداد إلا عندما استدعته حكومة شرقي الأردن سنة ١٩٤٢

ليكون مديراً عاماً لوزارة الزراعة في عمان، حيث انكب على التنظيم الإداري لتلك الوزارة، والتنظيم الذي وضعه وصفي زكريا ظل معمولاً به طوال عقدين من الزمن.

في سنة ١٩٤٣ عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة، فبقي في وظيفته حتى سنة ١٩٥٠ حيث أحيل على التقاعد لبلوغه السن القانونية، وقد اختارته الحكومة السورية في أواخر حياته عضواً في المجلس الأعلى للعلوم والآداب.

* * *

مر وصفي زكريا في حياته بفترة قاسية وعصيبة. فقد عاش في ظل الاحتلال العثماني، ثم الفرنسي، كما عاش فترات المخاض الصعبة للاستقلال السوري، فكان بذلك مجيداً للغة العربية، والتركية، والفرنسية، واللاتينية القديمة، الأمر الذي جعل مصادر البحث عنده كثيرة وآفاقه العلمية واسعة. أضف إلى ذلك ولعه بالرحلات وفي الدراسات التأريخية والجغرافية، وكثرة أسفاره، مما جعل لديه حصيلة علمية تاريخية أثرية وجغرافية واسعة جداً انعكست على مؤلفاته التأريخية المهمة التي تركها.

ففي مجال اختصاصه المهني، كمهندس زراعي، كان وصفي زكريا رائد العلوم الزراعية في الشرق القديم والجزيرة العربية، فهو أول من أسس مدارس زراعية في كل من سورية ولبنان وفلسطين والعراق واليمن.

وهو أول من وضع مناهج وبرامج التدريس للمدارس الزراعية، ومن أجل ذلك وضع العديد من الكتب التدريسية.

وهو أول من عرب المصطلحات الزراعية من اللاتينية التي يجيدها والفرنسية إلى العربية، وهذه المصطلحات لما تزل معتمدة في المناهج الدراسية وفي الكتب الزراعية، يعودة إليها الباحثون بصورة دائمة.

وهو أول من وضع الكتب الزراعية العلمية المبسطة لتكون في متناول

الجميع، وبذلك فقد جعل من العلوم الزراعية مادة للقراءة يستسيغها العوام.

وعلى الرغم من مرور حوالي أكثر من نصف قرن عليها، فإن كتبه الزراعية لما تزل أهم وأدق المصادر العلمية في الميدان الزراعي، وقد تخرج على يديه الكثيرون من المهندسين الزراعيين والمختصين أثناء توليه منصب الأستاذ المحاضر في كلية الزراعة في جامعة دمشق.

وفي ميدان الأبحاث التأريخية والأثرية والجغرافية، ترك وصفي زكريا مؤلفات مهمة كان فيها رائداً في أبحاثه واكتشافاته وشروحاته متميزاً في التقميش والتدقيق بالمعلومات والتقصي الدؤوب في المراجع والوثائق عن الحقائق، متثبتاً من صحتها. وكان يعتمد في أبحاثه واستقصاءاته أيضاً على استقراء ما حصل عليه مع أصدقائه العلماء والأدباء وأهل الدراية، ثم بعد ذلك يعود إلى استقراء المعلومات المتوافرة لدى العامة، وذلك في سبيل استكمال سائر أنواع المصادر حول الموضوع الذي يدرسه أو يؤلف فيه.

* * *

ترك وصفي زكريا الكثير من المؤلفات، سواء في حقل اختصاصه المهني كمهندس زراعي، أو في حقول أبحاثه التأريخية والأثرية والجغرافية.

ففي مجال اختصاصه المهني خلَّف الآثار الآتية:

* "الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية" (٣ أجزاء) صدر سنة ١٩٢٥.

* "المفكرة الزراعية" وهي تحتوي على خلاصة الفنون والأعمال الزراعية، صدر سنة ١٩٣٠.

* "زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام" (جزءان) صدرا سنة ١٩٥١.

* "حيوانات وطيور بلاد الشام" صدر سنة ١٩٨٣.

في المجال التأريخي والأثري والجغرافي ترك وصفي زكريا على أرفف المكتبات:

* "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية" صدر سنة ١٩٣٤.

* "عشائر الشام" (جزءان) صدرا سنة ١٩٤٥.

* "الريف السوري" (جزءان) الأول صدر سنة ١٩٥٧ والثاني سنة ١٩٥٥.

المخطوطات:

* مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ أحوال اليمن، وقد طبعت في كتاب صدر سنة ١٩٨٩.

* مقالات مختلفة زراعية وتأريخية وأثرية وجغرافية كانت نشرت في الصحف والمجلات السورية والعربية.

* مقالات نشرت في الصحف والمجلات السورية: "المعرفة" و "الشرطة" و "مجلة غرفة زراعة حلب" وجريدتا "القبس" و "النصر" و "مجلة الحوليات الأثرية" و "المقتطف" المصرية.

* يضاف إلى ذلك كثير من الأبحاث المخطوطة والمقالات غير المنشورة التي وجدت في أدراج مكتبه بعضها باللغة العربية وبعضها باللغة التركية والفرنسية.

* * *

كان وصفي زكريا يواجه صعوبات كثيرة في تأمين السيولة المالية المطلوبة لطبع ونشر كتبه، التي جاءت في عصر قل فيه راغبو الثقافة وعشاق الكتب.

وقد أثر هذا على حياته وحياة أسرته، فعلى الرغم من أسفاره ونشاطاته المختلفة، إلا أن دخله بكامله كان موجهاً نحو الإنتاج العلمي ونشره، لذلك لم يقتن بيتاً أو سيارة، ولم يخلف لأولاده من الأملاك شيئاً إلا أنه خلف للعالم العربي آثاراً خالدة.

لم يكن وصفي زكريا سورياً في أعماله، فقد خدم دول الشرق القديم جميعها، كما خدم اليمن والتأريخ العربي، والزراعة العربية، وأسهم في تآليفه المهنية والتأريخية في توحيد المصطلحات العلمية والزراعية العربية.

لم يكن وصفي زكريا يجني من جهوده شيئاً، فهو لم يحظ بأي اهتمام أو تقدير رسمي من أي من الدول العربية، سواء في حياته وحتى بعد وفاته.

ولم تجر له حفلة تأبين، على الرغم من أن ابنه غسان زكريا طلب سنة ١٩٧٩ من وزارة الثقافة أن تتولى إقامة حفلة تأبين له إلا أنها اعتذرت بحجة أن وزارة الزراعة أو نقابة المهندسين الزراعيين، أو إحدى الجمعيات العلمية هي الأولى برعاية مثل هذا الحفل.

كما أنه لم يقم أي باحث عربي بتقديم دراسة عنه سوى ما أورده الأستاذ أبو الفرج العش، كمقدمة لمقال "نهر المرا" كتبه المهندس زكريا، ولم يكمله ونشر بعد وفاته بزمن في مجلة "الحوليات الأثرية" السورية.

كما قام الأستاذ المرحوم عبد القادر عياش بتقديم دراسة عن حياة المهندس زكريا في كتاب أصدره يتضمن ذكريات العلامة الراحل عن وادي الفرات سنة ١٩١٦.

وقد طالب البعض بمنح وصفي زكريا وسام الاستحقاق بعد وفاته.

إن نتاج وصفي زكريا العلمي المتميز، وتقدير المختصين لمكانته العلمية والفكرية والثقافية، التي فرضها بجهوده الحثيثة هي الوسام الخالد الذي انتزعه بجدارة من الجميع.

دير الزور

مركز محافظة الفرات وهي محافظة كبيرة مترامية الأطراف واقعة بين محافظات حلب والجزيرة وحمص وحماه وتمتد حدودها إلى حدود العراق. ويتبعها ثلاثة أقضية هي: الرقة والميادين وأبو كمال. تبعد عن عاصمة سورية مقدار (٤٥٠) ك.م عن طريق دمشق . دير الزور الصحراوي غير المعبد إلاَّ في أوله. وتبعد عن حلب مقدار (٣٣٥) ك.م وبينهما طريق أحسن من طريق دمشق لأن ثلثيه معبد والثلث الآخر صالح لسير السيارات بسهولة إلاَّ في أيام الشتاء حيث يصعب السير قليلاً، وعلى الأخص عند قرية (أبي هريرة) حيث تكثر المستنقعات. وقد كانت المراسلات والمخابرات بينها وبين دمشق وحلب والقامشلي بواسطة البرق اللاسلكي، ولكن من مدة ثلاثة أو أربعة أشهر تم تمديد خط بينها وبين حلب، وصارت حلب هي المدينة الوحيدة التي تتصل معها الدير تلفونياً وهناك بريد منظم بينها وبين حلب والجزيرة يُنقل بواسطة شركات السيارات.

دير الزور مدينة جميلة جاثمة على ضفة نهر الفرات العظيم اليمنى، ويمر من وسطها فرع من هذا النهر، كما يمر العاصي من وسط حماه، وتحيط بها سهول واسعة هي سهول الفرات الممتازة ذات التربة السوداء الخصبة. وهنالك بعض التلال الصغيرة والأودية البسيطة، ويقوم إلى جانبها جبل (البشرى) الذي أمكن استخراج الغار منه، كما أنه بالقرب منها، على طريق دير الزور . حلب، تمتد بحيرة من المالح لا تنضب صيفاً شتاءً، وتسبح فيها أسراب من البط المائي فتؤلف منظراً بحرياً ممتازاً من الماء الأزرق والتموجات والتجعدات. أما العيون المائية فمعدودة تقريباً والآبار المحفورة في الدير هي آبار مالحة رغماً عن أنها لا تبعد عن النهر العذب إلا بعداً قليلاً جداً، فآبار المنازل لا تصلح إلا لسقي

النباتات وغسل الآنية، ومياه الشرب تؤخذ من النهر وتنقل على دواب وتباع في الطرقات. وكثيراً ما تؤمن بعض النسوة هذه المهمة، فتجد امرأة تحمل على ظهرها دناً تملؤه من النهر وتحمله إلى البيوت، وتبيعه بدراهم قليلة، وتقبض ثمنه إمَّا حالاً أو أسبوعياً أو شهرياً. وكثيراً ما يحمل الأولاد قضيباً من الخشب يعلقون على طرفيه وعاءين فارغين يملؤونها ويرجعون بهما وهم يلهثون من التعب والعناء. لهذا، ومن مدة غير قليلة قامت بلدية دير الزور بمشروع جر المياه من النهر وتصفيتها وتوزيعها فأمنَّت بذلك المياه النظيفة للأهالي، وبذلك قلَّت أهمية نقل الماء من النهر إلى البيوت، كما أنها من مدة سنة ونصف أتمت تمديد المياه إلى أبنية المدارس ووضعت مضخات في الشوارع يستقي منها الأهالي الفقراء على مثال ما هو موجود في دمشق وحمص وغيرها. يا له من منظر!! منظر النساء والأولاد وهم يتراكضون نحو المضخة ويجتمعون حولها يتصايحون ويتقاتلون وتريد الواحدة أن تسبق الأخرى وتملأ إناءها قبلها، فالمضخات قليلة العدد، والحاجة للماء شديدة.

أحوال دير الزور الجوية: الصيف شديد الحرارة حتى أن البيضة حينما توضع في الشمس فوق الرمال تُسلق بعد مدة وجيزة والماء يسخن بسرعة، والحر يلفح الوجوه ويهرب الأهالي المقتدرون إلى المصايف السورية أو اللبنانية، ويبدأ الحر من شهر مايس ولا ينتهي إلاَّ في أواخر أيلول. أما البرد فهو شديد في بعض السنوات وبسيط في الأخرى وعلى كل فإن الثلوج قليلة جداً. والأمطار لا تقاس بأمطار البلدان الداخلية والساحلية. وقد تتغير الحرارة في الصيف ليلاً عن النهار فيكون الليل هادئاً. ناعماً ويكون النهار حاراً جافاً، ولا عجب فدير الزور واقعة وسط الصحراء. والليالي وماذا أذكر عن الليالي؟ تلك الليالي المقمرة، الصافية السماء، الهادئة النسيم، التي يسمع فيها خرير مياه النهر من مسافات بعيدة، ويخيم فوقها هدوء الليل وسكونه وتسبح فيها الروح في جو لا متناهٍ من الآمال والأحلام. ففي

سكون الليل، وبعد قضاء نهار كله حرٌ وضجر يتوزع الناس جماعاتٍ جماعاتٍ ويسرحون في وسط البراري أو على ضفاف الفرات، يُنشدون الراحة والبرودة والمناظر الخلابة. تلك هي ليالي الصحراء الفاتنة الخالدة. وتهب على المدينة رياح شديدة صحراوية كالأعاصير تحمل الغبار ولها علامات عندهم ودلائل، فبينما يكون السوق مفتوحاً والناس يبيعون ويشترون إذ يخف الناس سراعاً لإغلاق حوانيتهم وتقفز الشوارع من المارة، وتهب أعاصير شديدة من الغبار تلون الجو بلون أسود قاتم، وتحجب الشمس، فتُغلق أبواب الغرف، وينزوي السكان في أطرافها ينتظرون زوال (العجَّة) كما يسمونها، ولا يلبث الجو أن يتلون بلون أحمر متأجج، ثم بلون أصفر ثم يعود إلى لونه الطبيعي وهذا ما يؤذن بزوال (العجة) فيخرج الناس من الغرف فيرون أن أرض الدار والغرف كلها قد ملئت بالغبار والرمل الناعم حتى ولو كانت محكمة الإغلاق، فالعبار يدخل من كوة المدفأة، أو ثقب المفتاح.

<u>*حالة الأراضي وامتلاكها وزراعتها:*</u> الأراضي كما قلت، سهلة خصبة، قليلة الأحجار، رملية لا ترتفع عن ماء النهر إلا قليلاً فيسهل إسقاؤها، وتصلح لمختلف أنواع المزروعات. وهي ملك للأهالي وللأغنياء منهم بصورة خاصة ويشتغل فيها فلاحون من (الشوايا) يمتدون على طول مجرى النهر وأغلب هذه الأراضي يزرع سقياً بواسطة (الغرافات) التي تخرج الماء من النهر وترسله في سواقٍ صغيرة فتسقي الأراضي. والغرافات ممتدة على طول النهر إلى حدود العراق وتديرها الحمير والبغال فتنشأ عن دورانها أصوات جميلة وتؤلف منظراً بديعاً. وقد انتشرت الآن، لأجل الإسقاء، المحركات الكهربائية التي تنضح الماء بكثرة وترسله في سواق كبيرة أشبه ما تكون بالأنهار الصغيرة أو الجداول، وتسقى مسافات شاسعة. من هنا نستنتج أن اعتماد الأهالي في إرواء الأراضي هو على المحركات والغرافات لا على مياه الأمطار. ففي الوقت الذي يضطرب فيه الفلاح الحوراني

من انقطاع المطر نرى أن الفلاح الديري عنده الأمطار تأتي في الأهمية في الدرجة الثانية. فأول ما يخاف منه الأهالي على موسمهم هو فيضان النهر، فهو حين يفيض ترتفع مياهه إلى أربعة أمتار تقريباً فتغرق ما حولها من المزروعات وتتلفها. ويبدأ الفيضان منذ أول نيسان، فينشئ الأهالي السدود ويتلقفون أخبار ارتفاع الماء ما بين لحظة ولحظة وتجيئهم هذه الأخبار لاسلكياً من مدينة جرابلس على الحدود السورية فيتأهبون وكثيراً ما جرفت المياه الغرافات الموجودة على ضفة النهر وكثيراً ما غمرت جزءاً من البلدة وعلى الأخص الحي المسمى بـ (الحويقة) والواقع بين فرع الفرات الصغير الذي يمر من منتصف البلدة وبين النهر الأصلي. فالأهالي حينما يهددهم الفيضان يصبحون كلهم كتلة واحدة، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، وكبيرهم وصغيرهم، أمام درء أخطاره يحملون المعاول والمجارف، ويسيرون غالباً ليلاً وهم ينشدون أناشيد حماسية شعبية ويحملون المصابيح ويذهبون إلى ضفاف النهر المنخفض فيعلّونها ويحكمون سد الفرجات أما النهر فيكون مزمجراً، هادراً، يسمع صوته من بعيد.

ويعتني الأهالي اعتناءً عظيماً بزراعة الحبوب وعلى الأخص القمح والشعير اللذين يدران عليهم غلات وافرة ويأتيانهم بأصناف ممتازة. وعماد حياة السكان على الزراعة وتربية المواشي. أما الأثمار فقليلة لقلة البساتين لأن صاحب الأرض يفضل زرعها على جعلها بستاناً ولقلة الأخصائيين في فن البستنة ومع ذلك فهنالك بعض الأثمار الممتازة وربما يستغرب الناس وجود تفاح يضاهي تفاح الزبداني بحلاوته وكثرته، ووجود خسٍ وتوتٍ يطلق عليه اسم (فرطوس) أما العنب والبرتقال والموز فيؤتى بها كلها من المدن الداخلية وأسعارها تبقى غالية. والبطيخ الأصفر (القاقون) من أشهر حاصلات الدير وهو حلو جداً. واليقطين كبير أيضاً. وتوجد أنواع من الخضروات غريبة حقاً: فالبندورة صغيرة كثيراً، بقدر كرات (الدحل) التي يلعب بها الأطفال الصغار، أما الباذنجان فبالعكس كبير وطويل

وضخم فإذا أراد المرء أن يطبخ أكلة (محشي) من الباذنجان فيكفيه لذلك عدة باذنجانات وواحدة منها تكفي الشخص ليشبع ويملأ بطنه. والفجل كثير وحلو والسكان يأكلونه مع كل أنواع الطعام، ويأكلونه لوحده، وكثيراً ما رأينا الطلاب يحضرون معهم في جيوبهم فجلات يتقاتلون عليها. والديري عنده اعتقاد بأن الفجل هو من أحسن الأدوية. أما الباميا فتباع بالقرون لا بالأوزان فالشخص يشتري مائة قرن أو مائتين أو ثلاثمائة الخ..

الحيوانات متنوعة: فهنالك الخيول العربية الأصيلة، التي يقصدها كثير من أهل الداخل والساحل والأجانب لمشتراتها. وهناك الحمير التي تستورد غالباً من العراق ويتاجر بها الأهالي مع أهالي القلمون وحمص وغيرها، وهناك الدجاج المنتشر في مختلف البيوت والرخيص الثمن حتى أن أكلة الدجاج تكلف أقل مما تكلفه أكلة من الخضروات، وبيض الدجاج رخيص جداً ولولا الشمس لكان أرخص مما هو عليه الآن. وهناك الأغنام المنتشرة حول دير الزور والتي يرعاها قبائل البدو والتي تدر على المدينة أنواع الألبان، ويكفي للدلالة على ذلك أن يقف الإنسان على جسر الفرات صباحاً فيشاهد ورود البدو والفلاحين وهم يحملون الألبان والحليب والزبدة والقشدة. غير أن اللبن مائع أكثر من اللازم ولا يقاس بأنواع اللبن الجامد الذي يكثر في حماه وحمص، والزبدة وافرة ورخيصة الثمن، والحليب تنادي عليه النسوة منذ الصباح الباكر فهو يملأ البيوت الغنية والفقيرة. والسمن الديري مشهور بجودته ومالئ أسواق المدن السورية. هذا ولا يغرب عن ذهننا أهمية الأسماك التي تستخرج من نهر الفرات وتمتاز عن سمك العاصي بضخامتها وسمنها وشدة بياضها الناصع والتي تشحن بكميات وافرة إلى فلسطين. ومن النباتات التي تؤلف وارداً هاماً من موارد الدير هي الكمأة فالأهالي ينظفونها وييبسونها ويخزنونها لأيام الشتاء، أو يشحنونها إلى دمشق وحلب.

الدور والأزقة والمباني: الدور متشابهة الهندسة تقريباً فهناك في كل دارٍ بيتان

بينهما كاشف وساحة سماوية، وبئر، وسلم للصعود على السطح. وعدد طبقات البناء لا يتجاوز الثلاثة طبقات ودور الأغنياء مبنية على الطراز الحديث، عالية، يصعد إليها بدرجتين أو ثلاث درجات، وتكون مسقوفة غالباً والحدائق قليلة في البيوت وأما بيوت الخلاء فأكثرها على الأسطحة ولها حفرة داخل البيت أو خارجه والأزقة خالية من المجارير العامة وهذا نقص عظيم في بلدة عامرة كدير الزور.

الجدران من الأحجار غير المنحوتة غالباً أو المنحوتة لعلو متر من الأسفل فقط وغالباً لا تستر الجدران الخارجية بالطين أو الإسمنت أو البياض إلا دور الأغنياء. وأبواب المنازل تبنى غالباً من الحجر الرخامي ولها مفاتيح كبيرة جداً يصعب حملها، وإطارات النوافذ من الرخام أيضاً. ولا يستعمل الإسمنت في البناء إلا نادراً فالأسطحة وأرض الغرف وجدرانها تطلى بالجص، والجص كثير في دير الزور وشائع الاستعمال وهو يمتص الماء كالبيلون ولذا فإن غسل أرض الغرف بالماء غير شائع الاستعمال بل يكتفي بكنسها ورشها رشاً بسيطاً. والبناء سهل جداً فليس هناك إلا تركيب الأحجار ووضع الجص بينها بدلاً من الطين والكلس. هذا وقد ازداد عدد المنازل ازدياداً فاحشاً في السنين الأخيرة وكثرت البنايات وامتدت.

أما الأزقة فهي غير مبلطة إلا أنه بوشر بطليها بالقار ولن يمض وقت طويل إلا وتصبح مطلية كلها. ومن الصعب جداً السير في الأزقة أيام الشتاء لأن المستنقعات تكثر والطين يعرقل السير. إن الشيء الداعي للغبطة هو أن جميع شوارع الدير وأزقتها مستقيمة تماماً والشخص الغريب لا يقدر أن يفرق بين زقاق وآخر إلا بصعوبة لأنها كلها مستقيمة ومتشابهة بالبنايات. فهناك ثلاثة شوارع كبيرة تجتاز المدينة من أولها إلى آخرها وأحدها يمر من منتصف المدينة تماماً وعلى طرفيه الحوانيت والمقاهي وهو أهم شارع ومنها تتفرع الأزقة الممتدة من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب وهي مستقيمة أيضاً. وفي منتصف

البلدة حي كبير هو حي الدير العتيق وفيه أبنية دير الزور القديمة التي تشكل البلدة الأصلية، بناياته غير صحية، وأزقته ضيقة وغير مستقيمة ولا يتجاوز عرضها المتر والنصف.

من الأبنية الحكومية الكبيرة هو بناء دار الحكومة ويحوي جميع دوائر المالية والداخلية والمعارف ومقر محافظ الفرات ويتفرع عنه بناء إلى جانبه الأيسر فيه المحاكم بأنواعها، وبناء إلى جانبه الأيمن فيه دائرة الدرك والشرطة. وهذه البناية بطبقتين من الحجر وأمامها حديقة حاوية مختلف أنواع الزهور وجميلة الهندسة ويرجع تاريخ هذا البناء إلى أيام الحكومة التركية وفي الدير مستشفى عظيم هو المستشفى الأميركي، بنايته واسعة تحيط بها حدائق غناء وتشرف على نهر الفرات. وهناك كنيسة عظيمة للآباء الكبوشيين، ومستشفى وطني بنايته ضخمة أيضاً هذا عدا مستشفى الجيش وأبنيته، وعدا دائرة مندوب المفوض السامي الحاوية على حديقة هي والحق يقال من أعظم الحدائق وأدهشها وأحسنها ترتيباً واحتواء لمختلف أنواع الزهور وفيها ملعب للتنس والرياضة، وهناك خمسة مساجد كبيرة لها مآذن، أسطوانية عالية منتهية بقمة مخروطية.

جسر الفرات الكبير المعلق: قلنا إنه يمر من وسط المدينة فرع من نهر الفرات يقسم المدينة إلى شطرين غير متساويين ويصل ما بين هذين القسمين جسر هو كغيره من الجسور إلا أنه يمتاز بطوله وقوته فهو مبني على سبع قناطر من الحجر الصلد وعلى طرفيه درابزين من الحديد المشبك.

وهذا الجسر الأول يسمى بالجسر الصغير. أما الجسر الكبير، أكبر جسر في البلاد السورية وأطوله، فهو قائم على نهر الفرات الأصلي، خارج المدينة، وطوله (٥٠٠)م وهو جسر معلق بقضبان من الحديد المفتول ويرتكز على أربعة أسطوانات من الحجر الصلد يربط بها بالسلاسل وعرضه عرض سيارة الشمس وعلى طرفيه ممشيان ضيقان يسير عليهما المارة، وعلى طرفيه حديد مشبك

بأسلاك قوية وحينما يمر عليه حيوان أو سيارة أو عجلة نراه يهتز ويرقص وتقوم على طرفيه غرفتان تلفونيتان لتأمين السير عليه لأنه لا يمكن أن تمر عليه سيارتان باتجاهين مختلفين. كما أنه تقوم عنده نقطة من رجال الجمرك لمنع تهريب البضائع ولاستيفاء الجمارك فهو والحالة هذه حلقة الاتصال بين سورية والجزيرة، وقد أتى بفوائد قيمة في تأمين التجارة والمواصلات وكلف بناؤه غالياً وهو من أعظم المنشآت في دير الزور بل في سورية كلها والعبور عليه مجاناً.

وعلى ضفة النهر اليسرى، عند انتهاء الجسر يقوم مشتل زراعي كبير فيه مختلف أنواع الثمار والزهور أما إنارة المدينة فقد كانت بواسطة المصابيح البترولية الكبيرة ولكن في ١٩٣٨ تم إنشاء شركة كهرباء دير الزور الوطنية وتم تنوير المدينة بالأنوار الكهربائية وتلك خطوة كبيرة خطتها عروس الفرات في طريق التقدم والعمران.

<u>*سكان دير الزور:*</u> يبلغ عدد السكان (٦٠) ألف نسمة تقريباً وقد كانوا إلى زمن قريب لا يزيدون عن الثلاثين ألفاً، وما هذا الازدياد إلا لكثرة الهجرة إلى الدير بسبب موقعها التجاري والزراعي الممتاز وبسبب وجود شركة البترول فيها. والسكان الأصليون يعدون على الأصابع وأما الباقون فكلهم استوطنوها حديثاً ورضوا بها مقراً ومقاماً. وقد هجر حياة البراري والخلاء بعض الشوايا وألفوا حياة المدينة. الأكثرية الساحقة من السكان يدينون بالديانة الإسلامية السنية وفيهم قسم بسيط من المسيحيين وقسم ضئيل من الأرمن واليهود ومعظم السكان يعتمدون على الزراعة وتربية الأغنام والاشتغال ببعض الصناعات اليدوية كالخياطة الإفرنجية، والحدادة، والنجارة، وصنع الأحذية الخاصة بالدير وهي (الجواريخ(. ويقسم السكان إلى قسمين كبيرين لابد أن ينتسب إلى أحدهما أفراد سكان الدير وهما (الوسطيون والشرقيون) ومن العجب حقاً أن القسم الأول يسكن أفراده في غربي المدينة والقسم الثاني يسكن أفراده في شرقها وبين هذين القسمين من السكان

عداوة قديمة ومشاحنات كثيرة انقرضت هذه العداوة والمشاحنات من مدة طويلة، ولكنها عادت إلى الظهور ١٩٣٨ فقام كل سبط، بعد حادثة بسيطة، يدعي القوة والعزة في سبطه، ولكن العقلاء تداركوا الأمر وأطفؤوا الحادث وأظن أن هذه الأفكار والعنعنات لن تعود لأن النشء الحديث والشباب الناهض أدرك ضررها. وهل هناك داء يفتك في جسم الأمة أعظم من داء التفرقة؟

العادات والتقاليد: في حفلات الزواج تقام الأفراح كالعادة ويحمل الحمالون الأطعمة والحلويات على رؤوسهم ويذهبون بها إلى بيت (العريس)، وتحمل السيارات النساء والأولاد. وتمر بهم من الأزقة والشوارع وهم يهزجون بأهازيج الفرح، وأعظم المآكل المستعملة في الأعراس هو طعام (الثرود) الذي يعد الديريون في صنعه من الأخصائيين. وأفراحهم عند ختان الأطفال أو استقبال الحجاج هي كالأفراح التي تقام في جميع البلاد السورية تماماً.

أما في المآتم فلدير الزور عادات خاصة هي أشبه ما تكون بعادات البداوة. فالنساء يلطمن خدودهن ويندبن الفقيد بأنغام حزينة جداً وعلى دقات الدفوف، ويضربن على صدروهن ويرثين الفقيد بجمل توافق المقام تلقفنها عن بعضهن، ويذهبن كل صباح إلى المقبرة فيبقين عند قبر الميت إلى المساء لإيناسه كما يزعمن، وتدوم هذه الحالة عشرة أيام. ويوضع المتوفى في تابوت غالباً ويدفن وهو به. أما التعزية بعد دفن الميت في المقبرة فغير متبع إذ إن المشيعين يبقون في المقبرة إلى حين انتهاء الدفن تماماً فيصيح شخصٌ أخصائيٌ قائلاً: (الفاتحة) فيقرأ المشيعون سورة الفاتحة ويرجعون من حيث أتوا. والتعزية تكون في منزل أهل الفقيد وتبقى ثلاثة أيام وكيفية إجرائها هو أن يدخل الرجل المعزي إلى الغرفة الموجود بها أهل الفقيد وقبل أن يجلس أو يسلم يقول: (الفاتحة) فيقرأ كل الحاضرين سورة الفاتحة ويهبونها لروح الفقيد، ثم يسلمون على الداخل وهكذا.. والقبور في دير الزور منحوت أو مرسوم على بعضها، بعض الأدوات التي كان

يشتغل بها الميت أو يستعملها أو يحبها. فعلى بعض القبور صور مسدسٍ أو خنجرٍ أو مشط رصاص، دلالة على أن الفقيد شاب شجاع. وعلى بعضها مرآة، ومشط، وعقد، وسوار، دلالة على أن الفقيدة هي امرأة شابة متأنقة في مقتبل العمر.

اللباس يختلف عند المتعلمين عن غير المتعلمين. فالمتعلمون أو الأغنياء يلبسون الألبسة الإفرنجية الحديثة ويتأنقون كثيراً في لباسهم ويسيرون في الطرقات مكشوفي الرؤوس بحرية تامة لا رقيب ولا منتقد، وأما الباقون من الرجال فيلبسون الأثواب وفوقها الرداء ولا يخلعون الطرابيش. والنساء يلبسن الأثواب الطويلة المزركشة ويضعن بدلاً عن الملاءات، عباءات من الحرير الخفيف ذي الألوان المختلفة المتنوعة، ويسترن شعرهن بمنديل عادي، يستر رأسهن وشعرهن ووجههن تماماً. وهن يتزين بالأساور والعقود الذهبية ويضعن في أرجلهن فوق الجوارب الخلاخل الفضية، والأطفال يهمل أمر لباسهم ونظافتهم كثيراً حينما يكونون في سن الصغر، فالطفل يمشي حافي القدمين لا يستره إلا ثوب واحد ويلعب في الأزقة بالتراب، مكشوف الرأس أو مستورة بلباس رأس يميز الطفل الديري عن جميع الأطفال في حمص وحماه وحلب ودمشق وهو لباس البيرية Beret وعلى كل فمن الواجب على أهل الطفل أن يعتنوا بنظافته وتربيته منذ الصغر ليساعدو المدرسة على تهذيب ولدهم وتربيته.

الحياة العائلية عند الطبقة المتوسطة بسيطة للغاية فالمرأة تنادي زوجها باسمه والزوج ينادي زوجته باسمها والأسماء تحرف عن أصلها كثيراً فالبنت التي اسمها (احسان) يحرف اسمها إلى (حسونة) ومن العادات المستهجنة المكروهة ديانة هي حذف كلمة (عبد) من الأسماء التي تبدأ بها فالشخص الذي اسمه (عبد الوهاب) ينادونه بكلمة (وهاب) فقط تخفيفاً والذي اسمه (عبد اللطيف) ينادونه بكلمة (لطيف) وهذه العادات ربما كانت منتشرة في بعض البلاد السورية غير أنها

كثيرة الاستعمال في دير الزور.

كيفية قضاء أوقات الفراغ: إن أنس كل شيء من ذكريات الدير فإنني لا أنسى تلك الساعات التي نقضيها مساء أو صباحاً على ضفة نهر الفرات، في وسط مقاهٍ طبيعية، تحت ظلال الأشجار الوارفة العالية، تلك المقاهي التي يسميها الأهالي (جراديق) فالنهر يسير بهدوء.. وسكون.. والأنوار الكهربائية تتلألأ على صفحة المياه كما تتلألأ النجوم في كبد السماء والأشجار.. العالية.. المنتصبة تترقرق خيالاتها على وجه الماء، وتهتز أغصانها مع سريان النسيم العليل، تحت كل شجرة يلتئم شمل عدة أشخاص، يجلسون على كراسي خشبية طبيعية يسمرون ويضحكون ويعبثون. وإن أنس كل شيء من ذكريات الدير فإنني لا أنسى الوقفات الخالدات التي كنا نقفها على جسر الفرات ممسكين بشرطانه نهزها ونجرب قوتها، ونتأمل جمال الطبيعة المتجسم في منظر النهر الواسع كالبحر، الهادئ كالصحراء، الساكن كسكون الليل، ترسل الشمس أشعتها الذهبية وقت الأصيل تودع الماء وتلونه بألوان قوس قزح، وهنا في وسط النهر جزيرة، وهناك غراف، ومن بعيد يظهر قارب صغير يسير ببطء وهدوء. جمال، وجلال، وروعة.

وفي أيام الربيع يقضي الناس أوقات فراغهم فيسرحون ويتجهون نحو تلال في جنوبي المدينة يطلق عليها اسم (الجبل) وما هي بالجبل، يتفرقون على تلك التلال وكل طائفة تحمل طعامها معها وتحمل (حاكياً) لتضيف إلى جمال الطبيعة جمال الصوت. وفي الليل يقضي الرجال أوقات الفراغ في الذهاب إلى قاعة السينما، وهناك قاعتان الأولى قاعة سينما (أمبير) والثانية قاعة (سينما روكسي) وقد افتتح في ١٩٣٨ ناد عائلي يجمع شمل عوائل الدير المتعلمة الراقية ولكنه لم يشجع من قبل الأهالي كاللازم فاضطر لإغلاق أبوابه.

النساء يقمن بحاجات البيت كلها من طبخ وتنظيف وكثيراً ما يقمن بوظيفة البيع والشراء، ففي بضعة بيوت توجد مخازن كمخازن السوق تماماً فيها مختلف

أنواع الأقمشة تقصدها للشراء النساء اللواتي لا يرغبن النزول إلى السواق. وبعض النسوة يبعن في البيت الحليب واللبن والكمأة وينادين عليها في الطرقات. ويتقن الرجال رقص الدبكة، فيدبكون أيام الأفراح والأعياد ببراعة ويغنون أغاني جميلة فهناك أغنية مطلعها:

يـــا عويـــد الـــزل الـــديراني يـــا عويـــد الـــزل

يســلم لـــي حبيـــب القلـــب احلـــى مـــن الكـــل

وأشهر أغنية يترنم بها الصغار والكبار، شمس الضحى ميالا، شمس الضحى ميالا

لالا ولـــك لالا ولالا شـــمس الضـــحى ميـــالا

لالا ولـــك لالا ولالا بنـــت الأوادم يـــاهلالا

كـــل الغـــزلان وردت إلا غزالـــي لالا

نـــودي ولـــك حلـــوة نـــودي مـــن الجســـر للعمـــودي

والله ان مـــاعطوني حبـــي لاضـــربهم بالبـــارودي

وقد انتشرت هذه الأغنية في مدينة حماه كثيراً، ويغنيها الأهالي بنغمة حزينة مؤلمة.

__الحالة الصحية والأخلاقية والثقافية:__ الحالة الصحية جيدة فالأهالي طوال القامة، منتصبوها أصحاء الجسم، ذوو لون أسمر غالباً، وعيون نجل فيها جمال البداوة والصحراء، وهم ماهرون جداً في السباحة التي يتعلمونها من سن الصغر، ويركبون الخيل. والاعتناء بالرياضة شديد وفي كل سنة يصير معرض في دير الزور يقوم فيه الطلاب والأهالي بمختلف الألعاب الرياضية، من العدو، إلى القفز، إلى ركب الخيل، إلى المباراة بكرة القدم، ولعب التنس. وهناك جمعية خاصة للاعتناء بالرياضة اسمها جمعية الألعاب الرياضية، تقيم مباريات الكرة، وألعاب التنس ما

بين وقت وآخر. والنهضة الكشفية عظيمة جداً فالطلاب ٨٠% منهم أو بالمئة خمس وثمانون هم من ضمن أفراد فرقة المدرسة ويبلغ عدد الكشافين في نفس المدينة مقدار ٨٠٠ . ١٠٠٠ كشاف والأهالي يتحمسون كثيراً حين رؤية الكشافين يمرون من الأسواق، فالرجال يصفقون والنساء يرمون قطع الحلوى ويدعون الله بأن يحفظ الأطفال والدموع تترقرق في أعينهن فرحاً واعتباطاً. فمن هنا ندرك تماماً لماذا يكون الفرد قوياً صحيح الجسم. غير أن بعض أفراد (الشوايا) المحيطين بالمدينة فيهم بعض الأمراض كأمراض العيون والزهري الذي كان منتشراً بصورة فظيعة جداً والذي كاد يضمحل الآن نتيجة الجهود الفعالة التي قامت بها الحكومة. الحمامات في دير الزور قليلة فرغماً عن كبر المدينة وكثرة عدد سكانها فإننا لا نرى إلا حماماً واحداً وهذا نقص يجب تلافيه وتداركه. ماء الشرب نظيف ومصفى، والأكل بسيط جداً وغير منوع، والنساء ماهرات بصنع (الشعيرية) الفاخرة وأحب ما يكون إلى الأهالي هو شرب الشاي بلونه الغامق ومائه المعقد وحلوه الكثير وأحب الأكل إليهم هو طعام (الفوره) وهي أكلة ديرية صرفة و (الثرود) و (الكمأة). الحالة الأخلاقية حسنة وحوادث القتل والضرب والسرقات قليلة وعادية.

أما الحالة الثقافية فهي بحاجة قصوى لجهود جبارة فالطفل مشهور بذكائه وسرعة خاطره وشدة حفظه وقوة ذاكرته وهو يتعلم بسرعة جميع ما يلقنه إياه أساتذته. والمدارس الابتدائية عددها خمس منها واحدة للإناث والمدارس الأولية عددها ثلاث منها واحدة للإناث أيضاً، وهناك بعض المدارس الأهلية، وهناك مدرسة تجهيزية صفوفها غير تامة إذ ينقصها الصف الأول والثاني، وعدد طلابها قليل. ولا يوجد المدينة إلا مطبعة واحدة وقد أنشئت مجلة اسمها مجلة (الفرات) يحررها بعض أدباء المدينة ولكنه ألغي امتيازها بعد سنة من صدورها والمكتبات الخيرية العامة معدومة. وهناك محلان فقط لبيع الكتب والأدوات المدرسية. وعدد التلاميذ والتلميذات قليل بالنسبة لكبر المدينة وبالنسبة لغيرها من المدن السورية.

المباني الأثرية: دير الزور قليلة المباني الأثرية وليس هنالك ما يستحق الذكر غير أن قضاء الرقة مملوء بالآثار، وهناك بالقرب من قضاء الميادين قلعة (الرحبة) وبالقرب من قضاء البوكمال (قرية الصالحية) ذات القلعة المملوءة بالآثار أيضاً. والمدينة خالية من المزارات إلا مزار واحد قرب قضاء الميادين يسمى (عين علي) تقصده النساء من المدينة ويذبحن عنده الذبائح ويدعون الأدعية.

تقاريظ كتابنا "جولة أثرية"

المؤرخ ٢٨ كانون الأول ٩٣٤

عن جريدة "الأيام" العدد

مجد الآباء وعظمة الأجداد

جولة في كتاب الجولة الأثرية

الأبحاث التي تناولها هذا السفر النفيس

"**لحضرة الأستاذ هاني أفندي الجلاد**"

يبعث الله من أولي العزم في الخليقة رجالاً يجوبون صعاد الأرض وهواءها ويستنطقون معالمها وآثارها ويستخرجون كنوزها ومخبآتها.

وقد سخر الله لهم القلم يرسمون به، ما عفا عنه الدهر فما زال باقياً وما أكلت عليه الحقب فصار خافياً أولئك هم السائرون في الأرض يكلمون الرسم والطلل وأولئك هم المؤرخون.

وقفت في كتاب الجولة الأثرية الذي خطه قلم المهندس الزراعي القدير الأستاذ أحمد وصفي زكريا على ما ضمه الجزء الشمالي من البلد السوري مبتدئاً من بلاد كليكيا ويسمونها الثغور إلى أبواب دمشق، فعرفني كتاب الجولة الأثرية وزادني معرفة بمجد آبائنا وعظمة أجدادنا العرب الذين عمروا هذا الجزء المخضوب التربة، ونزلوا في إنطاكية ومنبج وحلب وقنسرين وأفاميا وسليمية وحماه وحمص وقلمون وتركوا عندها عزة العرب القعساء تنطق بها وإن سكت الدهر قلاع، بغراس المضيق، منبج، حلب، قنسرين، أفاميا، شيزر وكثيرات غيرها من

الصياصي والقلاع والحصون التي اقتحمها العرب وجددوا بناءها والتي رفعوها على رؤوس حرابهم وحد ظباتهم.

أتى مؤلف كتاب الجولة الأثرية على ذكر المدن والكور في هذا البلد وعرض لها في ماضيها وحاضرها وأشبعها بحثاً وتمحيصاً، فكنت أجد فيه ما يجده المرافق لهذه الأمم التي مرت بهذه البلاد فكان أحسن كتاب في موضوعه وفي بابه، وكان حقاً على كل فرد ممن يقطن هذا الوطن وممن يجمعه به نسب العروبة أن يتخذه صاحباً ودليلاً فهو زاد الكاتب والشاعر والمؤرخ.

يجـــد فيـــه العـــين والاثـــر   مـــا بقـــي منهـــا ومـــا انـــدثر

ما كنت أعرف من قبل أن مضيق كولك . باب كليكيا . هو المضيق الذي مر به امرؤ القيس وعناه بقوله:

بكى صاحبي لما راى الدرب دوننا   وايقـــن انـــا لاحقـــان بقيصـــرا

فقلــت لــه لا تبــك عينــاك إنمــا   نحــاول ملكــا او نمــوت فنعــذرا

وما كنت أعرف قبل أن أتمتع بكتاب . الجولة الأثرية . مناعة الشعوب التي قطنت هذه البقاع من أكراد وتركمان وشركس وأرمن، وأن دولة العرب قامت في هذا الوسط وقبالة بلاد الروم فكانت حرباً على من ناوأها من القاطنين، وسعيراً على ما وراء طوروس، وبهذه الدولة استقام الأمر للعرب في بر الشام وبر الحجاز وشبه الجزيرة.

وبهذه الجولة وقفت على ربوع طرطوس وأضنة ومسيس وبياس والاسكندرونة وصعدت جبل اللكام واطلال قنسرين وخر البصر راكعاً عند قصر ابن وردان.

لقد سد النقص الواقع في تدوين تاريخ بلادنا هذا الكتاب القيم والسفر النفيس، فإذا تأبطه أبناء هذه البلاد وتفقهوا فيه عرفوا قيمة الأرض التي هم عاكفون عليها وتغلغلت محبتهم لها في جوانحهم، ومن عرف الدرة قدر لها قيمتها.

وسبحانك اللهم إن كثيراً من أبناء البلاد العريقين بنسبهم لها لا يعرفون من بقاعها ومصانعها وتاريخها إلا قليلاً، وما خلق الإنسان عالماً وإنما مجال العلم واسع فسيح وهذه الجولة الأثرية يجل من القارئ واقفاً على شؤون بلاده وشجونها.

ويروقك هذا الأسلوب الطبوغرافي الذي يصف المعاهد والآثار حتى كأنك تراها. بل لو رأيتها منها بقدر ما تعرفه عنها بكتاب جمع الشارد والوارد وقيد الماثل والآبد.

هذا التمثيل الطبوغرافي قد وضع أمام عين القارئ صورة تجتمع بها جميع الأدوار التي مرت بها البلاد منذ دحاها داحيها. إني أقدر الجهود التي بذلها الأستاذ زكريا في وضع كتابه هذا وكأن بما وضعه عن بلاده ياقوتها الدمشقي.

"**هاني الجلاد**"

وقد جاء في جريدة اللاذقية في العدد ١٢٨ وتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٣٥ في عالم الصحافة.

جولة أثرية

الأستاذ البارع السيد وصفي بك زكريا من شباب الوطن الناهض رضع لبان العلوم والمعارف منذ الصغر، حيث كنا نتوسم بمستقبل باهر له لما فطر عليه من الرزانة والأدب والعبقرية وصدق فالنا، وأصبح اسم وصفي زكريا ملء الأسماع والأبصار، حيث تولى مديرية مدرسة السلمية الزراعية ثم مفسد أملاك دولة سورية ودرس عليه كثيرون من الأدباء فأصبحوا في مقدمة شباب البلاد رقياً وثقافة، وتولوا فيها المناصب والمراتب ومن جملة آثاره النفيسة كتابه الأخير المعنون به "جولة أثرية" حوى تاريخ بعض البلاد الشامية وجغرافيتها وطبوغرافيتها بقلم سلسل وأسلوب بديع مزداناً بصور الآثار على ورق جيد وطبع نظيف يجدر بكل أديب وطني مطالعته واقتنائه وثمنه (٧٤) قرشاً سورياً ويطلب من المؤلف المشار إليه ومن مكاتب دمشق وحلب فنحض على أن يقتنيه كل وطني أديب.

وجاء في العدد ٩٩ من مجلة الرسالة بتاريخ ٢٧ مايو ٩٣٥

جولة أثرية في
بعض البلاد الشامية

بقلم: أحمد وصفي زكريا

شاء لي حسن الحظ أن أهبط يوماً دار صديقي المصور الفنان النابغ الأستاذ شعبان زكي بالمطراوبة، فلم تكد عيني تقع من الجدر على ما زينها به صاحبها من آيات الفن الرائعة حتى أحسست في أعماق النفس غبطة ونشوة، وكأنما سمعت حيئنذ صوتاً يجلجل في أغوار الضمير يصيح بي: مصر العزيزة كنانة الله في أرضه!! ومبعث هذا الصوت وذلك الإحساس هو أني رأيت بلادي داخل الأطر وقد ألبسها الفنان زخرفاً وزينة لم يكن لي بهما عهد من قبل.. قال لي الأستاذ: ذلك مبدئي وهو أن يأخذ الفنان بأيدي الناس حتى يضع أصابعهم على مواضع الجمال من بلادهم فإن وفق كانت لنا وطنية تشتعل في الصدور، فأصل الوطنية حب الوطن، وباعث حب الوطن إحساس بجماله. قلت: والله ما أجمل أن يكون هذا وسيلة الفنون جميعاً، تصويراً وكتابة وشعراً وموسيقى.

ومنذ ذلك اليوم رسخ في نفسي مذهب مصورنا الفنان وتمنيت أن يكون لنا بين الكتاب والشعراء من يضيعون لنا بلادنا تحت أبصارنا وأسماعنا في صور تستهوي الألباب فتدفع الأفئدة إلى الفتنة والهيام ثم إلى العبادة والتفاني.

ذكرت ذلك كله عندما أخذت أتصفح هذا الكتاب القيم الجليل،

الـذي نقدمـه الآن إلـى القـراء، فهـو كمـا تـرى مـن عنوانـه جولـة فـي بعـض الـبلاد الشـامية، وصـفت وصـفاً دقيقـاً بارعـاً، فـلا تقـرأ مـن الكتـاب جـزءاً إلا وقـد ارتسـمت فـي ذهنـك لـه صـورة قويـة رائعـة كأنمـا جاءتـك مـن رؤيـة العـين، بـل إن الكثـرة الغاليـة مـن الأعـين لتمـر مـر الكـرام علـى أغلـب مـا تقـع عليـه ممـا لا يفـوت الأسـتاذ المؤلـف منـه شـيء، فمـا أحوجنـا فـي الحـق إلـى مطالعـة بلادنـا بـأقلام الكـاتبين، إذ الحقيقـة المـرة هـي مـا يصـفها المؤلـف فـي مقدمـة الكتــاب بقولــه: "فقــد كنــت وأنــا أتوغــل فــي هــذه الأبحــاث أرى بكثيــر مــن الأســف أن جــل مثقفينــا ومفكرينــا لا يعرفــون مــن شــؤون مســاقط رؤوســهم وجغرافيتهــا وتــاريخ القــديمين والحــديثين ولا مــن بقاعهــا ومصــانعها الأثريــة ومفاخرها التليدة ومدافن رجالاتها البارزة وتراجمهم قدراً كافياً.

وقـد رجــع المؤلـف فضــلاً عــن المشــاهدة إلــى عشــرات مــن أوثــق المصــادر، وإن نظـرة عجلـى لتكفـي للدلالـة علـى ذلـك المجهـود الجبـار الـذي أنفقـه الأسـتاذ المؤلـف فـي هـذا السـفر الجليـل: "ومعظـم هـذه الأوصـاف ممـا رأيتــه بعينــي وتحققتــه بنفســي أو بالواسـطة الوثيقـة علـى عسـرة نوالـه، أو ممـا عثــرت عليــه فيمــا ظفــرت بــه مــن الكتــب الجغرافيــة والتاريخيــة والــرحلات القديمــة والحديثــة العربيــة والتركيــة والإفرنجيــة علــى تفرقــه فــي تضــاعيف السـطور. فجـاء الكتـاب وافيـاً علـى مـا أظـن بـبعض حاجتـه مـن يقـدر هـذه الأبحاث قدرها ويعرف مبلغ التعب والنشب اللذين تتطلبهما.

الحـق الـذي لا ريـب فيـه أنـه كتـاب كانـت تفتقـر إليـه المكتبـة العربيـة افتقـاراً شـديداً، وإننـا لننتهـز هـذه الفرصـة لنتقـدم مخلصـين إلـى المؤلـف بكـل إعجاب وتقدير.

ويقــع الكتــاب فــي نيــف وأربعمائــة صــفحة مــن القطــع المتوســط وهــو فوق ذلك كله أنيق طبعاً وورقاً وذوقاً.

"زكي نجيب محمود"

وجاء أيضاً في العدد (٣٧٥٠) من جريدة فتى العرب تاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٤ الموافق ١٢ شعبان ١٩٥٣

جولة أثرية في
بعض البلاد الشامية

تأليف المهندس الزراعي
الأستاذ وصفي بك زكريا

وصف طوبوغرافي تاريخي أثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة من شمالي الاسكندرونة إلى أبواب دمشق.

مؤلف هذا الكتاب من المولعين بالسفر والبحث، كان دأبه خلال رحلاته العديدة في مختلف البلاد الشامية زيارة الآثار القديمة والمباني التاريخية والبحث عن ماضي المدن والقرى وحاضرها، واستقصاء عمرانها وحالة سكانها وأجسامهم وأنسابهم.

وهو لما رأى كثرة ما كتبه المستشرقون والأثريون من الإفرنج عن البلاد الشامية في هذه المواضيع الهامة وما ألفوه خاصة لدلالة السائحين وأنه لا يوجد في اللغة العربية كتاب قديم ولا حديث يعرف به المتجول جغرافية المدن الشامية وبقاعها وتاريخها وعمرانها في الماضي والحاضر، وحالة الطرق والمسالك واتجاهاتها ومسافاتها وأوصاف الآثار القديمة والخرب الداثرة وسبب بنائها، وكيف عزم على وضع كتاب يسد قسماً من هذا النقص، فنشر في المجلد الثاني عشر من مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق سلسلة مقالات تحت عنوان "رحلة

أوكيا جلبي" أعجب بها الفضلاء الذين يقدرون قدر هذه الأبحاث لأنها فريدة المثال في اللغة العربية فنشطوه إلى إكمالها وتوسيعها وطبعها على حدة في كتاب دعاه "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية".

وهذه الجولة تبدأ في بلاد كيليكية من طرسوس وأذنه وتيسر إلى مسيس وبياس والاسكندرونة وجبل اللكام وبيلان وقلعة بغراس وقرض خان وسهل العمق وإنطاكية ودفنه وجبل القصير ودركوش وجسر الشغور وسهل الروج وجبل الزاوية وأقضية إعزاز وادلب والمعرة وجبل سمعان والباب ومنبج وكرد داغ وسهل الغاب وقلعة المضيق وخربة أفاميا وناحية الطار وناحية العلا وقلعة شيزر ومحردة وحماه وسلمية وقلعة تحيميس والحمراء وقصر ابن وردان والاندرين وجبل البلعاس ثم الرستن وأوعار حماه وحمص ثم حمص وضواحيها ثم حسية ثم النبك والقطيفة وما حولها من قرى قلمون الأعلى والأسفل إلى باب دمشق.

وقد وصف المؤلف ما يراه السائح في هذه الطريق من الكوائن الطبيعية كالجبال والأودية والحزون والسهول والأنهار والبحيرات وما عملته أيدي البشر كالمدن والقرى والمسالك والقلاع والحصون والخانات والمساجد والديارات والبيع العامرة والدائرة ومواقع المعارك الهامة ودرج خلاصة تاريخ تلك المدن والبقاع وسر الفرق بين عمرانها السابق واللاحق ووصف الشعوب القاطنة فيها من أعراب وتركمان وأكراد وشراكس وأرمن وذكر فرقهم ومزاياهم الخاصة كل ذلك على نهج المستشرقين والأثريين الإفرنج في التوصيف والتبيين مع الإشادة بالمآثر العربية والذكريات القومية ومعظم هذه الأوصاف مما رآه المؤلف بعينه وتحققه بنفسه أو بالواسطة الوثيقة، أو مما عثر عليه في الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة الشرقية والغربية.

وقد كان لمدن الاسكندرونة وإنطاكية وأفاميا وشيزر وحماه وسلمية والاندرين والمعرة ومنبج وحمص وسهل العمق وسهل الغاب وطرائق تجفيفهما

واستثمارهما النصيب الأوفى من هذه الأبحاث.

والكتاب مطبوع، طبعة متقنة، يبلغ عدد صفحاته "٤٢٠" وفي رسوم عديدة، متقنة للبلدان المبحوث عنها وهو يباع بخمسة وسبعين قرشاً سورياً يضاف إليها أجرة البريد للخارج، ويطلب من مؤلفه أو من المكتبات الشهيرة في دمشق.

معرفتي بالمهندس
أحمد وصفي زكريا

كان المهندس الزراعي أحمد وصفي زكريا في الثلاثينات معروفاً من قبل المتعلمين والمثقفين السوريين وغيرهم، فقد تخرج عليه في مدرسة سلمية الزراعية تلامذة كثيرون من مختلف أنحاء سورية. وتقلب في عدة وظائف حكومية، كانت تقتضيه التنقل والتجوال في جهات البلاد السورية وغيرها والتعرف على السكان والاختلاط بكل الطبقات، وهو بطبعه، يحب تقصي المعلومات عن الأماكن التي يزورها من شتى المصادر بما فيها المشافهة وتقييد ما يتحصل له، مما يسر له فيما بعد وضع كتبه التي اعتمدت على المشاهدة والمشافهة قبل غيرهما من المصادر.

وكان عقب عودته من اليمن سنة ١٩٣٦، قد نشر سلسلة مقالات عن جغرافية اليمن وأحواله الزراعية والاجتماعية في مجلة المقتطف المصرية، التي كانت منتشرة بين الأوساط العلمية والأدبية في البلاد العربية. وقد كنت أتابع قراءة هذه المقالات بشغف زائد، كانت تطلعني على جوانب من أحوال اليمن لم تكن الصحافة العربية تكتب فيها، بل لم تكن الصحافة والمنشورات العربية تنشر شيئاً ذا بال عن اليمن، باستثناء ما كتبه الرحالة العربي أمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب) بجزئيه المطبوعين في بيروت.

وفي الثلاثينات كنت ذات يوم أقف أمام واجهة إحدى المكتبات في دمشق فلفت نظري كتاب "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية" بقلم المهندس الزراعي أحمد وصفي زكريا. وقد شاقني موضوع الكتاب، وأنا مولع بقراءة كتب الرحلات والكتب الآثارية وخاصة ما يكتب عن وطني سورية. ففرحت بوجود الكتاب،

واشتريته من ساعتي. وكأنني حصلت على غنم غير قليل. وقرأته بشغف. وكان متعة عقلية لي. وشاقني أسلوبه وأفادتني معلوماته. ومازلت حفياً به. وهو (وصف طبغرافي تاريخي أثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة من شمال الاسكندرونة إلى أبواب دمشق) طبع في المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٣٥٣ للهجرة الموافقة سنة ١٩٣٤. ويقع في ٤١٠ صفحات مزود بخمس وعشرين صورة شمسية وحجمه متوسط. مجلد كعبه قماش.

وأحببت التعرف على المؤلف، وكان يقيم في دمشق. وفي سنة ١٩٤٣، كنت في دمشق وزرت السيد زكريا في مكتبه بوزارة الزراعة، وكان يشغل وظيفة مفتش عام فيها، ورحب بي كثيراً وسره التعرف علي، وكنت نشرت بضع مقالات في المجلات السورية واللبنانية وسررت بمعرفته. وأبتهج بالتعرف على شخص من أبناء وادي الفرات يهتم بالأدب والفكر. وذكره ذلك برحلته إلى وادي الفرات عام ١٩١٦. فاستعرض خطوطاً قليلة منها. وكان وقت زرته يعمل في إعداد كتابه عشائر الشام، ويتحرى المصادر العربية والأجنبية. وأطلعني على نسخة من كتاب عشائر شمر في جزئين باللغة الألمانية تأليف المنقب الآثاري الألماني البارون (فون أوبنهايم) الذي نقب في تل حلف . إحدى مراكز الحضارة الميتانية في أعالي الخابور في الجزيرة الفراتية.

وزرت السيد زكريا في بيته في المزرعة بدمشق، ودعاني إلى مائدته. فكان بيننا ملح وخبز. وجاء إلى دير الزور سنة ١٩٤٨ وزارني في بيتي، وفي اليوم التالي طلب مني أن أرافقه إلى رحلة إلى نهر دورين . ترعة من الخابور . فقد كلفه رئيس الجمهورية حسني الزعيم بتقديم تقرير عنها. وذهبنا إلى البصيرة عند مصب نهر الخابور في الفرات، تبعد ٤٢ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من دير الزور، واصطحبنا معنا مدير الناحية، وجئنا إلى مأخذ الترعة وتتبعنا أثرها القديم، ومررنا بأراضٍ خصبة هي مراع لعشيرة العقيدات من عشائر دير الزور. وكان

المهندس بين مسافة وأخرى ينزل من السيارة ويفحص التربة ويأخذ عينه من التراب لتحليلها في دمشق. وفي البصيرة كتب تقريراً أولياً عن رحلته وقعته أنا ومدير الناحية معه.

وعندما صدر الجزء الأول من كتاب عشائر الشام ابتهجت بصدوره لطرافة موضوعه، وقرأته بشغف كبير، وأكبرت مجهود مؤلفه. ولم يكتب أحد من السوريين في موضوعه. وكتبت مقالاً أثنيت فيه على الكتاب وعلى المؤلف، نشرته في مجلتي صوت الفرات بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٤٧ العدد ٥٤.

ولقد تبادلنا الرسائل، وكنت أهدي إليه أعداد مجلتي. وكان معجباً بالمقالات التي أكتبها فيها، وكان يثني عليها كثيراً. وقد جعل مجلة صوت الفرات ضمن مصادر كتابه (عشائر الشام). وكان يعتزم إخراج كتابه (الريف السوري) في عدة أجزاء بحيث تشمل جميع المحافظات السورية. وقد جعل مجلة صوت الفرات مرجعه الأول فيما يتعلق بمحافظة دير الزور. ولكن المؤلف قصر كتابه على محافظة دمشق، لأنه لم يلق التشجيع والمؤازرة لا من الحكومة والدوائر ولا من الشعب. مع ما لموضوع كتابه من أهمية. ومع جدارة المؤلف بالتشجيع.

وكنت قد نشرت ترجمة موجزة للمهندس زكريا بعنوان (أحمد وصفي زكريا) في العدد ١١٦ من مجلتي صوت الفرات تاريخ تموز ١٩٦١ في سلسلة مقالات كتبتها بعنوان (علماء زاروا وادي الفرات وكتبوا عنه).

ولما كان المهندس زكريا قد زار وادي الفرات عام ١٩١٦، فقد رجوته أن يتكرم بكتابة وصف لرحلته تلك لمجلة صوت الفرات. وقد رجوت أن تكون المقالة وثيقة تاريخية ومصدراً هاماً من مصادر تاريخ وادي الفرات، وتاريخ حاضرته دير الزور. وتاريخهما يفتقر أشد الافتقار إلى المصادر. وكنت أقدر صعوبة كتابة مثل هذا المقال على المهندس زكريا بسبب بلوغه العقد السابع من العمر وتباعد الزمن. فتفضل ووعدني بأن يكتب وصف تلك الرحلة على ما في تذكرها من صعوبة.

ولقد أراد إكرامي بهذه التلبية. وليس من ريب أن الكتابة في مثل هذا الموضوع مرهقة لمن هو في سنه. ولكنه كان يبدو لي في شباب الفكر وقمة النشاط الأدبي، مما يشفع لي في طلبي من السيد زكريا كتابة مذكراته عن رحلته تلك. ولقد شكرت له وعده واعتبرته أريحية منه وتكريماً لي أقدره حق قدره وما نسيته.

ولقد بر بوعده وأرسل إلي مقالة في عشر صفحات في شهر أيار ١٩٦١ مضروبة على الآلة الكاتبة من قبل ضارب غير ماهر، وقع في أخطاء كثيرة وتخطى عبارات وكلمات وأسطراً مما جعل الأستاذ زكريا يصحح ويحشي إضافات بين الأسطر، ويلصق جزازات. ومهما يكن من أمر كتابة هذه المقالة فقد فرحت كثيراً بوصولها. وظننتها قد احتوت وصف كل معالم الطريق بين حلب دير الزور في ذلك الوقت، وقررت نشرها في مجلة صوت الفرات. وكأنها سبق صحفي أدبي. وقرأت المقالة بشغف على طولها. ووجدت الكاتب قد وقف بها عند قرية مسكنه (بالس) من الطريق وبينها وبين حلب ٨٨ كيلو متراً من أصل ٣١٧ كيلو متراً هي طول الطريق بين حلب دير الزور. فأرجأت نشر المقالة إلى أن يتم وصف الطريق أو تتم الرحلة فأنشرها في عدد خاص من مجلة صوت الفرات. ولم أر نشرها أجزاء.

وكتبت إلى الصديق زكريا أعرب له عن شكري الجزيل على فضله بكتابة المقالة وتكرمه بإرسالها، واستحساني أسلوبه واستطراداته. وبينت له رغبتي بأن تظهر الرحلة تامة واستعدادي لنشرها في عدد واحد من مجلة صوت الفرات، وكان هو يرغب بنشرها أقساماً حتى تتاح له فرصة كتابة القسم الذي يلي. وحسب أني استطولت القسم الأول المكتوب على الآلة الكاتبة، فكتب خلاصة له بخط يده في سبع صفحات وأرسلها إليَّ لنشرها على أن يرسل بقية الرحلة، وكتبت إليه أحثه على كتابة تتمة الرحلة وإرسالها، فلبى رغبتي متفضلاً مشكوراً، وأرسل إليَّ ١٨ صفحة بخط يده ولكي لا تقع أخطاء مثل التي وقعت في القسم الأول المكتوب

على الآلة، ولكي يتفادى التصحيحات والتحشيات. وكان تاريخ المقالة الثانية في تموز ١٩٦١.

وبرغم طول القسم الأول من الرحلة وهو المضروب على الآلة وكثرة الأخطاء فيه فقد فضلته على القسم الأول المكتوب بخط الصديق زكريا، لما تضمنه من الاستطرادات اللطيفة.

ابتهجت كثيراً بوصول القسم الثاني من وصف الرحلة. وقد عنونه الكاتب بالعنوان التالي: (ذكرياتي عن وادي الفرات قبل خمسة وأربعين سنة) وقرأته بشغف زائد وتمعن وحرص حتى لا يفوتني منه حرف. وازداد سروري باجتماع شمل هذه الذكريات، وهي عندي وثيقة هامة عن تاريخ وادي الفرات، الذي أسعى بكل طاقتي لجمع أشتات عن تاريخه الضائع والذي مازال مجهولاً مما أتألم له أشد الألم.

واستبشرت بأن تكون هذه الوثيقة الحلقة الأولى في سلسلة وثائق عن تاريخ وادي الفرات أنشرها في مجلتي، وفي رسائل مستقلة. وكنت حصلت على وثائق قليلة هي بعض المصادر عن الفرات سأنشرها في هذه السلسلة.

كنت راغباً في نشر رحلة زكريا إلى وادي الفرات في عدد خاص من مجلة صوت الفرات، إلا أن ظروفاً قد حالت دون نشرها. وقد لازمتني رغبتي بنشرها لأفي بوعدي لصديقي بنشر مذكراته عن وادي الفرات التي كتبها في شيخوخته تلبية لطلبي وخصيصاً لمجلتي.

وكان المهندس زكريا قد جاء إلى دير الزور في سنة ١٩٥٠ وزارني في بيتي وسعدت بلقائه وزيارته، وجلسنا معاً في (الجرداق) على النهر وكان يرتاح إلى الجلوس فيه، منتشياً بنسمات الفرات في الصيف ويسر بظل الأشجار الوارفة ينعم بالهدوء والبساطة.

وقد رجوت منه بأن يحدث الشباب الديريين عن مشاهداته في اليمن في نادي الأخوة الصيفي، فقبل مسروراً. وطبعنا بطاقات ووزعها النادي في البلد. وجاء

جمهور كبير في المساء لاستماع حديث السيد زكريا عن اليمن. وتحدث من الذاكرة عن اليمن مقدار ساعة، وسر الجمهور، الذي كان يستمع إلى معلومات جديدة عليه عن قطر كانت تقع له معلومات قليلة عنه.

توطدت بيننا صداقة أعتز بها ولا أنساها. كنت أزوره في بيته كلما ذهبت إلى دمشق، وكان يرحب بي أجمل الترحيب وكنا نتراسل. وما أن أكون عنده في داره حتى تتوالى أسئلته عن الصحة وعن أحوال دير الزور والفرات وأهله وما استجد من شؤونه. ويجري معي تحقيقاً عن نشاطي الأدبي وما أعددت من دراسات وتحقيقات، وعما لدي من مصادر عن الفرات وعما أقرأ من الكتب والمجلات، وما هي مشاريعي الأدبية التالية. تشوقه معرفة كل ذلك باعتباره باحثاً ولأنه في حد ذاته شعلة نشاط نهم إلى المعرفة وإلى الجديد.

ويكون عنده ضيوف وزوار فيقدمني إليهم مطنباً بالثناء حتى يخجلني.

وكان قد أودع نسخاً من كتابه عشائر الشام الجزء الأول عند موظف في دير الزور ليصرفها له. ومضى عليها عنده عدة سنوات. دون أن يرسل ثمنها إلى المؤلف إذا كان قد باعها، ولا أعاد النسخ إن لم يكن قد صرفها، وقد كتب المؤلف إلى الموظف مراراً بشأن النسخ، وكانت نسخ الكتاب قد نفدت من المكتبات. ولما ظهر الجزء الثاني من عشائر الشام ولقي إقبالا، اشتد طلب الجزء الأول وتضاعف سعره. وكتب المؤلف إليَّ بأن أراجع الموظف، وراجعته بلا فائدة في البدء. وقد أرسل إليَّ المؤلف وكالة، ورفعت دعوى على الموظف لدى المحكمة بطلب نسخ الكتاب أو ثمنها. ولما تبلغ مذكرة الدعوى جاء إليَّ وصالحني على مبلغ أرسلته حوالة بريدية إلى المؤلف. وقد سره أن استعاد حقه ولو منقوصاً وبعد حين، وكان يرغب بنسخ الكتاب لو وجدت. وكتب إليَّ يعرب عن امتنانه وشكره. وسرني أن استطعت أن أقوم بخدمة صغيرة لأديب وصديق.

وكان في أحد الأيام من فصل الربيع في دمشق قد اصطحبني وزرنا

صديقه المؤرخ والعالم الفلسطيني محمد عزة دروزة في بيته بشارع الروضة، فرحب بنا وكان منهمكاً بوضع كتاب في تفسير القرآن، وقعدنا نتحدث. وجاء رجل من معارف دروزة وزكريا للزيارة. ولم يمكث غير وقت قصير وقام ليذهب وقال مازحاً: الله يساعدك بين أطرشين. وكان في سمع كل من زكريا ودروزة ثقل غير قليل، يضطر معه المتحدث إليهما أن يرفع صوته أكثر من المعتاد.

وعندما أكون في دمشق نذهب أحياناً إلى المكتبة الظاهرية . دار الكتب الوطنية . لمراجعة بعض المصادر التركية. وكان الأستاذ زكريا يترجم لي منها ما يهمنا. وكنا نتذاكر المصادر التي تهمه في بحوثه وتهمني في تحقيقاتي. (والمرء كثير بإخوانه).

لقد فقدت بموت الأستاذ زكريا صديقاً لطيفاً كريماً عالماً عاملاً وأديباً فاضلاً ومؤلفاً محققاً كبيراً مخلصاً للعلم، على أنه حي في كتبه ومؤلفاته العديدة النافعة.

إن ذكراه حبيبة إليَّ دوماً. وها أنا أجسدها بنشر ذكرياته عن وادي الفرات التي كتبها خصيصاً لمجلتي التي كان يخصها بحبه وتقديره الزائدين.

وإني أحيي ذكره بنشر ترجمة موجزة له، وبتعريف بكتبه. وبكتابة وصف لطريق حلب دير الزور أمهد به لمذكراته التي وصف بها هذه الطريق، وليكون وصفي لهذه الطريق اليوم متمماً لوصف المهندس زكريا للطريق المذكورة.

لاشك أن الأستاذ زكريا كان يفرحه نشر مذكراته عن وادي الفرات في مجلة صوت الفرات وفي رسالة خاصة في حياته، وكان ذلك يفرحني كذلك.

أما وقد مرت خمسة أعوام على وفاة العالم الأديب الأستاذ زكريا بدون أن تقام له في دمشق تأبين أو تكريم. ودون أن يكتب عنه كاتب سوري ولو مقالة، أحسب أن روحه تسر بنشر مذكراته عن وادي الفرات مع تمهيد وترجمة لحياته وتعريف بكتبه أضعاف ما كان يسر لو أنها نشرت في حياته. وإن سروري اليوم

بنشر هذه المذكرات هو أضعاف سروري لو أنها نشرت في حياة المؤلف. وأنا أنشرها على نفقتي.

لتكن هذه الرسالة تحية صادقة من بعيد لأديب عالم أجله وأوده.

ليس الأديب أحمد وصفي زكريا أول عالم يتناساه بلده ويغمط فضله وتتجاهل خدماته الكبيرة لوطنه.

ستعرف الأجيال العربية الآتية فضل أحمد زكريا، وتذكره بما يليق به حين تخلص تلك الأجيال للعلم والبحث وتجد في التعرف على تاريخها والتحري عن مصادره وكتابته كتابة علمية.

سيترجم المؤرخون الذين يؤرخون للحركة العلمية والحركة الأدبية في سورية في القرن العشرين لأحمد وصفي زكريا.

وسيكتب الكتاب العرب سيرة حياته وأعماله.

إنها سيرة تشرف الكتاب السوريين والعرب.

حياة أحمد وصفي زكريا

ومؤلفاته

عبد القادر عياش

مهندس زراعي وكاتب ورحالة وعالم بالزراعة ومؤلف وطبغرافي وأديب، دمشقي الموطن والمقام. ولد سنة ١٨٨٩ في طرابلس الشام. شركسي العنصر. تخرج من المدرسة الزراعية العليا في استنبول سنة ١٩١٢. كان أول عمل تقلده في زمن الحكومة العثمانية هو التدريس في المدرسة الزراعية في بلدة سلمية من أعمال محافظة حماه، التي أنشئت حديثاً وقتئذ، وصار مديراً لها. وكان والده آمر موقع في تلكلخ. وفي هذه الفترة تزوج من ابنة خاله صدوده سمينه. وسافر إلى سلمية. ونقل ترفيعاً إلى مديرية دار الحرير في بيروت سنة ١٩١٤، ثم إلى مديرية المدرسة الزراعية في الأطروف (بين القدس ويافا) سنة ١٩١٦. وفي السنة نفسها كلف بمهمة مكافحة الجراد في دير الزور ـ حاضرة وادي الفرات الأعلى. وكان ضابط احتياط في الجيش العثماني برتبة ملازم.

وفي سنة ١٩١٩ حينما تألف الحكومة العربية الفيصلية كلف بمديرية مدرسة سليمة الزراعية التي كانت أحرقت وأغلقت في تلك الفترة، فجاء إلى المدرسة وأعاد فتحها وبناءها، وظل فيها خمس سنوات.

كان أول من درس العلوم الزراعية باللغة العربية ووضع مصطلحاتها وألف المؤلفات الزراعية في سورية. كما أنشأ في سورية الرعيل الأول من المنتسبين إلى هذه الحرفة.

وفي عام ١٩٢٤ عين مفتشاً لأملاك الدولة في سورية، وبقي في هذه

الوظيفة إلى أن ألغيت في سنة ١٩٣٣، فراح يعمل في ميادين زراعية حرة إلى سنة ١٩٣٦، حيث استدعاه ملك اليمن الإمام يحيى ليكون مستشاراً فنياً للزراعة في المملكة اليمنية، فذهب إليها وخدمها خدمات زراعية جلى، مازال اليمانيون يذكرونها له. وأقام في اليمن سنتين. ونشر عدة مقالات عن اليمن في مجلة المقتطف المصرية.

وفي سنة ١٩٣٨ استدعته حكومة العراق ليدرس الزراعة في مدرسة دار المعلمين الريفية في بغداد، فلبى الدعوة، وبقي في هذا العمل إلى سنة ١٩٤١. وكان في أثناء وجوده في العراق يزور علماءه ويتعرف على بحوثهم، وينقب في مكاتبه العامة. وترجم كتاباً في الريادة في البلاد العربية. وعاد من بغداد في سنة ١٩٤٢، فاستدعته حكومة شرق الأردن ليكون مديراً عاماً لوزارة الزراعة في عمان.

وفي سنة ١٩٤٣ عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة، بقي في هذه الوظيفة إلى أن أحيل على التقاعد بمناسبة بلوغه السن القانونية سنة ١٩٥٠.

المهندس أحمد وصفي زكريا من أقدم المهندسين الزراعيين في سورية. وأكثر من خدم حرفة الزراعة عملياً ونظرياً، وأكثر المهندسين سعياً ونتاجاً في فن الزراعة والتوجيه الزراعي. وبالإضافة إلى تخصصه في الزراعة وعمله فيها له ولع بالطبغرافية التاريخية والأثرية. وله شغف بالتاريخ والجغرافية وأحوال السكان من حضر وبدو، ويهوى الرحلات والأدب. وضع عدة مؤلفات زراعية وجغرافية وسكانية وأثرية. لم يضع وقته كما هو شأن معظم الموظفين في سورية. بل أفاد من الوظيفة ومن تنقلاته للتفتيش لخدمة العلم والأدب.

خدم الزراعة في ستة أقطار عربية، وأكثر هذه الخدمات كانت في سورية. وهو أول من أسس المدارس الزراعية في هذه الأقطار، وأدارها ووضع برامجها وأنظمتها، وألف كتبها، وألقى فيها الدروس. ورتب مزارعها ومغارسها، وخرج

تلامذتها الذين انتشروا في أنحاء تلك الأقطار، وتولوا المناصب فيها، فضلاً عن المفتشيات والمديريات المتنوعة التي حمل أعباءها في وزارات تلك الأقطار.

لقد طُبع المهندس زكريا على التنقيب والبحث وتأليف الكتب المفيدة والفريدة. وهو ذو صبر وجلد على ذلك. يشغل كل ساعات فراغه في القراءة والمراجعة والكتابة.

كان المهندس زكريا نسيجاً وحده في موضوعاته وتأليفه وصبره وشغفه بالبحث والتقصي وجرأته على إخراج كتبه على نفقته. برغم ما كان يحيط به من مثبطات عديدة. ولكنه مقدام مؤمن بالعلم وبالتضحية من أجل العلم ومن أجل خدمة وطنه.

كان قد جاء إلى دير الزور . حاضرة الفرات الأعلى . في سنة ١٩١٦ مديراً لمكافحة الجراد، آفة هذه البلاد. وجاء إليها في سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٠ مفتشاً في أملاك الدولة، وطوف في أرجاء وادي الفرات، وزار آثاره وكتب عن عشائره وعن بلدة منبج وقلعة النجم على ضفة الفرات الغربية.

وهو متضلع من اللغة التركية واللغة العربية، ويلم بالفرنسية ويطالع المراجع فيها لمؤلفاته.

يقضي أوقات فراغه بالمطالعة والتنقيب في الكتب وكتابة المقالات للمجلات. ويعد مؤلفاته الثمينة. ومشاريع التأليف عنده لا تقف عند حد. مات وهو يكتب ويؤلف برغم بلوغه السنة الخامسة والسبعين.

عنده إن خير أنيس كتاب نفيس. وكان يقوم بنزهات فردية للتريض سيراً على قدميه وللاستجمام قليلاً من عناء العمل الفكري.

يزور بعض أصدقائه ويزوره بعض الأصدقاء في بيته، لا يذهب إلى الأندية والمقاهي. ويجهل الألعاب التي تلعب في تلك الأماكن، مع أنه لا ينكر فائدتها في التسلية والترويح عن الفكر. وكان يتمنى لو كان يعرف تلك الألعاب

ليقضي أوقات فراغه بعد الكتب التي ألفها وأخرجها، وأتعبته كثيراً، وكان يقول: فإن عدنا فإنا ظالمون.

كان يتألم لكساد سوق الكتب العلمية في بلادنا. ولقلة القراء للكتب المفيدة، وندرة من يقتنون مكتبات في بيوتهم. ويأسف كثيراً لأن المواطنين السوريين المتعلمين لا يأبهون لما يكتب المؤلفون عن مدنهم وأحوالهم.

كانت أمنيته تتلخص في بيتين لأحدهم يرددها:

يا لهف نفسي على شيئين لو جمعا   عندي لكنت إذن من أسعد البشر

كفاف عيش يقيني ذل مسئلة   وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

وحدود كفاف العيش الذي يتمناه: بيت مليح ورزق إضافي فسيح يخففان عنه أعباء الحياة المثقلة للكاهل والمضعضعة للفكر. وقديماً قال الإمام الشافعي: لو كلفت ببصلة لما حليت مسألة.

كان في سمعه ثقل يضطر محدثه إلى أن يرفع صوته ليسمعه.

وبرغم بلوغه الخامسة والسبعين كان نشيط الفكر والجسم. مات بالسكتة القلبية انفجار في الدماغ في بيته بدمشق في ١٩٦٤/٤/٢١ ودفن فيها.

لم يتزوج بغير ابنة خاله صدوده. رزق منها ابنه البكر عدنان الذي توفي طفلاً ثم خمسة أولاد أربع بنات هن عصمت وسعاد ونجوى ورفيده وذكر هو غسان ولد سنة ١٩٣١. تعلم في جامعة دمشق وفي الجامعة الأميركية ببيروت تخرج في التاريخ سنة ١٩٥٢. يعيش في دمشق، كان يدير مكتب مجلة الحسناء اللبنانية ويمارس أعمالاً حرة.

مؤلفات المهندس زكريا

المطبوعة

١ . الدروس الزراعية سنة ١٩٢٤.

٢ . المفكرة الزراعية ١٩٣٠.

٣ . زراعة المحاصيل الحقلية ١٩٥١.

٤ . (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) مر وصفها.

٥ . عشائر الشام في جزئين طبع الجزء الأول سنة ١٩٤٥ بمطبعة الهلال بدمشق، ويقع في ٣٩٦ صفحة من الحجم الكبير.. والكتاب مخيط يبحث في جغرافية بادية الشام وتاريخها وعمرانها والأخلاق والعادات والشرائع في المجتمع البدوي وأنساب العشائر المتبدية والمتحضرة وأوصافها وأخبارها في كل محافظة وقضاء بسورية محلى بالصور.

وصدر الجزء الثاني سنة ١٩٤٧ طبع بمطبعة دار اليقظة العربية بدمشق ويقع في ٣٦٨ صفحة من الحجم الكبير. والكتاب مخيط. وهو خاص بكل عشيرة من عشائر الشام، وهو كذلك محلى بالصور لرؤساء العشائر السورية.

والكتاب جيد وفريد في سورية لم يكتب سوري في موضوعه وقد نفذت جميع نسخه. وكان المؤلف يفكر بإعادة طبعه مع زيادات. ولكنه لم يجد دار نشر تتولى إخراجه على شكل يرضاه.

٦ . الريف السوري في مجلدين صدر المجلد الأول سنة ١٩٥٥ طبع في دار البيان بدمشق ويقع في ٤٤٨ صفحة من الحجم الكبير. وهو وصف طبغرافي

تـاريخي أثـري عمرانــي اجتمـاعي زراعــي للأقضـية والنـواحي والقـرى العائـدة إلــى محافظة لواء دمشق مع عشرين رسماً وخريطة:

وصدر الجزء الثاني سنة ١٩٥٧ طبع بالمطبعة العمومية بدمشق ويقع في ٦٠٠ صفحة مع عدة صور وخرائط. مخيط. والكتاب في جزئيه نفيس لم يصدر أي كتاب في سورية بموضوعه لا قبله ولا بعده.

وكـان الأسـتاذ زكريـا ينـوي إصـدار أجـزاء أخـرى لكتابـه تشـمل جميـع المحافظات السورية، ولكنه لم يلق مؤازرة. وقد استدان مبلغ نفقات طبع الجزئين من صديق له. ولقي عناء كبيراً حتى تمكن من تسديد المبلغ. وكان حدثني بذلك وهو منزعج ومشمئز النفس.

وحسب الأستاذ زكريا فخراً في ميدان التأليف تفرده في كتابيه عشائر الشام والريف السوري.

والأستاذ زكريا بحاثة وعلامة واسع الاطلاع على شؤون البلاد العربية وبلاد الشام خاصة، طويل الباع في التأليف خاصة في الموضوعات الجغرافية والأثرية والزراعية والعمرانية لا يضاهيه فيها مؤلف عندنا.

لم يكن برغم تقدم سنه يمل المطالعة والكتابة. ولقد كتب المقالات العديدة الطريفـة والمفيـدة لمختلـف المجـلات والصـحف العربيـة منهـا مجلـة المقتطـف المصرية، ومجلة المتمدن الإسلامي والمجلة العسكرية في دمشق. وجريدة الأيام وجريدة النصر وجريدة القبس الدمشقيات وأخيراً مجلة المعرفة التي تصدرها وزارة الثقافة بدمشق. ولمجلة صوت الفرات الصادرة في دير الزور حاضرة الفرات وفي مجلة الحوليات الأثرية السورية.

وفي آخر مرة زرته فيها في سنة ١٩٦١ كان يعد كتاباً عن الحيوانات البرية في سورية لازال هذا الكتاب مخطوطاً ولعل مقالاتي عن الحيوانات البرية في وادي الفرات التي نشرتها تباعاً في مجلتي صوت الفرات قد شوقته إلى تناول

هذا الموضوع. وكنت أوالي إهداء أعداد المجلة إليه. وكتب إليَّ يطلب أن أزوده ببعض المعلومات عن حيوانات وادي الفرات. ولم تكن مادة الموضوع عنده قليلة.

وفي سنة ١٩٦٢ أعد معجماً عن الطيور في ٣٥٠ صفحة وقدمه إلى وزارة الثقافة بدمشق لتتولى طبعه، فقد أخذت تطبع بعض الكتب، ولكن الوزارة أعادت الكتاب إلى مؤلفه بحجة عدم وجود المال.

وكان يجدر بالمجمع العلمي العربي بدمشق أن يساعد على طبع معجم الطير بدلاً من طبع دواوين شعرية قديمة لا فائدة تذكر من طبعها، وتغنى عنها مئات الدواوين الشعرية العربية المطبوعة. ومازال معجم الطير مخطوطاً.

ولعل مقالاتي عن طيور وادي الفرات التي نشرتها في مجلتي صوت الفرات قد أوحت إلى الصديق زكريا بأن يعنى بمعجم عن الطير تتطلبه المكتبة العربية. ولا توجد إلا كتب قليلة جداً في العربية عن الطير. وقد أخرجت في سنة ١٩٦٧ كتاباً عن الطير تضمن فصولاً عديدة في سلسلة تحقيقات فلكلورية من وادي الفرات طبعته في دمشق.

وقد ترك علامتنا زكريا مذكرات خطية غير منتظمة وأوراقاً كثيرة أخبرني بذلك ابنه الأستاذ غسان زكريا.

وكان قد رشح نفسه لعضوية المجمع العلمي العربي بدمشق، ولكن عضواً ذا نفوذ استعمل نفوذه في معارضة العلامة زكريا والحيلولة دون انتخابه لعضوية المجمع.

كان الأستاذ غسان زكريا قد قدم كتاباً إلى وزارة الثقافة بدمشق بمناسبة مرور سنة على وفاة والده يذكرها بخدماته للثقافة لكي تقيم له حفلة تأبين تقديراً لعلمه وفضله ومؤلفاته. ولكنها اعتذرت بكتاب وجهته إلى الأستاذ غسان هذا نصه:

وزارة الثقافة ٩١/٥٢٠٢
مدير مكتب الوزير ١٨١

إلى السيد غسان زكريا المحترم
مدير مكتب مجلة الحسناء دمشق شارع الفردوس

تحية طيبة وبعد، فقد اطلع السيد الوزير على رسالتكم الرقيقة وأبدى اهتمامه بها وكان بوده أن تعمل الوزارة على تحقيق رغبتكم، إلا أن المسؤولين فيها ارتأوا أن تتولى إقامة حفلة التأبين وزارة الزراعة أو نقابة المهندسين المقصود بالطبع نقابة المهندسين الزراعيين أو إحدى الجمعيات العلمية لأنه من عملها. وختاماً أرجو لك التوفيق.
دمشق ١٩٦٥/٣/١٠
رئيس مكتب الوزير

وكتب الأستاذ غسان إلى جهات أخرى بنفس الخصوص، فلم يتلق منها جواباً.

ولم تقم حفلة تأبين للعلامة زكريا ولا كتب كاتب سوري أو غير سوري مقالاً عنه برغم مرور خمس سنوات على وفاته.

أتمنى على وزارة الثقافة عندنا أن تكلف أديباً بجمع مقالات أحمد وصفي زكريا المنشورة في المجلات والصحف العربية وتتولى نشرها في كتاب ضمن سلاسل الكتب التي تصدرها، كما فعلت بمقالات المرحوم أحمد الكرمي. فقد جمعها شقيقه الشاعر أبو سلمى عبد الكريم الكرمي

وقـدمها إلــى وزارة الثقافـة عنـدنا فنشـرتها، وأحسـنت بـذلك صـنعاً وهــي مشـكورة على صنيعها هذا.

طريق حلب ـ دير الزور
أهميتها وتاريخها ومعالمها

عبد القادر عياش

لما كانت رحلة المهندس زكريا إلى وادي الفرات سنة ١٩١٦ تدور حول وصف الطريق بين حلب دير الزور بصورة خاصة. وكانت معالم هذه الطريق قد تغيرت بسبب التطور والتقدم الذي حققته البلاد، ولما لهذه الطريق من أهمية اقتصادية وتاريخية وجغرافية، ولندرة من كتبوا عنها، ولمناسبة نشر مذكرات الكاتب زكريا عنها في سنة ١٩١٦، فقد رأيت أن أذكر نبذة عن معالم الطريق اليوم لتكون هذه النبذة تمهيداً لذكريات الكاتب وتتمة لها. وليقارن القارئ بين ماضي هذه الطريق في سنة ١٩١٦. وحاضرها في سنة ١٩٦٨. وليكن الوصفان مصدرين لمن سيكتب عن هذه الطريق في المستقبل القريب أو البعيد، إنها جديرة بكتابة الكتاب عنها.

تتجاوز هذه الطريق في واقعها وتاريخها دير الزور، وتمتد إلى بغداد، وكانت تمتد إلى بابل على الفرات.

كانت الطريق بين حلب وبغداد تسمى في العهد العباسي "طريق الفرات".

وأنا في هذه النبذة أقصر الكلام على الطريق بين حلب ودير الزور وطولها ٣١٧ كيلو متراً. وهي اليوم أهم قسم من كل طريق الفرات. وأعني الطريق البري دون التعرض للطريق المائي أي النهري، الذي كانت تسلكه السفن في العهود البابلية والحثية واليونانية والرومانية والعربية وخاصة في العصر العباسي. وكان في العهد العثماني يبدأ ببلدة (بره جك) قلعة البيرة في الحدود التركية شمال بلدة جرابلس السورية. وفي سورية كان الطريق النهري يبدأ من قرية مسكنة (بالس

القديمة).

ويحاذي الطريق البري الطريق المائي اعتباراً من مسكنة في الشمال إلى الثلوجة في العراق في أكثر أقسامه.

طريق حلب دير الزور أهم طريق في محافظة دير الزور تربطها بحلب وبمدن الداخل والساحل، تعتمد عليها اقتصادياتها، تنقل عليها حاصلاتها، وما تستورده من المدن السورية، تسلكه مختلف سيارات الركاب والنقل، والظعون والأشخاص والدواب في كل ساعات اليوم من كل فصول السنة، لا تنقطع فيها حركة المرور.

إنها طريق قديمة، كانت مسلوكة في عصور حضارات وادي الفرات، وخاصة في العصور العباسية.

وكانت تمر بمنطقة أبو كمال السورية التي كانت تعرف باسم (القائم الأقصى) وبمنطقة الميادين (الرحبة القديمة) التي كانت قاعدة (طريق الفرا). وكانت على هذه الطريق القلاع والحصون لحمايتها فضلاً عن القرى والمدن.

ومع ما لهذه الطريق مع أهمية كبرى في حياة وادي الفرات ودير الزور، فقد أهملت إهمالا فاضحاً مقصوداً في عهد الانتداب الفرنسي، وكانت فيه عبارة عن تراب وغابات وصخور تقطعها عربات المسافرين في خمسة أيام، ثم كانت السيارات الصغيرة تقطعها في خمس عشرة ساعة. ولم يكن عليها قرى، وإنما مخافر للشرطة لحفظ الأمن. وكانت القرى على ضفاف الفرات وهذه تبعد عدة كيلو مترات عن الطريق العام. ولم تعبد إلا في الأربعينات. وكانت المطالبة بتعبيدها متلاحقة من أبناء دير الزور. ولو لا أن يأتي نواب دير الزور إلى المجلس النيابي منذ سنة ١٩٣٦ ويهتموا بأمر الطريق بناء على مطالبة الأهلين لما تم تعبيدها الذي حصل على فترات متباعدة. وكان التعبيد سيئاً. كانت الحكومات تعهد به إلى متعهدين يغشون العمل ويتواطئون مع موظفي المواصلات

المشرفين على الطريق. وكانت السيول والأمطار وفيضان نهر الفرات تخرب أقساماً من الطريق، ولم يكن عليها من الجسور غير جسر عين أبو جمعه وجسر التبني وجسر الجورة الصغيرة القديمة البالية.

وكانت عليها أكواع ومنعطفات كثيرة كانت تطيل الطريق. وتسبب الحوادث للسيارات والركاب، اختصرت بالتدريج فيما بعد.

كانت الحكومات التي تعاقبت ترضي أبناء دير الزور بتعبيد الطريق تعبيداً سريعاً سيئاً لا تراعي فيه تطور اقتصاد المنطقة ولا الشروط الفنية الحديثة للطرق، فجاءت الطريق ضيقة بعرض ثلاثة أمتار، مما سبب حوادث كثيرة للسيارات أودت بحياة أناس كثيرين، فضلاً عن خسارة الثروة العامة للبلاد بتلف السيارات. وسرعان ما كان يزول الزفت الموضوع على الطريق وتستحيل حجارة الطريق إلى تراب لأنها اتخذت من أحجار هشة بدلاً من الحجارة الصلبة وغير ذلك من عيوب الطريق.

وطريق حلب دير الزور مستقيمة ومستوية.

في أثناء الحرب العالمية الأولى اهتم الألمان حلفاء الأتراك بهذه الطريق فعبدت أقسام قليلة منها من غير تزفيت ما لبثت أن ساءت.

وكان على الطريق خانات كل أربعين كيلو متراً لاستراحة الركاب والدواب وللنوم وكان في كل خان مخفر للشرطة وعليها خط هاتف يوصل حلب بدير الزور وبالمخافر.

وقد حل محل الخانات مقاهي ومطاعم وحوانيت ساذجة تقف عندها سيارات الركاب والنقل. وبنيت حولها بيوت قليلة فقيرة. وتقطع السيارات الصغيرة الطريق اليوم بأربع ساعات بدلاً من خمس عشرة ساعة في السابق.

يدعو طول الطريق إلى إيجاد استراحات نظيفة يكون للدولة عليها مراقبة لتأمين نظافتها وتوفير الراحة فيها والشروط الصحية.

تنطلق الطريق من حلب نحو الشرق مارة بعدة قرى صغيرة أهمها النيرب حيث مطار حلب. وقرية كويرس وحميمة ودير حافر من قرى منطقة الباب وسط زروع بعلية والمهدوم. ومسكنة، ومنها يطل المسافر على الفرات. ويبدأ سقي الفرات. وعلى بضعة كيلو مترات إلى الشرق تشاهد أطلال مدينة (بالس) على يمين الطريق فوق هضبة، وتلحظ مئذنة بالس المثمنة اللطيفة الشكل. ومسكنة من قرى منطقة منبج التابعة لمحافظة حلب. ويجتاز الطريق أراض زراعية تسقى من الفرات بواسطة محركات ضخ منصوبة على ضفاف النهر. وتمر الطريق بقرية الدبسي وعندها آثار مدينة آشورية هو تورميدا أو تفساح. والدبسي من قرى محافظة الرقة. وتجتاز الطريق قرية أبو هريرة (الصحابي) وبجوارها آثار صوامع ومسجد ومنارة على هضبة، يقابلها على الضفة الشرقية قلعة جعبر القديمة وتقع في محافظة الرقة، وإلى غربي القلعة قبة دفن تحتها سليمان شاه أحد الأمراء العثمانيين غرق مع ابنه في الفرات في القرن العاشر الهجري. ويتصل بالقبة مخفر صغير يسكنه ثلاثة جنود أتراك لحراسة القبر. يتبدلون كل ثلاثة أشهر ويأتون من أورفا (الرها). وبناء القبة والمخفر من عهد السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٨٧٦/١٩٠٨م . وقد نص على هذه الحراسة في معاهدة لوزان.

وبعد مسير نحو ١٥ كيلو متراً بعد قرية أبو هريرة شيدت الحكومة السورية مؤخراً جسراً فوق الطريق تمر عليها سكة حديد آتية من حلب إلى موقع الطبقة على ضفة الفرات الغربية على بعد ١٤٠ ك.م شرقي حلب و ٥٠ كيلو متراً غربي الرقة، حيث يشيد سد الفرات ويتفرع من الطريق العام طريق بطول سبعة كيلو مترات معبد ومزفت يتجه إلى موقع الطبقة حيث أنشئت مدينة عمالية يعمل فيها نحو ألف عامل ومهندس ستكون مدينة سد الفرات الذي سيغير كثيراً من معالم هذه الطريق ومعالم الوادي كله ويضفي على الطريق أهمية كبرى.

وسكة الحديد هذه أول سكة سورية تصل إلى الفرات من أجل الفرات

وبأموال سورية تنقل المعدات من الساحل السوري إلى موقع السد.

وستشهد ربوع الفرات خطوطاً حديدية أخرى يباشر العمل فيها.

وتمر السيارات بين حلب دير الزور وبين حلب الرقة من تحت هذا الجسر.

ما كان السكان يتصورون مجيء قطار سوري إلى هذه الربوع، ولذا ينظرون إليه بكثير من الدهشة والإعجاب والفرح والتفاؤل. ويتجه الطريق إلى قرية الحمام. وقد جاء اسمها من وجود حمام روماني كبريتي على شاطئ الفرات يبعد عنها عدة كيلو مترات إلى الشمال مهمل.

وعند موقع الحمام يشاهد تلان متجاوران تسمى (الثديين) مثنى ثدي والتسمية قديمة. وإلى شمال قرية الحمام أنقاض مدينة (سورا) الآشورية الرومانية التي خربها كسرى الأول ملك فارس وأتمت خرابها الزلازل. ويسمي الأهلون أنقاضها (جحاش سورية).

وفي جنوب قرية الحمام حضن الرصافة المشهور بينها وبينه طريق ترابية سهلة طولها ١٨ ك.م.

ومن قرية الحمام يمتد سهل صغير إلى الشرق بطول نحو أربعين كيلو متراً، وفيه جرت وقعة صفين الشهيرة بين جيش الخليفة الرابع علي بن أبي طالب وبين جيش معاوية بن أبي سفيان حاكم الشام. ويقابل هذا السهل الممتد على ضفة الفرات الغربية مدينة الرقة الواقعة على الضفة الشرقية للفرات. ومن الطريق العام يوجد مفرق يسمى المقص يذهب منه طريق بطول ست كيلو مترات إلى الرقة ويعبر النهر فوق جسر أنشئ حديثاً.

كان أبناء دير الزور كلما مروا بسهل صفين يقرؤون الفاتحة لأرواح الصحابة والتابعين من الجيشين الذين قتلوا في وقعة صفين ودفنوا هناك.

ومن مفرق الرقة يمضي الطريق ماراً بأراض زراعية. وعلى اليمين هضبة العكيرشي يقوم فوقها حصن صغير متهدم يسمى حصن صفين. يرجع تاريخه إلى

ما قبل العهد الروماني. وبالقرب منه إلى الشمال قرية العكيرشي وقرى أخرى.

ويجتاز الطريق مضيق العكيرشي بين أسفل الهضبة وصراة العكيرشي وهي مستنقع تعيش فيه الأسماك وهي من مصائد الأسماك في الفرات تعهد بها الحكومة إلى متعهد، تابعة لمحافظة الرقة.

ويمضي الطريق ماراً بحاوٍ خصب إلى بلدة السبخة. ويرجع تاريخها إلى صدر الإسلام. سكانها من أبناء دير الزور وغربيها آثار ترعة قديمة تسمى (المجرى) تمر بها الطريق والسبخة مركز ناحية تابعة لمحافظة الرقة.

وغربي السبخة حصن صغير متهدم على هضبة يسمى حصن النخيله.

وتذهب الطريق مارة بسهل خصب وزروع تسقى من الفرات إلى قرية معدان. وإلى جنوب الطريق هضبة تحاذيها فوقها حصن قديم يسمى حصن الجزلة وعلى لحف الهضبة عين ماء جارية تسمى الخرار وعين أخرى تسمى الجزلة.

وتذهب الطريق شرقاً إلى قرية التبني تجتاز هضبة الحمة إلى الشمال، وفي طرفها الشمالي أطلال حصن حلبية المثلث التدمري يطل على الفرات. وكان لحماية الطريق المائية، وعلى الضفة الشرقية على بعد أربعة كيلو مترات حصن زلبية. وقد أورد الواقدي في كتابه فتوحات الشام قصة طويلة شيقة عن الحصنين المذكورين، وزعم وجود نفق تحت الفرات يصل بين الحصنين.

وتذهب طريق ترابية من الطريق العام إلى حصن حلبية طولها عشرة كيلو مترات. وعلى الطريق لوحة تحمل اسم حلبية. وتمر الطريق عند التبني فوق جسر أقيم على واد وبقرى الطريق والبويطية والخريطة والشميطية وعياش والبغيلية من قرى عشيرة أبو سرايا. وإلى جنوب الطريق، فوق قرية الشميطية هضبة عالية تسمى كندة، في لحفها عين ماء تسقى زروعاً تسمى عين طابوس. وفوق الهضبة حصن قديم متهدم تسلع معظمه وسقطت أقسامه على السهل بتوالي السنين، يسمى حصن طابوس يبعد عشرين كيلو متراً غربي دير الزور. وطابوس تحريف لفظة

(تابساك) المدينة القديمة، كان الفرات يجري من تحتها. يرجع تاريخها إلى ما قبل الاسكندر عبر الفرات عندها إلى الضفة الشرقية ليوغل في الجزيرة الفراتية ويتجه إلى أربيل حيث جرت الوقعة الكبيرة بينه وبين جيش دارا الثالث العاهل الفارسي. وبعد طابوس بخمس كيلو مترات تجتاز الطريق جسراً حديثاً مرتفعاً، أقيم على وادي عين أبو جمعه. وكان الطريق يمر بأكواع ومنعطفات كثيرة عنده. وكان عليه جسر صغير واه، وقد سبب سقوط عدة سيارات وأزهقت عنده أرواح بشرية كثيرة. ولذا سماه الديريون (وادي الموت). وقد بحت أصوات أبناء دير الزور وهي تطالب الحكومة بتشييد جسر حديث وتجنب المنعطفات وقد شيد الجسر الحديث في عام ١٩٥٦ والطريق عليه مستقيمة وعريضة ويبعد عن دير الزور نحو ١٥ ك.م.

وعندما تصل الطريق إلى قرية البغيلية يصعد طلعة يشاهد القادمون من أعلاها قوائم جسر دير الزور المعلق وبساتينها الفيحاء في الناحية الشمالية إذا كان الوقت نهاراً، وإذا كان الوقت ليلاً تلألأت في الأفق مصابيح الجسر وبدت دير الزور سابحة في النور الكهربائي المتألق ترحب بالقادمين إليها بطريق عريض مشجر نظيف.

وإلى شمال الطريق تقوم محلجة فنية كبيرة أنشئت عام ١٩٦٧. وبعد مئة متر منها تذهب طريق حديثة إلى الشمال، وتقطع جسراً حديثاً على الفرع الصغير لنهر الفرات. ويخترق هذا الفرع حي الحويقة وهي حي العثمانية ليتصل بالجسر الكبير الحديث كذلك والذي يؤدي إلى الجزيرة الفراتية.

وبعد أن تجتاز الطريق المحلجة تمر بحي أنشئ حديثاً هو حي الثورة، وتمر لطريق فوق جسر على واد يسمى وادي الجوزة. وبعد اجتيازه تقع إلى شمال الطريق الثكنات العسكرية بموقع الصالحية المشرف على بساتين دير الزور. ويجري الفرات من تحتها. وعلى جنوب الطريق قامت غابة غرست أشجارها منذ عدة سنوات، وقد جاءت دليلاً على إمكان تشجير ضواحي دير الزور بالغابات.

وبين جسر الجورة وموقع ساحة البركة غربي المدينة أنشئت طريق حديثة عريضة ذات اتجاهين، وغرست جوانبها بالأشجار ونورت بالنور الكهربائي. وهي مدخل لطيف للمدينة في الجهة الغربية. وإلى جنوبيها حديقة صغيرة وحي جديد. ومن الساحة المذكورة تذهب طريق إلى دمشق. وفي أولها تقوم ثانوية الفرات ودور سكن حديثة وعليه حديقة.

وليس مدخل دير الزور الغربي وحده الذي أنشئ حديثاً، وإنما عنيت الحكومة المحلية بالمداخل الأخرى للمدينة من أربع جهات، فضلاً عن شق طرقات أخرى داخل المدينة.

إن إنشاء هذه المداخل بهذا العرض والتجميل يدل على القابلية التي تتمتع بها دير الزور للتقدم العمراني إذا أتيح لها عاملون ينهضون بعمرانها.

يعود الفضل في توسعة مداخل المدينة وشق الطرق داخلها إلى محافظي دير الزور الذين تعاقبوا في السنين الأخيرة وعلى الأخص السيد أسعد صقر.

لم نكن نحن أبناء دير الزور نتصور أن تتم هذه التوسعة في الطرق بهذه السرعة وبهذا القدر والشكل اللطيف.

كانت القرى بين مسكنة دير الزور على ضفة الفرات مباشرة لتأمين شرب السكان وحيواناتهم وسقاية الأراضي بواسطة الدلو ثم الغراف (الدولاب)، ولما دخلت محركات ديزل إلى الفرات لضخ المياه من النهر، اتسعت الزراعة وامتدت السواقي بطول عدة كيلو مترات للساقية الواحدة، وبذلك تأمنت المياه للشرب والسقاية. وتطلبت مصلحة القرية أن تنتقل إلى جوار الطريق العامة، ومكانها هذا أكثر ارتفاعاً من ضفاف النهر وأصح هواء وأبعد عن بعوض الشواطئ، ووجود القرية على الطريق العامة ييسر نقل الركاب والحاصلات ونقل ما تستورده القرية. وكانت مواقع القرى على ضفة النهر تبعد عدة كيلو مترات عن الطريق العامة. وانتقال القرى من مكانها القديم إلى مكانها الجديد ظاهرة جديدة ذات أهمية قصوى

في حياة وادي الفرات، ولم تخسر كثيراً في ترك بيوتها، فمعظم السكان يسكنون في أكواخ من الطين أو في بيوت شعر. وفي الصيف في عرازيل تسمى سيابيط واحدها سيباط مع بقاء بعض البيوت قريبة من ضفة النهر. وبهذا الانتقال أو الهجرة الاختيارية أخذت معالم طريق حلب دير الزور تتبدل. وكان الطريق مقفراً من العمران، ترى عليها ظعون العشائر مشرقة أو مغربة في حالة شقية مؤلمة، كما لو كانت قبل آلاف السنين.

ويزداد عدد البيوت التي تبنى في القرى الحديثة على جوانب الطريق العامة، معظمها من الحجر وسقفها من الإسمنت المسلح وكانت سقوف البيوت من العيدان والطين ولغرفها نوافذ حديثة ولم تكن لها نوافذ في السابق.

وقد دخلت المدارس إلى قرى كثيرة، يتزايد عددها. جميع أبنيتها من الحجر وسقوفها من الإسمنت المسلح. وكانت في القرى القديمة من الطين وقليلة. وبنيت مساجد في بعض القرى الجديدة، وكانت قرى الضفاف تخلو منها. ودخل النور الكهربائي إلى بعض القرى. وكان الظلام الدامس يلف قرى الوادي في الليل فلا يبصر المسافر ليلاً نوراً ينبعث من مكان في الوادي كما لو كان خالياً من السكان.

وقد كانت القرى عارية من الأشجار، وكانت أوضاع السكان الاجتماعية لا تساعد على التشجير، فلا يجرؤ مزارع على غرس أشجار مثمرة لأنها تقطع بسبب العداوات، وقد تجلب شراً لصاحبها لأن السكان يسرقون الثمر. وقد لا يهون ذلك على صاحبه فيدافع عنه ويحميه فيجر ذلك عليه عداوة جيرانه.

وقد أخذ التشجير يدخل إلى القرى ويحتاج إلى تشريع خاص والتفات من السلطة لحمايته وتشجيعه.

لن يبعد الزمن الذي تتصل فيه القرى بعضها ببعض على كل طريق حلب دير الزور. ويعم التشجير وادي الفرات الخصيب بحيث يسير المسافر فيه في رواق من غصون الأشجار الوارفة الظلال.

ولن يطول الوقت الذي ترى فيه قرى الوادي في الليل وكأنها زجت في نور.

ولن يتأخر العهد الذي ترى فيه المزارع الفنية على جوانب الطريق، تحتوي على أقسام للماشية وعلى مناحل ومداجن ومسامك فضلاً عن حقول البقول والفاكهة والخضروات والأزهار وقد اتبعت فيها أحدث الأساليب العلمية.

إلى اليوم لا توجد مزرعة واحدة على كل امتداد الطريق برغم توفر المياه وخصب التربة وملاءمة الجو.

ولن يبعد الزمن الذي تشاهد فيه مختلف المصانع على جوانب الطريق تقوم على تصنيع الحاصلات الزراعية والحيوانية المحلية الوافرة للاستهلاك الداخلي وللتصدير. مصانع للمعلبات ومعامل للحليب المكثف والمجفف وللجبن والزبدة، ومعامل للزيوت النباتية، ومصانع للورق والجلود والنسيج والسجاد والإسمنت ومواد البناء وغير ذلك.

وكما طالبنا في العهود السابقة بتعبيد طريق حلب دير الزور وتزفيتها والعناية بها حتى تحقق كل ذلك في سنين طويلة. نطالب اليوم بجعل هذه الطريق أوتوستراداً وهي جديرة بذلك لأهميتها الاقتصادية . لا لوادي الفرات فحسب . بل لسورية كلها. وأحسب أن الحكومة السورية ستحقق ذلك في وقت أقرب مما نتوقع فهي تدرك جيداً أهمية هذه الطريق ولا تغفل عنها.

وعما قريب ستتصل الجسور على الفرات بهذه الطريق. والمنطقة تحتاج إلى الجسور حاجة ماسة، فقد أهملت في العهود الماضية، ولم يكن على الفرات غير جسر دير الزور وجسر الرقة. وقد بدت طلائع الجسور على الفرات.

لكل طريق قديمة وهامة تاريخها الطويل. ولكل تاريخ وثائقه ومصادره. وذكريات المهندس زكريا عن طريق الفرات سنة ١٩١٦ وهي التي أنشرها فيما يلي لأول مرة هي إحدى وثائق تاريخ هذه الطريق الهامة.

وبالنظر للتغيرات التي تحدث على هذه الطريق لأهميتها الاقتصادية

والجغرافية والسكانية والدولية فقد آن أوان كتابة تاريخها القديم والحديث لتسجيل هذه التغيرات ولمعرفة أحوالها القديمة التي يجهلها أبناء المنطقة ومن يمرون بها ويأتون إلى الفرات.

لا أعرف كاتباً كتب عن تاريخ هذه الطريق بكل طولها وبنوعيها الطريق البرية والطريق المائية مع ما تحفل به كل منهما من مدن وقرى وقلاع وحصون وترع قديمة جذبت من الفرات، ومع ما لهما من أهمية استراتيجية في القديم والحديث وأهمية اقتصادية وسكانية. وما شهدت من أحداث عبر التاريخ.

ولذا فإني أتشوق منذ سنين إلى كتابة تاريخ هذه الطريق ووصف معالمها بكل طولها وبنوعيها، ولقد سلكتها بين حلب وبغداد. وأنا متصل بكثيرين ممن سلكوها على أقدامهم وعلى ظهور الجمال وبواسطة عربات الخيل وبواسطة السيارات والسفن، ووقع لي الكثير من أخبارها القديمة والحديثة.

ولكني لا أجد الوقت، ولا توجد المؤسسة التي تشجع كتابة هذا التاريخ وتساعد عليه وعلى نشره وليس تاريخ هذه الطريق وحدها المهمل، وإنما تاريخ وادي الفرات كله مهمل. أرجو أن أكتب تاريخ هذه الطريق مهما يكن الأمر. إنه تاريخ وادي الفرات العظيم الذي أعني به منذ أربعين عاماً. وقفت جهودي ووقتي ومالي على خدمته وإبراز دوره والتعريف به، أنشأت من أجله مجلتي صوت الفرات منذ ٢٣ سنة إلى اليوم وقفتها على شؤونه، وأسست متحفي للتقاليد الفراتية . إنه متحف إنسان الفرات . لقد ارتبطت بقضايا هذا الوادي أشد الارتباط وأوثقه، لقد محضته كل حبي. إنه وطني الصغير على أديمه ولدت ودرجت.

ليس في دير الزور متحف ولا ظل لمتحف، مع أن أهم آثار متحف دمشق ومتحف حلب من وادي الفرات. لقد كتبت كثيراً في الصحف أطالب المسؤولين بإنشاء متحف في دير الزور آمل أن يتحقق ذلك قريباً.

وباستثناء كتاباتي عن وادي الفرات خلال ربع قرن لا توجد كتابات عنه

للكتاب السوريين وأساتذة جامعة دمشق وجامعة حلب، كما لو كان هذا الوادي العظيم لا يعنيهم أو كان غير هام أو كانوا لا يعيشون أحداث عصرهم وشؤون بلادهم وتطورها.

ما أكثر المرات التي أهبت فيها بأولئك وبالمسؤولين في وزارة الثقافة والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وفي وزارة التربية والمجمع العلمي بأن يهتموا بإصدار مؤلفات عن مختلف شؤون وادي الفرات. إلى الآن لم يصدر هؤلاء ولا غيرهم دراسة عن الفرات.

من رسائل الأستاذ زكريا
إلى عبد القادر عياش
تتصل بالذكريات المنشورة وقد تقدمتها

حضرة الصديق العزيز الأستاذ عبد القادر عياش وفقه الله.

تحية وسلاماً وبعد فقد تلقيت رسالتك الأخيرة ووصلني جزءان من (صوت العرب). إني رأيت في رسالتك هذه تأكيداً بطلب المقال الباحث عن سفرتي الأولى إلى دير الزور قبل ٤٥ عاماً. وقد كنت أرجو أن تكون قد عدلت عن طلبها والاهتمام بها، لصعوبة كتابتي لها في هذه الآونة التي زاد ضعف عيوني فيها. ولما رأيتك تؤكد الطلب، استعنت بالله، وشرعت أكتب من جديد. وقد أرسلت لك سبع أوراق متوالية تنتهي في (أبي هريرة) على النسق الذي تراه، لا أدري إن كانت تحوز رضاك ورضا قراء مجلتك أم لا..

ومهما يكن إذا أصريت على منشر ما أرسلته وما سوف أرسله أرجو أن تكتب إلي الآن رأيك ومدى استحسانك للاستطرادات الجغرافية والتاريخية الموجودة فيها، هل أواظب على هذا الأسلوب وأوسعه قليلاً أم أختصره كثيراً؟

أعيد عليك رجاء البحث في ربوع الدير عن نسخ كتابي (عشائر الشام) الملقاة في زوايا الإهمال لدى من لا يعرفون قدرها وشرائها وإرسالها إلي.

مازلت موفقاً لخدمة العلم والفضل عزيزي.

دمشق ٢٣ حزيران ١٩٦١.

أ . وصفي زكريا

صديقي العزيز الأستاذ

عبد القادر عياش المحترم

تحية وسلاماً وبعد فقد وصلتني رسالتك الأخيرة وفي طيها الكلمة التي كتبتها عني فشكراً لك.

والآن بعد أن ذكرت لي استحسانك لفاتحة مقالتي المرسلة إليك اضطررت نزولاً عند رغبتك أن أتم هذه المقالة وأرسلها الآن إليك طي كتابي هذا. وإني أرجو أن ينال هذا القسم أيضاً استحسانك وألا تستثقل بعض الاستطرادات التي حشوتها فيه لأنها كاللحم على الهيكل العظمي، لا يكتمل الجسم إلا بها. ولا يكون مقال (الذكريات) إلا هكذا. ومقالي هذا مقال سائح متنقل، بحاث، مدقق، لا يمشيء سبهللا، وأعتقد أنه لا يحق لأحد من إخواننا الديريين أن يقول: هذه أمور نعلمها، وأعلام المعلوم جهد ضائع. وجوابي أن ما كل أهل الدير في يومنا أدرك سني الحرب العالمية الأولى، وشاهد أهوالها التي لمحت إليها، فالجيل الصاعد لا يعرفها، ولم يقرأ شيئاً عنها. والجيل النازل لم يتكرم بتأريخها وتسجيلها. وقد تكون بعض نقداتي لاسعة. لكنها في رأيي أخف وطأة من نقداتك أنت للدير وأهل الدير، التي تنشرها في مجلة (صوت الفرات) قبل بضع سنوات. والناقد أحسن من المادح المداهن. وصديقك من صدقك وبين لك عيوبك كي تتجنبها. وإني مرسل إليك ١٨ صحيفة تضمها إلى ما سبق أن أرسلته ودمت للداعي بتوفيقك.

دمشق ١٧ تموز ١٩٦١

أ . وصفي زكريا

ذكرياتي عن وادي الفرات
قبل خمسة وأربعين عاماً

"هذا تسجيل مختصر لزيارة قصيرة الأمد، قدر لي أن أقوم بها قبل خمسة وأربعين عاماً إلى وادي الفرات الخصب بتربته والقوي بعروبته، والثري بكثرة من كرماء الهزة وجزال المروءة. وقد أردت أن أكتب ما بقي في ذاكراتي مما رأيته وسمعته وحققته إذ ذاك، ما وسعني الإدراك والانتباه ومكنتني الفرص خلال عملي الرسمي في تلك الأيام العصيبة، وأن أنشره في هذه المجلة الفراتية الصغيرة الحجم الموفورة القدر والنفع.. ذلك ليتبين أبناء هذا الوادي الأماثل ما كانت عليه ديارهم في ذلك الماضي الآخذ بالتواري وراء حجب النسيان وما صارت إليه من التبدل والتقدم في الحاضر الذي يعيشون فيه. فإن أجدت التعبير والوصف وحزت رضاء من أدركوا زمن هذه الزيارة فبها ونعمت. وإلا فمعذرتي واضحة من بعد العهد وقلة السعد. والكمال لله وحده وبه المستعان.

وبعد فقد طوحت بي الأقدار في جملة ما طوحت خلال الحرب العالمية الأولى إلى مدينة دير الزور . حاضرة وادي الفرات وعروس بلدانه . وكان سبب هذا هو تكليفي بمهمة الإشراف على أعمال مكافحة الآفة المزمنة في ذلك الوادي، وأعني بها آفة الجراد، بحكم أنني في الأصل مهندس زراعي مفروض فيه أن يعرف هذه الأعمال، ويجول ويصول حيالها. وقد كنت وقتئذ ضابطاً احتياطياً في الجيش العثماني برتبة ملازم ثاني، أعمل في الفرقة السابعة والعشرين التي كانت ترابط بين بلدتي الناصرة وعكا في شمالي فلسطين الشهيدة، إلا أنني قبيل تلقي الأمر بالسفر إلى دير الزور، كنت حديث الخروج من المستشفى أنفض عني غبار الموت وأقضي دور النقاهة من حمى خبيثة تعرف بالراجعة، علقت بي ولم

أتخلص منها إلا بأعجوبة. فقد كانت هذه والحمي النمشية (التيفوس) التي هي أخبث وأفتك منتشرتين بين الجنود وعامة الشعب في كل البلاد السورية أو أكثرها تجرفان العشرات والمئات إلى القبور في كل يوم، ولا ينجو منهما بعد الوقوع إلا من كان طويل العمر وعصمه ربه. ولذلك لما أمرت بالسفر، وجمت وامتعضت خشية أن لا يحتمل جسمي السقيم مشاق المكافحة المطلوبة مني في براري وادي الفرات الشاسعة الواسعة المصابة هي أيضاً بتلك الأمراض وبغيرها من مصائب الحرب المذكورة على ما قيل لي حينما استعملت. وإذا كانت الايعازات العسكرية لا مرد لها، سلمت أمري إلى الله وتمثلت بقول الشاعر:

مشـــيناها خطـــا كتبـــت علينـــا ومـــن كتبـــت عليـــه خطـــا مشـــاها

وأخذت القطار من محطة العفولة في مرج ابن عامر، وتوجهت إلى دمشق ومنها إلى حلب، فوصلتها في اليوم العشرين من آذار عام ١٩١٦. والحالة إذ ذاك في كل البلاد السورية جد حرجة من جراء تلك الحرب الضروس التي كانت نيرانها متأججة في قارة أوروبا كلها وفي أكثر أقطار آسية. ولا سيما في المملكة العثمانية، التي فتحت جبهات عديدة. فجبهة في القفقاس تجاه الروس الذين خرقوها وتدفقوا واكتسحوا ولايات الأناضول الشرقية، وعاثوا هناك هم وأنصارهم الأرمن أي عبث، وثلاث جبهات تجاه الإنكليز الراجعين في جناق قلعة والمتقدمين في بادية سيناء والمحصورين في كوت العمارة في العراق. هذا والأمراض السارية والعادية ممتدة، والجوع والحرمان وأمثالهما من الكروب والخطوب مشتدة، ووسائط النقل كالمركبات السود المصنوعة من الجلد المدعوة بالحنتور، وتلك المصنوعة من الخشب المدعوة (يايلي) أي ذات الرفاصات، قد توارت بعد أن صادر الجيش دوابها، وجند سائقيها.

ورحت أسأل عن واسطة من تلك الوسائط تقلني إلى دير الزور التي قيل لي أنها تبعد ثلاثة أو أربعة أيام، وجلت في خانات حلب . التي انقلبت الآن إلى

مرائب عقب ظهور السيارات وبطلان استعمال المركبات، فلم أحظ بما طلبت، وضاقت بي السبل إلى أن صادفت تلميذاً باراً بي، كان موظفاً في دائرة البريد، وقد توفي قبل بضع سنوات، فانبرى لتفريج كربتي، ودبر لي سبيلاً للسفر في مركبة متعهد نقل البريد من حلب إلى دير الزور، التي تواصل السير في الليل والنهار، وضاعف معروفه تغمده الله برحمته، فهيأ لي زاداً شهياً ووافراً.. ولما استكثرت الزاد، بعد أن شكرت المزود، قال: خله، إنك سوف لا تجد في كل الطريق ما تقتات به. وما فضل عنك تعطيه لذوي البطون الخاوية، وما أكثرهم هناك. فكان الأمر كما قال.

وجاءت المركبة بعد منتصف الليل بساعة إلى الفندق الذي كنت فيه. فإذا بها مما أكل الدهر عليه وشرب، ومن الطراز المعروف في شمالي بلاد الشام بالبرجقة الخاص بنقل الأثقال لا بنقل البشر. لأنها محرومة مما يدعونه رفاصات التي تخفف الارتجاج وتهون الانزعاج. وزاد في الطين بلة أنها كانت تحمل حقائب البريد الضخمة المصنوعة. من الجلد السميك وأكياس الشعير والتبن لدابتيها، ولا سبيل للتمدد والهجوع. ولما رأيت هذه الحالة، حوقلت وحسبلت، ولو كان الأمر بيدي لعدلت عن السفر، ثم رضخت لحكم القدر، وتمثلت بقول الشاعر:

إذا لم يكن غير الأسنة مركباً   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وعالجت الوضع، وأفرجت مجالاً للركوب بين الحقائب والأكياس المذكورة، وصعدت وأقحمت نفسي وانطويت خشية أن يدق رأسي السقف، ويتلقى ضرباته. وقلت للحوذي: سر على بركات الله. وراحت مركبتنا في ظلام الليل الدامس وسكونه الرهيب تجتاز شوارع حلب المتجهة نحو باب النيرب، وهي تعلو وتهبط وتتهادى وتحدث جلبة وطقطقة تزعجان أهل حلب النيام آنئذ، وترجني أنا المنكوب بركوبها رجاً عنيفاً يخدش الأسماع، ويضعضع الأضلاع ولولا أنني كنت وقتئذ في عنفوان الشباب وغضاضة الأهاب، لما كان لي سبيل لتحمل هذه المركبة

المشؤومة التي استمرت دون انقطاع ثلاثة أيام بلياليها، وتحسب الآن ركبة أشقى سيارات الشحن في جانبها نعمة وأي نعمة. ومن الغريب أنني باستمرار الرفع والخفض والجذب، والدفع في أيام سفري التالية ولياليه اعتدت هذه المركبة (مكره أخوك لا بطل). وصرت كلما تملكني النعاس أهوم تهويماً حتى صح في قول الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

هذا وبعد أن غادرنا حلب، وتركنا وراءنا أحياءها وكرومها الشرقية، خرجنا إلى الفضاء الرحب، وسلكنا طريقاً معبداً حسب تعبيد تلك الأيام، يتجه اتجاهاً سوياً نحو الشرق وسط سهول مترامية الأطراف بعيدة الآفاق مسطحة مستوية، لم تلحظ فيها عوجاً ولا أمتا، خلاء قواء، لم نصادف فيها أحداً من المارة. وكيف نصادف، والوقت في الهزيع الثالث من الليل، حتى في رابعة نهار الأيام التالية، كنا أيضاً قلما نصادف أحداً ممن هم في سن الشباب أو الكهولة غير المجندين. إذ كان هؤلاء يتجنبون الطرق العامة لئلا يسألهم فرسان الدرك المتجولون عن الوثيقة العسكرية، حتى إذا لم يبرزوها، وقفوهم وساقوهم باسم قرار من الجيش أو قنصوهم ما يحملونه من الدريهمات. ومن ثم كان لا يتجول وقتئذ بانطلاق ويسافر براحة إلا من كان فوق الستين أو تحت العشرين من أبناء الحاضرة. أو من كان بدوياً شديد السمرة عبوساً قمطريراً، قد أرخى جدائله، وضفرها ولف عباءته على كتفه، وتنكب من أدوات الفتك والضرب بندقية يونانية أو دبوساً محدداً أو نحوهما، وتمنطق بالخنجر، ومشى في الأرض مختالاً فخوراً بأنه من أقحاح البدو ومن أعقاب عنز بن وائل. أو عمرو بن معدي كرب الزبيدي، لا تكليف عليه ولا تتريب، بل له الغنم من أمن الدولة وعدلها. وعلى أبناء الحواضر الغرم من ضرائب المال والدم.

وكانت السماء ليلتئذ صافية الأديم نهتدي بنجومها الساطعة، وتتراءى لنا أشباح بعض القرى الغارقة في نومها وظلمتها، والمنتشرة على يمين الطريق

ويساره. وأردت أن أبدد ملك السرى مازال النوم غير ميسور كما ينبغي، فأخذت بالحديث مع رفيق الطريق وهو الحوذي. وسألته عن اسمه وبلدته وعمله، فإذا به رجل تركي أمي من إحدى قرى الأناضول واسمه طورمش ومهنته حوذي أباً عن جد. ومن ثم كان على شيء من القسوة والجلفة شأن أبناء هذه المهنة في كل مكان وزمان. وقد شكى لي متعهد نقل البريد الذي كلفه بهذه الأسفار الشاقة بين حلب ودير الزور التي قبلها لقاء استثنائه من النفير العام. وأن المتعهد لا يعطيه راتباً كافياً بأوده وأود عياله الكثر، ولا يعلف دوابه الهزيلة العاجزة عن إغذاذ السير بالقدر الوافي، وأنه وأنه.. الخ. وكان هذا الحوذي كلما تباطأت دوابه الموصوفة أنهال عليها ضرباً بسوطه وقذفها وقذف المتعهد أيضاً بكل ما في قاموس اللغة التركية من الشتائم والسباب. فكنت أخفف غلواءه بالكلمات التي يفهمها، وأدعوه إلى أن يتقي الله، ولا يقذف لكي ييسر لنا سبحانه وتعالى اجتياز هذه الطريق القفراء دونما حادث. فكان يطيعني تارة ويعصيني أخرى، وأنا أداوره وأناوله من الزاد والتبغ اللذين حملتهما حتى أسلس لي قيادته جلها إن لم يكن كلها.

هذا وبعد حلب بساعة ظهرت لنا في جنوبي الطريق عن بعد قرية غارقة في رقادها وظلمتها، فسألت الحوذي عنها، فقال هي النيرب. ثم مررنا من وسط قرية اسمها جبرين، دورها قباب من الطين مخروطية الشكل مكتظ بعضها على بعض شأن كل القرى في مشارق حمص وحماه وحلب التي اعتمدت على هذا الطراز من المساكن، وقد علمت فيما بعد أن هذا الاعتماد الذي لا يعرف من أي عصر بدأ إنما حصل بحكم انقراض الحراج وفقدان الأشجار والأحجار أو صعوبة نقلها وجلبها ونحتها، وقالوا إن هذه القباب القبيحة الشكل الشبيهة بأكواخ زنوج مجاهيل إفريقية يرغبها الفلاحون في البلاد المذكورة لأنها سهلة العمل باللبن الذي يعمل من التراب الجاهز في كل مكان، ويجفف بالشمس، فهي بالتالي أسرع نوالاً وأرخص ثمناً من الدور الحجرية وأرطب في الصيف وأدفأ في الشتاء وأمنع

للوكف. وإذا حدثت كارثة أو فتنة واقتضى أن يخليها أصحابها ويجلوا كما كان يجري مراراً في العهود الماضية، لا يؤسف على تركها كما هي. ثم مررنا من قرية دويرنية ومير الحسين ومن شمالي قرية أم التركية. ثم بعد مسافة مررنا من جنوبي قرية أبو دنة وشمالي قرية جب الصفا. وهنا خرجنا من حدود قضاء جبل سمعان ودخلنا قضاء الباب، ثم مررنا من فوق جسر على نهر الذهب القادم من بلدة الباب والذاهب جنوباً للانصباب في مملحة الجبول. ثم تلاحقت القرى أمثال كويرس الغربية وكويرس الشرقية وحميمة الكبرى والأحمدية. إلى أن بلغنا بعد شروق الشمس قرية دير حافر. فإذا بها كبيرة في النسبة وفيها مخفر للدرك وماء وآبار وبضعة حوانيت تحوي بعض الحاجات. وانتهزت فرصة وقوف المركبة للاستجمام وإطعام الدواب فزرت مخفر الدرك وحادثت جنوده وسألتهم عن أسماء القرى التي مررنا بها وسنمر بها بين حلب ومسكنة. وعن أمور أخرى تتعلق بجغرافية هذه الأنحاء. شأني في السؤال عن كل أرض أزورها. فأجابوني ما وسعهم الفهم والعلم. إن دير حافر تبعد عن حلب ٥٧ كيلو متراً وأنها مركز ناحية تتبع قضاء الباب وتشمل قرى عديدة تمتد حتى بحيرة الجبول وحدود البادية القفراء. وسألتهم عن الجبال الظاهرة للعيان في الأفق الجنوبي البعيد، فقالوا هذا جبل الحص، (وصوابه الأحص). وهذا الذي في شرقه جبل الشبيث، وإن في كل منهما سهولاً واسعة وزروعاً خصبة وقرى عديدة. وسألت عن منابت سكان قرى دير حافر، فقالوا هم أعراب بداة رحل في الأصل، ثم تحضروا واستفلحوا (أي صاروا فلاحين). وبنوا هذه القرى العائدة لوجهاء حلب وسعدائها أو للأملاك المدورة. وهم ينتسبون إلى عشائر مختلفة متعددة كالحديديين الغناطسة والنعيم والعون والأبو جميل والفردون والأبي سبيع وبني زيد والهنادي (وهؤلاء أصلهم من مصر) وكل قرى دير حافر ليست إلا ضياع أو ضيعات ذات قباب مخروطية من التي قدمنا وصفها، لا يزيد عدد نفوس الواحدة عن المئة.

وقد تذكرت وأنا أستشرف هذه البراري المترامية الأطراف الممتدة في مشارق حلب أنها كانت تدعى (برية خساف) بضم الخاء فسألت عن معنى خساف أجابوا أنه اسم قرية تبعد إلى الجنوب نحو ساعة، وهي على الشاطئ الشرقي لبحيرة الجبول. ورجعت حين تسطير هذا المقال إلى الجغرافي العربي الكبير ياقوت الحموي، فوجدته يقول في كتابه (معجم البلدان) برية خساف مشهورة عند أهل حلب وبالس كان بها قرى وأثر عمارة وهي تمتد خمسة عشر ميلاً. فقوله كان بها قرى وأثر عمارة، يدل على أن هذه القرى أو الضياع التي عددناها وقرى جبلي الأحص، والشبيث المبني كل منها فوق رسوم طامسة وخرائب دارسة كانت عامرة زاهرة قبل الإسلام وبعده في عصوره الأولى. ثم خرجت قبل عهد ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ وأكبر الظن بأن خرابها الأخير حدث على أيدي التتار المغول الذين جاءوا عدة مرات، واكتسحوا مدينة حلب وقراها الشرقية والقبلية، وعاثوا وافحشوا، وقد ظلت هذه القرى على ما يظهر خراباً يباباً ستة أو سبعة قرون طوال عهد السلاطين المماليك والعثمانيين أي إلى قبل نصف قرن أو أكثر (حوالي سنة ٢٦٧هـ) حينما نظمت لدولة العثمانية الولايات ونشرت لواء الأمن والعدل هنا وفي وادي الفرات الذي سيأتي بحثه. وانتبه تجار الحبوب الأوروبيون إلى جودة القمح القاسي الذي تنتجه هذه الأنحاء فطلبوها وبدأ تصديرها عن طريق ميناء الإسكندرونة فانتعشت الزراعة وحرثت هذه البراري البور، وعمرت الخرائب تدريجياً، وقطنها الأعراب المذكورين، وأكثرهم من عشيرة الولدة الكبيرة الذين صاروا حضرا بعد أن كانوا رحلاً. والعمران هنا يدوم ويمتد نحو البادية القفراء بنسبة امتداد رواق الأمن والعدل وهطول الأمطار وخصب المواسم، وينقلب الأمر إلى عكسه ويعود الخراب والاقفرار، ويرجع من تحضر من أولئك الأعراب إلى البداوة إذا حدث خلاف ما ذكرناه كما جرى خلال الحرب العالمية الأولى.

ومن المؤسف أن لا ترى في هذه الضياع المحيطة بدير حافر حتى الآن

شجرة قائمة يمكن أن تلجأ إلى ظلها في حمارة القيظ. ولا بناء صالحاً تأوي إليه إلا ما ندر في قليل من تلك الضياع وأخصها في قرية حميمة الكبرى التي رأيت قبل بضع سنوات في زياراتي الحديثة لهذه الأنحاء أن أصحابها من آل المدرس الحلبيين شادوا مباني مزرعة نموذجية منقطعة النظير في سورية كلها بجسامتها وانتظامها، وحفروا الآبار وركبوا المحركات وزرعوا مساحات واسعة من الأقطان والمحاصيل الصيفية الأخرى.

وقد ذكر ياقوت دير حافر أنه بين حلب وبالس، وأورد فيه شعراً لأبي عبد الله القسراني:

إلى كم ترامت بالس بمسافر وكم حافر أدميت يا دير حافر

هذا وبعد دير حافر انحرفت بنا الطريق نحو الشرقي الجنوبي فدخلنا حدود قضاء منبج، ومررنا من حذاء قرى متتابعة أسماؤها عاقولة وأم عدسة وأبو مقبرة والمهدوم وكوشش وخان الشعير. وفي المهدوم رأينا جباً ترده المواشي بكثرة. وزعم الرعاة أن ماءه أجاج لا يصلح لشرب البشر. ورأينا خان الشعر قائماً فوق تل صغير جنوبي الطريق. وفي خان الشعر هذا انتهت هضبة حلب ذات التربة الحمراء وانتهت سهولها الأعذاء، وبدأنا نهبط نحو وادي الفرات ونمر بأماكن ذات تلعات ومنخفضات وأوعار، وأشرفنا عن بعد على نهر الفرات العظيم بوسعته وروعته. وتدفق مياهه الهادئة المنحدرة بسرعة نحو القطر العراقي. وقد رأيناه هنا قادماً من الشمال من الولايات التركية الشرقية ومتجها نحو الجنوب يتلوى التواءات عديدة ويحدث جزائر كثيرة يدعونها (حوائج) جمع (حويجة) وهو وسط واد أجرد مؤلف على ما ظهر لي من رواسب هذا النهر التي تراكمت منذ مئات ألوف القرون الخالية. وليس فيه سوى بعض أشجار الطرفاء وبعض الزروع الشتوية التي تسقى بواسطة الآلات التي عرفها التاريخ في أقدم عصوره تدعى بالكرود (جمع كرد بفتح الكاف) وهنالك بعض الأراضي المعشوشبة خلال فصل الربيع القصير

الأجل في هذه الربوع. وفي جنوبي وادي الفرات ويدعونه هنا (حاوي) يمتد جدار شاهق مؤلف من أكام وروابي متسلسلة ذات صخور طباشيرية بيض تبهر الأبصار بانعكاس أشعة الشمس في ضحى النهار وظهره.

وعقب انحدارنا من خان الشعر وعندما صارت الشمس في كبد السماء بلغنا قرية مسكنة التي علمت فيما بعد أنها على بعد مئة كيلو متر عن حلب، فوقفنا هنا للاستجمام. ومسكنة هذه ضيعة في سفح الأحكام والروابي الطباشيرية البيض المذكورة، تقع في غربي الفرات على بعد كيلو متر ونيف. وفيها مخفر للدرك مبني فوق إحدى تلك الروابي وعدة حوانيت تحتوي على بعض الأشياء الضرورية. وقد تبين لي من المسافة التي قطعناها خلال اثنتي عشرة ساعة أن معدل سيرنا في هذه المركبة العرجاء ثمانية كيلو مترات في الساعة (والعجلة من الشيطان).

وقد استنكرت يومئذ هذا الاسم (مسكنة) الذي يذكر بالذلة والمسكنة المضروبتين على بني إسرائيل وسألت نفسي من أين أتوا بهذا الاسم المكروه؟ ومن الذي أتى به ومتى ولماذا؟ بعد أن كان اسمها في العهد العربي (بالس) وفي العهد الروماني (باربا ليسوس).

وسألت رجل الدرك عما إذا كانوا يعلمون شيئاً عن ماضي مسكنة وحاضرها وعن هذا الأسطول من القوارب النهرية الكثيرة التي كنت ألمحها متلاحقة تنحدر مع ماء الفرات؟ فبعثوا واستدعوا لي اثنين من شيوخ مسكنة المفروض فيهم الفهم والعلم، فقالوا ما تفسيره حسب مفهومي أنا وما أنقله بتصرف: إن سكان مسكنة الحاضرين هم أعراب متحضرون ينتسبون إلى فخذ خفاجة من عشيرة الولدة الزبيدية. وفسروا كلمة زبيدية بأنهم من أعقاب الفارس العربي الشهير عمرو بن معدي كرب الزبيدي دون أن يأتيا بدليل.

وقالا إن قريتهم ومئات القرى والقريات الممتدة بينهم وبين بلدتي الباب

ومنبج كانت من الجفتلكات السلطانية الخاصة بالسلطان عبد الحميد. ثم عقب إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ تنازل هو عنها، ودورها إلى الخزانة العامة، فسميت (الأملاك المدورة). وإنهم في عهد السلطان المذكور الذي يترحمون عليه بلهفة، كانوا سعداء، صدرهم معتزاً وعطفهم مهتزاً وضيفهم ملتذاً، لأنه حماهم وعني بشؤونهم أي عناية. فحماهم أولاً من تعدي الأعراب الرحل (عنزة وأمثالها) بواسطة جند سيار خاص من راكبي البغال الذين لو سرقت عنزة أحد فلاحي (الجفتلك) للحقوا فاعليها إلى أقصى البراري، وجروا أكبر شيخ فيهم إلى أن يعاقب الفاعلين، ويأتي بأضعاف ثمن العنزة المذكورة. وحماهم أيضاً من تسلط موظفي الحكومة ودركها بواسطة عمال وجباة تابعين لإدارة خاصة بأملاكه مركزها حلب. وقالا إنه بفضل هذه الحماية والرعاية عمرت القرى النائية في أقضية الباب ومنبج وجبل الأحص ومطخ قنسرين. واستقرت عشيرة الولدة وغيرها من العشائر التي سمعت باسمها أيها السيد، وصار أبناؤها حراثين زراعيين منتجين، ولولا ذلك لظلت كما كانت قبل قرن أراض بائرة وخرباً داثرة وظل هؤلاء الأعراب تائهين حائرين وعنصر شغب وفتن.

وسألتهم عما إذ كان قد بقي حولهم أعراب رحل وأين يرحل هؤلاء؟ قالا حولنا من هؤلاء أولاً عشيرة الفدعان العنزية الكبيرة التي لا تزال في صميم البداوة وجفوتها. ويليها بعض العشائر الصغيرة التي تحضر بعضها وقطن القرى وحرث وزرع وبقي أكثرها متعلقاً بحياة الحل والترحال وراء الإبل والغنم، فهؤلاء هم عشائر قضائي الباب ومنبج يمرون من برارينا الغربية والقبلية وقت النجعة عن طريق مسكنة وعنز وعنيز والرصافة وجبل البشرى. وأخص هذه العشائر بنو زيد وأبو خميس والكيار والوهب والولد علي. وهم قلما يبعدون في نجعتهم عن جبل البشرى، ثم يعودون في آخر فصل الربيع إلى قراهم في القضائين المذكورين، يحملون السمن والأصواف والحملان. ثم حدثاني عن ماضي مسكنة، فقالا: نسمع

من العارفين أن لمسكنة هذه موقعاً جغرافياً هاماً. فهي أقرب نقطة إلى حلب، ويمر من أمامها كل يوم عدة سفن نهرية تأتي من بلدة بيره جك (قلعة البيرة) القديمة، وبعد أن تمر بجرابلس وقلعة النجم ومسكنة والرقة ودير الزور تنتهي في بلدة الفلوجة التي هي ميناء بغداد على الفرات. وإن هذه السفن والأصح أن يقال هذه القوارب ذات القعر المسطح ما برحت على الشكل والحال اللذين كانت عليهما منذ آلاف السنين، تنقل الركاب والمحاصيل الزراعية والسلع التجارية من شمالي بلاد الشام وجنوبي الأناضول إلى مدن الفرات حتى تبلغ الفلوجه. وهي الآن (في السنة الثانية من الحرب العالمية الأولى تنقل المؤن والذخائر والمدافع والبنادق والطيارات إلى الجيش العثماني والألماني الواقفين تجاه الإنكليز الذين زحفوا من البصيرة للاستيلاء على بغداد. وقالوا رداً على سؤالي إن البواخر النهرية التي تعمل في نهر دجلة بين بغداد والبصرة يمكن أن تعمل أيضاً في نهر الفرات وتصعد فيه وتبلغ مسكنة فقط. والدليل على ذلك أن الوالي المصلح الكبير مدحت باشا كان أول من أحدث مصلحة ملاحة تجارية على الفرات. وقد دامت هذه المصلحة مدة أربع سنوات وصارت تصل بواخرها إلى مسكنة. ثم ألغيت بانتقال الباشا المذكور من بغداد، وعلى أثر اصطدام أحدها بحويجة قرب مسكنة. على أن هذه الفكرة ظلت تراود أحلام ذوي الهمم حتى انبرى أحد أثرياء دير الزور. وقد نسيت اسمه الذي ذكروه فحاول قبيل الحرب العالمية الأولى أن يضع باخرة نهرية في الفرات. وراح إلى أوروبا واشترى أجزاء باخرة مستعملة تناسب أنهار تلك البلاد. وحمل هذه الأجزاء إلى بيروت فحلب فمسكنة. واشتغل مهندسوها بتركيبها مدة ستة أشهر حتى إذا برزت للوجود أوقدوها وزحفوا بها إلى الفلوجة بين التصفيق والتهليل. لكنهم يا للأسف لما أرادوا الرجوع والصعود بها عجزت وحرنت لضعف محركاتها عن مقاومة تيار الفرات المنحدر، لأنهم لم يحسبوا قوة هذا التيار، ولم يركبوا في الباخرة المحركات المتحملة لقوة الصعود، فتوقفت الباخرة عن العمل. وداهمت

الحرب العالمية أصحابها فلم يستطيعوا أن يتداركوا الأمر وذهبت متاعبهم وأموالهم أدراج الرياح.

وبعد مسكنة الحاضرة بساعة على الماشي تقع بلدة بالس (مسكنة القديمة) التي كان اسمها بار باليسوس ولا ريب في أن هذه البلدة رومانية بيزنطية في الأصل كالرقة والرصافة والبصيرة والصالحية وغيرها من المدن المبنية على ضفتي الفرات. وبالس مبنية على هضبة تعلو عن مستوى وادي الفرات نحو عشرين متراً. وهي تطل بخرائبها الواسعة ومئذنتها الجميلة. وقد ذكر المؤرخون الذين راجعت كتبهم حين كتابة هذا المقال أن هذه البلدة في العصور السابقة لعهد الرومان وطوال عهد الرومان ثم الروم البيزنطيين ثم العهود الإسلامية كانت ثغراً وممراً تجارياً ومركز مناقلات (ترانسيت) بين بلاد الشام والعراق بحكم موقعها الجغرافي على ضفة الفرات. لأن الفرات كان يجري في جانبها تماماً ويغمر الأراضي الواسعة التي تمر منها الآن طريق السيارات الحاضرة حتى قرية ردة صغيرة.

وذكروا أن الروم البيزنطيين بينما كانوا ينعمون بها فاجأتهم طلائع الفتح الإسلامي. وجاءهم سنة ١٥ هـ القائد حبيب بن مسلمة الفهري الذي أرسله أبو عبيدة بن الجراح على رأس جيش لفتح بالس وغيرها. ففاوض حبيب أهل بالس وخيرهم بين الجزية والجلاء. فجلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة، فأسكن هو مكانهم قوماً من العرب والبوادي. وبعد مئة سنة كان توجه مسلمة بن عبد الملك الأموي غازياً الروم من جهة الثغور الجزرية عسكر ببالس، فأتاه أهلها وأهل القرى المجاورة لها كبويلس وقاصرين وعابدين وصفين (وليس الآن أثر لهذه القرى ولا لأسمائها فأين كانت يا ترى؟) فسألوه أن يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي أرضهم على أن يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يؤخذ. فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة. ليس لهذا أيضاً أثر في يومنا. فأين كان مبدؤه ومنتهاه ومجراه وطوله وعرضه ومساحة الأراضي التي كان يرويها؟ ورسم سور

المدينـة. ولمـا مـات مسـلمة صـارت بـالس لورثتـه إلـى أن أخـذتها مـنهم الدولـة العباسية.

وعلـى الـرغم مـن اسـتمرار المنـاقلات التجاريـة والصـادرات الزراعيـة وربمـا الصناعية أيضاً في بالس ودوام العمران والازدهار أيضاً أصابتها من بعد حوادث وكـوارث عديـدة كـالزلازل والمحاصـرات الشـديدة طـوال العهـد العباسـي. وأخـذ نهـر الفرات في القرن الخامس الهجري يبتعد عنها رويداً رويداً شأنه من حين إلى آخر في أكثر مجراه الذي تكون هناك الأرض رسوبية رخاء. وما زال يبتعد حتى صار بينه وبينها في القرن السادس والسابع الهجريين حوالي ثلاثة كيلو مترات على ما هو الحال في يومنا. وفي العهد العباسي الذي أهمل بلاد الشام ومصر وحصر وكـده فـي العـراق وحـده تعـاورت بـالس أيـدي المتغلبـين علـى المملكـة الحلبيـة كالحمدانيين والمو داسيين والسلجوقيين والأتابكين والأيوبيين فكانت تتلقى الغارات والمحاصرات من هؤلاء المتنازعين بعضهم إثر بعض، وحتى من الصليبيين الذين كانوا امتدوا شمالاً وبلغوا الرها (أورفة). وبهذا كله ضعف شأن بالس وضئل ريعها ونفعها.

على أنها ظلت تقاوم وتجبر كسرها، وتلم شعثها كلما أصيبت حتى طرقها البلاء الأعظم من التتار المغول، يقودهم هولاكو حفيد جنكيز خان بعد أن استولى على بغداد سنة ٦٥٦ هـ وقضى على أعظم خلافة إسلامية وأروع حضارة عربية. جاء هذا الطاغية في السنة التالية (٦٥٧هـ) إلى بلاد الشام وعبر الفرات بجيوشه الجرارة. واكتسح حلب ودمشق وما بينهما، وفعل الأفاعيل المنكرة على ما هو مفصل في المطولات. فإن كانت هاتان المدينتان الرئيسيتان وقبلهما بغداد لم تصمد أمام ذلك السيل الجارف هل يرجى أن تصمد بلدة صغيرة ضعيفة منحرفة على سيف البادية كبالس؟

أجل إن التتار المغول قد أسقطوا بالس في ذلك التاريخ وخربوها في جملة

ما خربوا، وجعلوها قاعاً صفصفاً مجلى الأبصار وموضع الاعتبار، وكل ملك يفنى إلا الواحد القهار.

وبعد استراحة ساعتين في مسكنة الحديثة استأنفنا السير في حاوي الفرات فوصلنا قرب العصر إلى حذاء مسكنة القديمة. فقلت للحوذي قف وأرح دوابك وانتظرني ريثما أصعد وأزور هذه الخرائب. وتسلقت الهضبة وهرولت بادئ بدء نحو المئذنة. وسموت إليها ببصري وإذا بها رشيقة القوام جميلة البنيان صامدة على كر الدهور وقسوة الطبيعة، لولا خراب قسمها الأعلى. وهي الآن تندب مجدها الداثر ويتمها ووحدتها وزوال مسجدها وبلدتها من حولها. وهي مثمنة الأضلاع فوق قاعدة مربعة ومبنية بالآجر المشوي الأصفر اللون (المعروف في العراق بالطابوق)، وبابها من الجهة الغربية وعلوها على ما قدرت نحو اثنين وعشرين متراً، وذات سبع طبقات في كل منها طاقة، وسلمها ذو مئة وسبع درجات. وبعض مداميكها مزخرفة ومنقش. وعليها كتابة كوفية عجزت عن قراءتها لعلوها (ترى، هل قرأها أحد حتى الآن؟) وأحسب أن هذه المئذنة من آثار الملك العادل نور الدين محمود زنكي (٥٤١ . ٥٧٧هـ) الذي تعود إليه مئذنة الرقة القديمة ومسجدها الكبير أيضاً.

وهذا وبينما أنا أفكر في إمكان الصعود إلى هذه المئذنة لكي أشرف على ما حولها من المناظر، لمحت بعض الغلمان الرعاة فأشرت إليهم بالاقتراب ثم سألتهم عما إذا كان بالإمكان الصعود إلى هذه المئذنة، فأجابوا بالإيجاب، قلت لهم هيا، أروني همتكم، ولكل صاعد كذا من الدريهمات فتسلقوا أدراجها كالعفاريت، وأطلوا من أعلاها وصاحوا فتجاسرت حينئذ ولحقتهم وأطللت من ثم على مشهد غاية في الوسعة والروعة، يشمل خرائب بالس وأراضي مسكنة الحديثة ودورها ونهر الفرات العظيم المنحدر من الشمال إلى الجنوب، وما في وسطه من الحوايج (الجزائر) العديدة وما على ضفتيه من القرى والمزارع والمروج الخضراء ثم السهول

والبراري القفراء الممتدة على يمين الفرات ويساره والممعنة في البعد نحو الآفاق غير المتناهية في كل من الجزيرة والشامية. وسألت الرعاة عن أسماء ما كنت أراه من القرى قالوا وأشاروا إلى الشمال الغربي في الجزيرة قرية مريبط (وهي شمالي مسكنة الحديثة) وهذه اسمها كسره (تجاه مسكنة القديمة) وأمامك في الشامية قرى مسكنة وشعيب وسمومة. وأنت الآن وسط أراضي ردة الكبيرة، وبعدها ردة الصغيرة. ثم تأتيك الدبسي. وسألتهم عن بناء كبير كالحصن فوق أكمة بارزة، ألمحه في الأفق الشرقي البعيد. فقالوا هذه قلعة جعبر.

وبعد النزول من المئذنة أخذت بالتجوال بين الأطلال وأسرعت الخطا لأتملى أكثر ما يمكن خلال الساعة التي عينتها لهذه الزيارة. فوجدت أن هذه الأطلال تمتد في مساحة كبيرة ربما بلغت نصف كيلو متر مربع. فبالس كانت إذن بليدة لا يقل سكانها عن خمسة عشر ألفاً. ورأيت حولها سوراً ينتهي عند شفير المنحدر الصخري المشرف على حاوي الفرات. ولهذا السور عدة أبواب كانت وقت زيارتي (آذار سنة ١٩١٦، ظاهرة للعيان إلى حد ما أخصها ذلك الذي في شمالها الغربي. وعلى مقربة من هذا الباب أطلال بناء قديم لعله كان داراً للحكومة وبناء آخر لعله كان حصناً للدفاع.

أما المدينة الأصلية المحاطة بالسور ففيها أطلال المسجد الذي كان حول المئذنة وأطلال كثير من الدور العربية الطراز. وهي مبنية من الآجر المشوي. لكن هذه الدور قد نبشت يا للأسف نبشاً فظيعاً من قبل لصوص العاديات، شلت أيديهم ولعنوا. منذ زمن لا يعلم أوله. فلا ترى كيفما سوى حفائر عميقة عريضة وأخاديد مكشوفة وأكواماً من الأتربة المستخرجة وقطع لا تعد ولا تحصى من كسور الآجر والأواني الخزفية. مما دلني على أن النباشين كانوا يتحرون على هذه الأواني المشابهة لما ظهر في الرقة. ومازالوا ينبشون ويبعثرون من بالس وغيرها من الخرب الدائرة ويبيعون ما يستخرجونه إلى غواة الآثار من وطنيين وإفرنج حتى

لم يبق شيء من ذلك على ما حسبت.

وكنت خلال الزيارة والهرولة بين الحفائر والأنقاض الباقية أتخيل نفسي أعيش وسط ماضي هذه البلدة التاريخية وأراها كما كانت في العهود الغابرة عامرة زاهرة رغم الحوادث والكوارث التي كانت تغاديها وتراوحها من حين إلى آخر، كما قدمنا، وأرى أهلها بعمائمهم وأقبيتهم يغدون ويروحون ويبيعون ويشترون. وهناك قوافل البر ودوابها القادمة من أنحاء حلب وإنطاكية وميناء السويدية ومن غيرها من مدن الشام وموانيها، تفرغ حمولتها من مصنوعات البلاد الرومية والشامية وتسلمها إلى العشرات من السفن الفراتية لتأخذها إلى العراق وإيران والهند وغيرها. وهناك الجمالون والحمالون والملاحون والتجارة والسماسرة وموظفو المكوس يتدافعون بالمناكب. وأكاد أسمع حوارهم ولغطهم. وكنت أزداد تحلقاً في سماء الخيال فأناديهم وأرجو أن يقوم بعضهم من رمسه فيحدثني كيف كانت بلدتهم هذه تنبض بالحياة والحركة وهنية العيش من وفرة الموارد التجارية والزراعية التي كانت تتدفق عليهم، وكيف كانت أحوالهم وأعمالهم وتقاليدهم وثقافتهم وما إلى ذلك، فلا أجد لندائي مجيباً سوى رجع الصدى. فأقول: هيهات:

مافي الديار مجاوب غير الصدى المنصوت
ناديت (اين احبتي) فاجاب (اين احبتي)

وكنت أتذكر كيف قرع الدهر الخنون أهل بالس بنوائبه وكدمهم بأنيابه، فأبعد الفرات عنهم وحرمهم سهولة الحمل والنقل في السفن ثم جلب لهم في أدوار متعاقبة الزلازل المكررة وأولئك الذين كانوا يطمعون بها ويحاولون الاستيلاء عليها. وكان آخرهم وأفظعهم عملاً وأثراً المغول التتار الذين أجهزوا كما قدمنا على ما تبقى فيها، ففتكوا وهتكوا وجعلوها خاوية على عروشها، ومصداقاً لقول الشاعر الذي اجتاز بإيوان كسرى بعد خرابه فكتب:

يا ايها المغرور بالدنيا اعتبر بديار كسرى فهي معتبر الورى

غنيــت زمانـــا بـــالملوك واصـــبحت مــن بعــد حادثــة الزمــان كمــا تــرى

وانحـدرت بعـد هـذه الزيـارة الخاطفـة مـن الهضـبة وهرولـت نحـو المركبـة، وقلت للحودي هيا، انطلق"..

واستأنفنا السير نحـو الشرق الجنـوبي، وتركنـا علـى يسـارنا قـرب شـاطئ الفرات قريتي رده الكبيرة والدبسي. وكنا نمر في سهول شاسعة فقراء إلى أن بلغنا قريـة (أبـو هريـرة) فتذكرت لهذا الصحابي أضرحة ومقامات في أماكن أخرى من بلاد الشام. وإن كان محباً للرسول عليه الصلاة ويكثر من زيارته، فاضطر الرسول ذات يوم إلى أن يقول له: يا أبا هريرة: زر غباً تزداد حياً. ورأيت شرقي خان أبي هريرة قبة قيل إن فيها أضرحة بنات الصحابي المشار إليه. ولم أتحقق من صحة ذلك.

وأذكر أنني صادفت في أبي هريرة مخيماً كبيراً لإحدى قوافل الأرمن الذين أجلتهم الحكومة وقتئذ من ديارهم، في مختلف بقاع الأناضول وأوصلتهم إلى هنا في طريقهم إلى دير الزور، فبراري الموصل وما بعدها. وكان المخيم يتألف من مئات الخيام المخروطيـة المصـفوفة والممتلئـة بالرجـال والنسـاء والأطفـال، تسـمع هريـرهم كـدوي النحـل، وكـان هـؤلاء الأرمـن المنكـودي الحـظ ضـحية بعـض أبنـاء جلدتهم المغرورين بأضاليل المستعمرين ودعاياتهم، ففعلوا من المنكرات ما أوجب عقابهم هذا. ولما وقفت هنيهة لأرى حالتهم تقدم نحوي بعض كبرائهم وظنوني من ذوي الحل والطول، وراحوا يشكون إلي ما أصابهم من البؤس والشقاء، ويسألون عما ينتظرهم من العناء والبلاء ومنتهى المطاف الذي يقادون إليه، فأجبتهم بجهلي ما يسألوني عنه، وانصرفت عنهم وأنا أتمتم قولي: "على نفسها جنت براقش".

وبعد اختلاس تهويمـة قصـيرة فـي موقـع (أبـو هريـرة) سرينا فـي منتصـف الليل، لأن المطلوب من مركبتنا هذه الخاصة بنقل حقائب البريد أن تصل الليل بالنهـار ولا تقـف إلا لمامـا. ورحنـا نـتلمس الطريـق المتشـعث، ونسـامر النجـوم

المتلألئة ونزيح السكون الرهيب السائد في هذا البر الأقفر بقعقعة مركبتنا العجوز. وقد تعذر علي النوم من شدة الاهتزاز والانتفاض. وانطلقت في سماء التفكير، ونحن إذ ذاك في معمعان الحرب العالمية الأولى . أستعرض أهوال هذه الحرب الضروس وفجائعها . الدائرة منذ سنتين. وكأنني أرى الجيوش الجرارة التي تتطاحن في مختلف جبهات القتال وفي معظم أقطار الدنيا وأحسب الأرواح التي تزهق والمدن والقرى التي تخرب والأمراض السارية والجوائح العادية من تهجير وتشريد وجوع وبؤس وشقاء ويتم وثكل. وأسائل نفسي متى تنتهي هذه الحرب وعلى أي شكل ومن يبقى بعدها ومن يذهب، وأترنم بقول الشاعر:

الليـــل حـــواج والكبـــاش تـــنطح نطـــاح اسـند مـــا اراهـــا تصـــطلح

فمن نجا برأسه فقد ربح

وكنت أبادل رفيقي الحودي الحديث وأهبط إلى مستوى إدراكه.. لئلا ينعس وتأخذه سنة من النوم على أثر التعب والسهر والهز. وقد يرمينا في داهية إذا كبا. لأن طريقنا غير معبدة. وهناك كثير من الغدران والمسايل والأخاديد التي يخشى من وقوعنا فيها.

وقبيل الفجر بساعة بدأنا نرى أشباحاً ونسمع أصواتاً وضوضاء وصهيل خيل ورغاء إبل، فسألت الحوذي عنها فقال: هؤلاء بدو باتوا هنا الليلة، ويستعدون الآن للرحيل والظعن. واستوضحته فقال: هذا تشريق إلى البراري البعيدة، يرعون إبلهم وغنمهم من الكلأ النامي هناك. ولما اقتربنا من الظعون، ويقصدون بها الإبل المحملة، رأيت منظراً عجيباً قرت به عيناي غير المعتادة عليه ووددت لو تطول مرافقتي له. فقد بدأت الظعون تمشي الهوينا وتتهادى، وصرت أسمع محاورات النساء في هوادجهن ومناغاة الأطفال، وأرى حول الظعون فرساناً مدججين هم حماة المال والعيال، ومشاة زاحفين لا يخلون من السلاح، وخيلاً وإبلاً وغنماً.. منتشرة على مسافة بضع مئات من الأمتار وعلى سجيتها. وكان بعض الرجال

يتنادون ويتصايحون، ويمثلون لي أحسن تمثيل ماكنت أحفظه عنهم من قبل.

اجمعـــوا امـــرهم مســـاء فلمـــا اصـبحوا اصـبحت لهـم ضوضـاء
مـــن منـــاد ومـــن مجيـــب ومـــن تصـــهال خيـــل دون ذاك رغـــاء

وكان منظر هؤلاء البدو أمامي آنئذ، والوقت بزوغ الفجر وتعارف الوجوه من أجمل مناظر البادية التي بدأت ألمسها. لاسيما ونحن في عنفوان الربيع وزمن نمو الأعشاب وبروز الشيح والقيصوم والخزامى، ومكاننا وسك البراري المستوية أي استواء والممعنة في البعد حتى الآفاق التي لا حدود لها.

والحق أن روعة الفجر أو السحر لا تبدو على أتمها إلا في البادية، ولا صبح في الجمال كصبحها، ولا نهار في الشدة كنهارها. واقترب بعض مشاتهم من مركبتنا وأخذوا يحدجون النظر إلينا، فسألتهم إلى أي الأعراب ينتسبون وإلى أي جهة يقصدون. وأذكر أنهم، وقد أرادوا الكتمان، قالوا نحن من عرب الله وقاصدون باب الله الكريم، وأشاروا بأناملهم نحو الآفاق الشرقية الجنوبية، فلم أشأ تعميق الحديث، ودعوت لهم بالسلامة وانطلقت أتمتم في نفسي هؤلاء يعملون بقول: (أكتم ذهابك وذهبك ومذهبك).

ولما بزغت الشمس وبرزت السهول والتلاع الممعنة في البعد رأينا الفرات العظيم لا يزال يتدفق بأمواجه الهادرة، ويحدث التواءات وحوايج عديدة من حين إلى حين، وكانت طريقنا تبعد عنه تارة، فيغيب، وتقترب تارة فيبدو. ونرى في وسطه سفناً كثيرة آخذ بعضها برقاب بعض. علمنا من بعد أنها آتية من البيرة وجرابلس وموسوقة بالمدافع والأسلحة الثقيلة والمعدات والذخائر الحربية المرسلة إلى جبهة القتال في العراق، وكانت كوت العمارة على وشك السقوط بيد الأتراك الذين حاصروا فيها الإنكليز.

ولما صرنا في تلك السهول متجهين إلى موقع (الحمام) قلت في نفسي، الله أعلم أننا الآن نجتاز الأرض المعروفة في التاريخ الإسلامي باسم (صفين)

وظنها بكسر الصاد والفاء. وهي الأرض التي وقعت فيها أشأم وأهول معركة بين جيش الخليفة الرابع علي بن أبي طالب القادم من العراق، وجيش معاوية ابن أبي سفيان القادم من الشام (البلاد السورية كلها). وحلقت في سماء الخيال وصرت كأنني أسمع صياح الفرسان وتلاطم الكتائب وقراع السلاح وضرب السيوف ورنين القسى وأرى القتلى والجرحى ملأوا هذا السهل وصبغوه بدمائهم الذكية الحمراء يا للحسرة. وتذكرت ما كنت أقرؤه في كتب التاريخ من جنود هذين الجيشين المتقاتلين كان جلهم من صحابة رسول الله وتابعيهم، وعددهم فيما قبل أزيد من مائة ألف مع علي وأكثر من تسعين ألف مع معاوية. وقد بقي الجيشان بادئ ذي بدء ثلاثة أشهر يتبادلان ويتفاوضان بغية الوصول إلى تسوية. ولما أخفقت مساعي الوفود الذاهبة الآتية وعيل الصبر اصطدما وتلاحما طوال ثلاثة أيام مدهشة هلك خلالها من الفريقين أكثر من ثلث العددين المذكورين، وضاعت الجهود المبذولة والدماء المسفوكة سدى في سبيل عرض الدنيا وشهوة الحكم. وكنت أسأل نفسي ما السبب في اختيار الجيشين هذه البقعة القفراء (أرض صفين) حيث لا ظل ولا زاد ولا ماء إلا ماء الفرات الصعب المنال. وكيف كانا يتدبران الأقوات والأرزاق لتلك الألوف المؤلفة ومعها الخيل والجمال والأثقال ووسائل الحرب والضرب ومداواة الجرحى والمرضى؟..

ووقعة صفين وقبلها وقعة الجمل التي حارب علي فيها السيدة عائشة وطلحة والزبير وقاسى ما قاساه بحجة أنه كرم الله وجهه لم يعاقب قتلة سلفه عثمان بن عفان، إن هاتين الوقعتين صارتا مثالاً سيئاً سهل على العرب فيما بعد أن يقف بعضهم إزاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف عظيماً مهيباً.

وبعد أن فتح العرب نصف العالم بثمانين سنة، هدأ سيلهم الطامي بسبب عصبياتهم القبلية ومنازعاتهم الداخلية التي أيقظوها بعد أن كان الإسلام نهاهم

عنها.

وأذكر أنني صرت ألمح وقتئذ تجاه أرض صفين ووسط أرض الجزيرة أكمة صخرية بارزة فوقها بناء عظيم خرب علمت أنه (قلعة جعبر) فتذكرت ما كنت أقرؤه عن أنها المكان الذي اغتيل فيه عماد الدين زنكي والد البطل الإسلامي العظيم نور الدين محمود، وأن فيها ضريح سليمان شاه جد السلاطين العثمانيين الذي غرق في الفرات فيما كان يحاول عبوره مع عشيرته فدفنوه في هذه القلعة[١]. وصرت أسائل نفسي ترى ما السبب في مجيء هذا الشاه بعشيرته إلى هنا وعبوره من هذا المكان دون غيره؟ وإلى أين كان يقصد، أكان يقصد بلوغ بلاد الشام التي كانت وقتئذ بيد السلاطين المماليك الترك حكام مصر (القرن السابع الهجري) أكان يريد اللجوء إلى هؤلاء السلاطين والانخراط في خدمتهم. كما هي عادة قبائل الترك في تلك العهود. ولو لم يغرق هذا الشاه وبلغ مناه من اللجوء والخدمة لتغير وجه التاريخ ولم يؤسس أعقابه الدولة العثمانية التي بلغت فيما بعد منتهى العظمة وسعة الملك واستمرت ستة قرون ونصف ٦٩٩ . ١٣٤١) ثم انقرضت كما انقرضت قبلها دول وإمارات كثيرة وسبحان الذي لا يزول ملكه.

وفي الضحى العالي من اليوم الثالث لمغادرتنا حلب مررنا قرب تل سألت عنه فقالوا (تل الفدين[٢]) بكسر الفاء وفتح الدال ومن بعده بلغنا مخفراً اسمه (الحمام) ظننا أننا سنجد فيه حماماً فلم نجد ولم يعرفوننا سبب هذه التسمية وذكروا أن في شماله على بعد قليل فوق هضبة مطلة على الفرات أطلال مبانٍ أثرية قالوا إن اسمها (تفساح) من جملتها حصن وسور قديمان لم أجد وقتاً لزيارتهما. وقد

---

[١] سليمان شاه مدفون بجوار القلعة وليس داخلها (المحقق)

[٢] تل الفدين على نهر الخابور، ويقصد المهندس (الثديين) وهما تلان صغيران يشبهان الثديين في موقع الحمام (المحقق).

استدليت من هذه الأطلال وغيرها التي رأيتها أو سمعت بخبرها طول طريقي هذا أنه كان في وادي الفرات عمران وازدهار كبيرين أخنى عليهما الذي أخنى على لبد. وصارت حالة هذا الوادي حينما مررت به ما يرثى له.

وبعد مخفر الحمام انطلقنا نحو الشرق وعيوننا لا تزال تكتحل بمرأى الفرات والمزارع الخضراء الممتدة على ضفتيه، ونطرب لسماع أنين البكرات التي ترفع الماء منه بالدلاء الكبيرة وتسقى الزروع، كما نطرب لغناء الفلاحين العاملين بها وهم وراء دوابهم الهزيلة الذاهبة والآيبة حين جر حبال الدلاء. وبعد ساعتين بلغنا مفرق الرقة وسلم الحوذي ما يحمله من حقائب البريد الخاصة بهذه البلدة. ولم يكن في تلك الأيام جسر يمكنني من الوصول إليها وزيارتها ولو زيارة خاطفة. فاكتفيت بإلقاء نظرة عليها من بعيد. وصادفت بعض أهلها في المفرق ينتظرون السفينة للعبور وبادلتهم الحديث شأني في كل مكان أرى فيه فائدة للاستعلام عن الأمور الجغرافية والتاريخية فحدثوني ما وسعتهم المعرفة عن عمران الرقة الغابر ومجدها الداثر ولاسيما في عهد العباسيين وإنها كانت مصيفاً لهارون الرشيد، فقلت لهم أظنها لم تكن بمعنى المصايف في زمننا بل مركزاً لانطلاق الجيوش العربية المجهزة لغزو بلاد الروم البيزنطيين (الأناضول الحالية) خلال فصل الصيف.

ثم حدثوني عما في الرقة من الآثار العربية مآذن وأطلال قصور ولاسيما الأواني الخزفية الجميلة، قالوا إنهم يعثرون عليها بعد الحفر والنقب ويبيعونها من تجار العاديات في حلب بأثمان طيبة.

وبعد ست ساعات من مفرق الرقة بلغنا قرية كبيرة اسمها (السبخة) فإذا

بها مركز ناحية صادفت فيها مديراً من أبناء الدير ونبهائها اسمه السيد شكري[١] رأيت منه ترحاباً واهتماماً في التأهب لمكافحة الجراد الذي بدأ ينقف يومئذ. وفي السبخة سوق وحوانيت وبساتين ومنظر جميل على الفرات ومنطلق للسفن التي كانت تمخر فيه.

وقبيل الغروب غادرنا السبخة. وسلكنا سهلاً فسيحاً رملياً تكثر فيه أشجار الطرفاء، وتؤلف على يسار الطريق بينها وبين الفرات غابة عظيمة كانت أشجارها وقتئذ باسقة وكثيفة. يضيع فيها الخريت كما ضعت فيها بعد أنا ورفيقي الخيال الدركي حينما توغلت لبلوغ القرية التي في شمالها على الفرات بنية الإشراف على مكافحة الجراد. ولم نهتدي إلى الطريق إلا بعد جهد ووقت. وكانت هذه الغابة وأمثالها في العصور الغابرة مأوى الأسود إلى أن انقرضت قبل قرن أو قرنين من زمننا. وانقرضت الغابة يا للأسف وصارت أرضها قاعاً صفصفاً على ما لمحت من بعد.

وفي منتصف الليل بلغنا مخفر (معادن[٢]) وهو وسط ذلك السهل الأفيح الذي يدعونه (الحاوي) ولم يكن هناك وقتئذ سوى هذا الحفر لكنا صادفنا حوله مخيماً كبيراً لمهاجري الأرمن شبيه الذي صادفناه في الدبسي وعلى نفس الوتيرة من الإعياء والبؤس والأمراض الفتاكة والزحف إلى مصير مجهول العاقبة.

وبعد معادان بساعة أو أقل تركت طريقنا سهل الحاوي وصعدت إلى هضبة طباشيرية ذات تلعات عديدة جرداء قفراء وابتعدنا عن الفرات الذي قيل لي

---

[١] هو السيد شكري بقجه جي، كان مديراً لناحية السبخة في ذلك الوقت من أبناء دير الزور كان أديباً يتذوق الأدب التركي والتاريخ وذا أخلاق عالية بقي في الإدارة إلى أن أحيل إلى التقاعد مات سنة ١٩٦٣.

[٢] معدان (الناشر).

في معادان أن على ضفتيه قلعتين أثريتين متقابلتين، اسمهما (حلبية) و (زلبية) وبعد بضع ساعات عادت الطريق وانحدرت نحو الحاوي، وبلغنا (خان التبني) وهو كبير وعامر، صادفت فيه قافلة تجار عراقيين قادمين من بغداد إلى حلب، سمعتهم يتكلمون باللهجة العراقية العميقة التي وجدتها غريبة عليّ، وصادفت أيضاً مركبات عديدة كمركبتي تحمل عدداً من ضباط الألمان الراجعين من جبهة كوت العمارة إلى بلادهم للاستجمام وتبديل الهواء.

ولما رأوني ضابطاً عثمانياً ذا قوام وهندام لا يقلان عما لديهم، وكانوا أكثر ما يحترمون هاتين المزيتين مع معرفة إحدى اللغات الأوروبية، أقبلوا علي وسألوني عما إذا كنت أعرف الألمانية؟ فصعرت خدي كما كانوا يصعرونه هم تجاهنا على رغم محالفتهم لنا. والغربي يرى نفسه دوماً من طينة فوق طينة الشرقي، ولو كان حليفه أو لفيفه. ولما أجبتهم بإشارة تدل على عدم معرفتي الألمانية، قالوا والإفرنسية، قلت: نعم أعرفها، وحينئذ انهالوا علي بأسئلة يومئذ. فأجبتهم بما وسعه علمي واختصرت وانسحبت من أمامهم بلطافة لئلا يؤدي الحديث إلى ما لا خير فيه لي ولهم. وانطلقت نحو مخفر التبني الرابض فوق تل مرتفع عن الطريق.

وكان في هذا المخفر الذي مررت به قبله وبعده رجال من الدرك أبناء الدير، كانوا حيثما أبادرهم الكلام بالعربية ولا أشمخ عليهم مثل بعض الضباط الذين يمرون بهم يرحبون بي ويكرمون وفادتي ما وسعهم الانقطاع في ذلك البر الأقفر والحرمان السائد في أيام تلك الحرب. وهكذا كان في كل سفري هذا ثم في تجوالي في أثناء المكافحة، ما أن يعلم الموظفون والأهلون من حضر وبدو الذين أصادفهم وأتصل بهم أنني من غير الطراز الذي عودوهم رؤيته حتى يقبلوا علي ويرحبوا ويلبوا مطلبي ما وسعهم الجهد.

وغادرنا مخفر التنبي قبل الغروب واتجهت طريقنا نحو الجنوب الشرقي

نرى الفرات على يسارنا حيناً بعد حين، ونمر من جنوبي قرى عديدة متصلة المزارع، بيوتها أخصاص يدعونها سيابيط. وكنا نسمع أنغام الكرود وأغاني سقاتها. ومازلنا نغذ السير حتى بلغنا (دير الزور) حين شروق الشمس، وكان ذلك في صباح اليوم الرابع من خروجنا من حلب.

وكان أول عملي بعد دخولي الدير السعي لمقابلة متصرف اللواء، واسمه (سعاد بك)[١] الذي لم أعرف لقبه، لأن الترك كانوا لا يضيفون أي لقب على أسمائهم. فلا تدري أي سعاد هذا الذي تقابله. ومازالوا على هذا النقص الذي تفردوا به بين العالم حتى أمرهم عميدهم مصطفى كمال قبل ثلث قرن أن يتخذوا الألقاب فاتخذوها وإن برزت هذه الألقاب بمعاني وأشكال غريبة عجيبة على ما يعرفه المطلعون على شؤونهم الحاضرة.

وقد وجدت هذا المتصرف على جانب من الرقة والأدب والفضل. قضى قبل الحرب عدة سنين في إحدى وظائف السفارة العثمانية في باريس. وموظفو السلك الخارجي في كل دولة كثيراً ما يكونون من هذا الطراز الراقي. وهو لما عرف مهمتي ومنزلتي أمر بتهيئة بيت أقيم فيه طوال أيام عملي لديه. فوجدوا لي بيتاً على قدر حاجتي. كان على الشارع العام وقرب حديقة البلدية، فأويت إليه، واستدعى المتصرف السيد علي صائب رئيس كتاب مجلس إدارة اللواء يومئذ وقدمني إليه وأوصاه بتلبية مطالبي في كل ما يتعلق بشؤون مكافحة الجراد.

وقد عرفت من بعد أن السيد علي صائب المذكور كان من خيرة أدباء الدير وفضلائها[١]. وقد تلقيت منه كل عون وعطف، كما لقيت ممن تعرفت

---

[١] علي سعاد بك نقل في نفس السنة إلى بغداد معاوناً لواليها. (الناشر)

[١] هو علي الفرحان ولد الدكتور آصف صائب من أسرة البورباح الديريين رقي فيما بعد إلى وظيفة قائمقام (مدير منطقة) توفي. (المحقق)

بواسطته من وجهاء الدير وأبنائها ترحاباً والتفاتاً مازلت أحمل آثار حمدها.

إن أعمال مكافحة الجراد وتجوالي في البراري والقفار وعدم مكوثي في الدير كثيراً شغلني عن البحث والدرس، كما كنت أتمنى، كي يصح لي الكتابة عنه كما ينبغي. ولهذا سيكون كلامي عن الدير وحالته سنة ١٩١٦ مختصراً يعذرني القراء عليه.

كانت بلدة الدير عام ١٩١٦ بقدر نصف ما هي عليه الآن[٢]. وما أظن سكانها كانوا يتجاوزون العشرين أو الخمسة وعشرين ألفاً. إلا أن مخطط البلدة الحالي مشهور من قبل ذلك التاريخ. ولا أدري إلى أي متصرف عثماني يعود الفضل في هذا التخطيط الجميل المنقطع النظير في كل البلاد السورية، ولأي من السنين السابقة لسنة ١٩٠٠ ففيها شارع رئيسي طويل عريض مستقيم يخترق البلدة في منتصفها من الغرب إلى الشرق، فيه بعض الشبه لشارع الرشيد في بغداد.

وفي قبلي هذا الشارع تمتد خانات عديدة كانت فنادق تلك الأيام ومأوى القوافل الكثيرة الذاهبة الآتية بين بغداد وحلب. ولابد أن تكون قد تبدلت الآن إلى مرائب ومستودعات بعد تحول طريق بغداد إلى الصحراء بالسيارات أو إلى الجو بالطائرات. وبعد أن حرمت دير الزور من هذا المورد.

وكان في قبلي هذا الشارع أيضاً حديقة للبلدية كبيرة حسنة التنظيم، فيها مطعم ومقهى نظيفان بإدارة بعض مهاجري الأرمن يومئذ. كنا نلجأ إليها ونأكل طعامنا ونشرب قهوتنا فيهما.. وفي شمالي هذا الشارع سوق مغطى ذو حوانيت عديدة، كان فيها بعض السلع لا جميعها من جراء الحرمان الذي اقتضته الحرب العالمية. وهنالك أسواق مكشوفة عديدة تحتوي في جملة ما تحتويه على حوانيت القصابين الذين يلبسون جلابيب حمر بلون الدم الذي يريقونه. وكان منظرهم هذا

---

[٢] آخر زيارة زار فيها دير الزور ١٩٥٠ وتقديره صحيحاً.

غريباً عليَّ لم أر مثيلاً له في كل البلاد السورية. وهناك من منتهى الشارع المتجه نحو الفرات جوامع فوقها قباب مخروطية ومآذن أسطوانية الشكل، ودار الحكومة التي كانت يومئذ شبه خان كبير في وسطها باحة واسعة حولها غرف عديدة للدوائر الرسمية كلها.

وكان على الفرع الصغير للفرات جسر راكب على سبع قناطر من الحجر الصلب. وعلى الفرع الكبير جسر راكب على زوارق عديدة ضخمة مقرون بعضها إلى بعض بسلاسل حديدية شأن الجسور القديمة التي أدركتها في بغداد أيضاً.

وشوارع الدير وأزقتها مستقيمة تماماً والشخص الغريب لا يقدر أن يميز بين زقاق وآخر بصعوبة. لأن كلها مستقيمة ومتشابهة بالبنايات. ومن الشارع الكبير تتفرع الأزقة الممتدة من الجنوب إلى الشمال وبالعكس. والدور متشابهة بهندستها. فهناك في كل دار غرفتان أو أربع بينها شبه إيوان وأمامها باحة سماوية تحتوي على بئر ودرج للصعود إلى السطح. وعدد طبقات المباني لا يتجاوز الاثنين. ولكن دور الأثرياء مبنية على طراز أحدث. لاسيما تلك التي في الحويجة، وهي الجزيرة المحصورة بين فرعي الفرات وبيوت الأثرياء هذه عالية يصعد إليها بدرجتين أو ثلاث وتكون مسقوفة غالباً. والحدائق قليلة في البيوت. ولعل ذلك لصعوبة نقل الماء إليها وإروائها. والمراحيض كثيراً ما تكون على السطوح. والأزقة خالية من المجارية العامة. وهذا وذاك كانا من نقائص الدير.

وجدران الدور من الأحجار غير المنحوتة دائماً أو المنحوتة إلى علو متر في أسفل الجدار ولا يطلون الجدران الخارجية بالطين أو الكلس إلا في دور الأثرياء. وأبواب المنازل تبنى غالباً من الحجر الرخامي الخاص بالدير. ولها مفاتيح كبيرة جداً صعبة الحمل. وإطارات النوافذ من هذا الرخام أيضاً. والسطوح وأرض الغرف وجدرانها تطلى بالجص والحصى كثير في دير الزور وشائع الاستعمال وهو يمتص الماء كبيلون حلب. ولذا فإن غسل أرض الغرف بالماء

غير معروف، بل يكتفي بكنسها ورشها رشاً بسيطاً لا يأتي بالنظافة التامة التي تؤتى بالشطف والمسح في بقية المدن السورية.

والبناء سهل جداً. فليس هناك إلا تركيب الأحجار ورصفها ووضع الجص بينها بدلاً من الطين والكلس. والأزقة في ذلك العهد كانت غير مبلطة ولا مزفتة. وإذ هطل المطر بغزارة تعذر السير. لأن المستنقعات تكثر والوحول تزداد.

ومما أذكره عن الدير أن الكثرة الغالبة فيها مسلمة سنية. ولم يكن هناك من النصارى واليهود إلا عدد ضئيل. لكنها عند إجلاء الأرمن وسوقهم إلى وادي الفرات وبراري الموصل بقي قسم كبير منها هنا. واستقروا في حي الدير العتيق ثم أخرجوهم وأبعدوهم إلى براري الموصل فجرى لهم ما جرى.

وأذكر أن أهل الدير الأصليين كانوا ينقسمون إلى قسمين كبيرين ينتسب كل ديري إلى أحدهما. وهما: (الوسطيون) و (الشرقيون) وكان أفراد القسم الأول يسكنون في غربي البلدة والقسم الثاني في شرقيها. ومن المؤسف أنه كان بين أفراد هذين القسمين حزازات ومشادات قديمة تخبو تارة وتشب تارة لحادث قد يكون بسيطاً. فيهرع العقلاء لإطفاء الفتنة. وهذه الأمور من بقايا العصبيات الجاهلية والنعرات القبلية التي كانت وما برحت تضر العرب في جميع أقطارهم. وإني أرجو أن تكون قد زالت من مدينة الدير بعد أن شاعت الثقافة وكثر الوعي بين النشء الحديث.

وأذكر أني رأيت مرة عرساً حمل الحمالون فيه الأطعمة والحلويات على رؤوسهم إلى بيت العريس، ثم سار النساء والأولاد في الأزقة والشوارع ينشدون ويهزجون أهازيج الفرح. وقيل لي أن أعظم طعام في أعراسهم هو (الترود) وإن الديرين أخصائيون في تجهيزه. ولم يتح لي تحقيق هذا.

أما المآتم فلدير الزور عادات خاصة هي أشبه بمآتم البدو. فالنساء يلطمن خدودهن. ويسدلن شعورهن ويضربن صدورهن ويعولن ويبكين بشدة.

ويندبن الميت بأنغام شجية تنشدها نساء متخصصات بهذه المهنة الكئيبة، فيها جمل في رثاء الميت، يرددنها بين الدموع والزفرات ويذهبن كل صباح إلى المقبرة يبقين في جانب قبر ميتهم إلى المساء. ويزعمن أنهن يؤانسنه وتدوم العملية عشرة أيام.

وإن أنس لا أنسى أنني قبل أن أعرف هذه العادة سمعت قبيل الغروب وأنا في بيتي الصغير أصواتاً ناعمة حزينة ترافقها دقات دفوف، ما عرفت هل هي ترح أو فرح. وخرجت لأستقصي الخبر فرأيت مشهداً عجيباً، رأيت جمعاً كثيفاً من النساء (ربما كان عددهن حوالي مئة امرأة) اللابسات العبي السود الفضفاضة والمتحجبات بأغطية صفيقة، يمشين كتلة واحدة مشياً بطيئاً وموزوناً، وفي وسطهن المرأة الندابة تنشد أناشيد الرثاء بأنغام شجية ترددها البقية على نفس الوتيرة. وبين تلك الكتلة نساء يحملن الدفوف ويدقنها، ونساء أو فتيات يقفزن من حين إلى آخر ويطفن وتهتز أعطافهن وتنتفض نهودهن أمام أنظار المارة.

ولما رأيت هذا المنظر المخالف للشرع والعقل استغربته واستنكرته، ورحت في اليوم التالي إلى صديقي المرحوم السيد علي صائب أحكي له ما رأيت وأبدى استغرابي واستنكاري، وأرجوه أن يسعى لإبعاد هذه العادة الجاهلية عن هذه البلدة الجميلة التي أحببتها وودت لها كل خير. فخالفني رحمه الله بشدة وقال: كلا إن هذه من عاداتنا القومية وتقاليدنا المحلية، لا نقبل بها جدلاً ولا نبغي عنها حولا. وحاولت أن أقنعه بصواب رأيي فلم يقبل، وسكت على مضض وتعجبت وانصرفت.

وأرجو أن كون هذه العادة وأمثالها غب مرور قرابة نصف قرن قد زالت حتى الآن بفضل العلم والوعي اللذين انتشرا في الدير انتشاراً محموداً على ما بلغني.

وكانت نواة بلدة الدير في حيها القديم الباقي منذ قرون واسمه (الدير

العتيق). زرته ذات يوم وجسست خلاله، فرأيت أزقة ضيقة متمعجة هابطة صاعدة وهي على ترابها وغبارها وأوحالها. ورأيت حول هذه الأزقة بيوتاً مكتظة مبنية من الحجر الخشن والهواء والشمس. وهناك ما لا يحسن ذكره من المناظر المؤذية والروائح التي تزكم الأنوف وعياط وهياط واختلاط الحابل بالنابل. وعجبت بعد هذه الزيارة كيف يعيش سكان هذا الحي ويحسبون أنفسهم من الأحياء. وزاد في الطين بلة يومئذ إقبال مهاجري الأرمن على هذا الحي واستئجارهم بيوتاً أو غرفاً فيه وسكنى كل أسرتين أو ثلاث غرفة واحدة، بعضهم فوق بعض، بقوا هكذا أشهراً عديدة إلى أن أخرجوهم وأبعدوهم إلى المصير الذي نوهنا به.

وقد علمت من بعد أن هذا الحي العتيق قد هدمته البلدية وأزالته كله أو أكثره، وصار الآن في خبر كان.

ومن ذكريات الدير التي لا أنساها تلك الساعات التي كنت أقضيها على ضفة الفرات صباحاً أو مساءً في مقهى متواضع كان قرب الجسر الصغير يدعونه (جار داق)[1] والكلمة تركية، لا أدري كيف اخترقت أسوار هذه البلدة العربية، ومعناها السقيفة أو الكوخ المبني من الأغصان. والجارداق تظلله الأحجار الوارفة العالية. وأمامه الفرات يسير بهدوء ووقار. والمصابيح التي كانت تنار بزيت الكاز تتلألأ على وجه الماء وتهتز وتتأرجح مع سريان النسيم العليل. وتحت كل شجرة يلتئم عدة أشخاص يجلسون على كراسي خشبية واطئة يسمرون ويلهون.

ومن الذكريات التي لا أنساها أيضاً وقفتي أحياناً على الجسر الخشبي الكبير أتملى بجمال الطبيعة المجسم بمنظر الفرات الواسع كالبحر، الهادئ كالصحراء، الساكن سكون الليل. وترسل الشمس أشعتها الذهبية وقت الأصيل تودع الماء وتلونه بألوان قوس قزح. وهنا وسط النهر حويجة (جزيرة) وهناك كرد

---

[1] الكلمة تلفظ في لغة أهل دير الزور: جرداق. (الناشر)

تدور بكرته وتئن ويتدفق ماؤها في الساقية الذاهبة لري الزروع، ومن بعيد قارب صغير يسير الهوينا. وفي كل ذلك جمال وجلال وروعة تأخذ بمجامع القلوب.

ومن ذكرياتي عن الدير أن الصحة جيدة في الجملة بفضل هوائها الصحراوي الجاف وشمسها الساطعة والوجوه سمر أو شبهها، والعيون نجل والقامات هيف والجمال غير يسير. وكنت ألحظ أن الديريين وأهل قرى وادي الفرات عامة المعروفين بالشوايا ماهرون جداً في السباحة التي يتعلمونها منذ الصغر. والرجال والنساء في القرى يعبرون الفرات سباحة ويضعون ثيابهم على رؤوسهم ويخوضون ويسايرون الماء في جريانه، فإذا وصلوا إلى المكان المقصود خرجوا رويداً رويداً ولبسوا ثيابهم وانطلقوا.

ويجيد الديريون أيضاً ركوب الخيل وسريان الليل وتحمل شظف عيش الحياة وكان سلاح الدرك في العهد العثماني يفضل شباب الدير على غيرهم بسبب هذه المزايا وقد دام هذا التفضيل على ما علمت في عهد الانتداب والعهد السوري حتى في سرايا الهجانة وأمثالها.

ومما أذكره كثرة ما كنت أراه في القرى لدى سكانها الشوايا من أمراض العيون ومن مرض تناسلي اسمه (البجل)، وزادت طينته أهل هذه القرى بلة حينما صاروا يركضون وراء موتى قوافل الأرمن الذين كانوا يتساقطون بحمى التيفوس. فيعرون الميت مهما كان أنثى أو ذكر من ثيابه ويلبسونها ويعدونها من غنائم العمر. وكان مما يضحك ويحزن لبس رجال الشويا ثياب النساء الميتات، ولبس نسائهم ثياب الرجال الميتين، لا يفرقون هذه عن تلك، ومن زوائد القول أن الحمى التي طرحت الأرمن كانت تتناولهم بعد لبس تلك الثياب فيتساقطون هم أيضاً. وكم من مرة كنا نصل إلى بيت من الشعر منفرد وننادي فلا نجد مجيباً. ونرفع الرواق فإذا بالأب والأم والأطفال أموات من جراء العدوى من الأرمن.

هذا ولم يكن في الدير سوى حمام واحد. لأن أكثر السكان يستحمون في

الفرات ويكتفون بـه. وقد رأيت المقاهي أكثر من الحاجة. والإقبال عليها شديداً، وقضـاء الوقت بالكسل والخمول فيها وشرب الشاي ذي اللون القاتم والماء المعقد الشديد الحلاوة منتشر. وكان ثمن السكر في أيام تلك الحرب الضروس باهظاً، أظنهم كانوا يستعيضون عنه بدبس التمر أو نحوه.

ولم أجد في بلدة الدير من المباني الأثرية ما يستحق الذكر. أما في (الميادين) التي زرتها بحكم عملي ومكثت فيها عدة أيام، فقد صعدت إلى قلعة هناك اسمها (الرحبة) رابضة فوق تل شاهق مخروطي صعب الصعود والنزول جداً. فرأيتها قلعة عربية صغيرة ذات جدران عالية تحيط بأرضها المدورة الشكل. أحجارها ضخمة ترابية اللون، شامخة صامدة على كل الدهور. ولم أعثر فيها على كتابة أو نقش أستدل بها على اسم بنائها وتاريخ بنائها.

وفي حضيض هذه القلعة قبور قديمة ومزار باسم (عين علي)[١] رأيت نساء الميادين يقصدنه ويذبحن فيه الذبائح ويقرأن الأدعية ويمرحن طول النهار ثم يرجعن ولم أعرف أي علي هذا ومتى كان وكيف كان[٢] وزرت وقتئذ قرية البصيرة التي عند مصب الخابور. وقد انتقلت إليها بالسفينة من (الميادين) وصادفت فيها مدير ناحية من أبناء الدير وأماثلها اسمه فيما أذكر (عبد الله بك)[٣]. وكان شهماً هماماً أراني ترحاباً والتفاتاً محمودين. وطفت وقتئذ ضفاف الخابور، وأشرفت على

---

[١] (عين علي) ليست في حضيض قلعة الرحبة بل تبعد عنها ستة كيلو مترات وكانت بلدة صغيرة اسمها مشهد وفيها مسجد متهدم ومنارة مثمنة ودور مخربة تقصد العين نساء المنطقة يذبحن الذبائح التي هي نذورهن.

[٢] يقصد سكان المنطقة بـ علي: الخليفة الرابع علي بن أبي طالب. وقد بنى المسجد وبنيت المنارة على اسمه. والأهلون يسبحون في العين للتبرك.

[٣] عبد الله بن حج إسماعيل من دير الزور توفي فيها. (الناشر)

نواعيره المشابهة لنواعير حماه، وبلغت قرية (الصور) ورجعت إلى الدير أقطع براري الجزيرة المترامية الأطراف وأتلظى بسعير شمسها اللاهب وأصادف عاصفة عجاج تعمي الأبصار وتسد الأنفاس. وهكذا إلى أن قضينا على آفة الجراد الزحاف بأقل خسارة ممكنة في الزروع وعلى قدر وسائلنا الضئيلة يومئذ. ولما كبر الجراد وطار ولم يعد ثمة مجال لمكافحته وانتهت مهمتي، ودعت الدير وأهله، وهرولت إلى حلب فدمشق. وقد حمدت الله يومئذ على الخلاص من جولات ومتاعب شاقة دامت على ظهور الخيل أكثر من خمسين يوماً في وادي الفرات العظيم أتنقل من قرية إلى قرية ومن سهل إلى وعر. ألاحق العن مخلوق وأشده ضرراً.

وأتذكر الآن بلهفة الشباب الذي كنت في عنفوانه والجلادة التي كانت تساعدني على مضض تلك المشاق وانحسر على زوالهما.

هذا بعض ما اعتصرته من الذاكرة غب مرور قرابة نصف قرن على سفرتي الأولى إلى دير الزور. أكتفي به الآن لضيق المجال. ولعل أبناء دير الزور الأكارم ممن أدركوا مثلي تلك الأيام العصيبة يصادقون على ما وصفت ووصفت. ويجعلوني مبتهجاً في كوني سجلت نبذة من تاريخ بلدتهم الطيبة في مجلتهم القيمة. وما كان هذا التسجيل إلا نزولاً عند رغبة صديقي صاحبها الفاضل مؤرخ دير الزور وابنها البار، أكثر الله من أمثاله ووفقه في أعماله.

دمشق

أحمد وصفي زكريا

تعليق الناشر

متعلمون كثيرون سوريون وغير سوريين قبل المهندس الزراعي أحمد وصفي زكريا وبعده سلكوا طريق حلب دير الزور، وجاسوا ربوع الفرات. كم واحد منهم ذكر هذه الطريق في كتاباته؟ أقلية قليلة جداً فيما أعلم ذكرت شيئاً من معالم هذه الطريق الهامة وشيئاً عن سكان وادي الفرات وعمرانهم وأحوالهم وعاداتهم.

في رأيي، إن أهم من كتب عن وادي الفرات من بين من اطلعت على كتاباتهم هو المهندس الزراعي زكريا. لا في ذكرياته فقط وإنما في كتابه النفيس حقاً (جولة أثرية في ربوع بلاد الشام) وفي كتابه (عشائر الشام). ولو امتد به العمر ولو أنه لقي مؤازرة لكتب عن وادي الفرات وعن أبناء الفرات شيئاً كثيراً. فقد كان يعظم هذا الوادي كثيراً، وكان يرغب في الكتابة عنه أكثر مما فعل.

على أبناء الفرات أن يذكروا هذا العالم الذي ذكرهم في كتاباته وكتب عن موطنهم. وأن يذكروا كل من كتب عن وادي الفرات، ليردوا الجميل بأجمل إلى أهله.

وبصفتي أحد أبناء هذا الوادي شعرت منذ سنين بهذا الواجب. فأديت نصيبي من حق هؤلاء الكتاب على أبناء الفرات. كتبت سلسلة مقالات نشرتها في مجلتي (صوت الفرات) عن كل من وقعت لي كتاباته عن وادي الفرات ووقعت لي معلومات عن حياته بالقدر الذي أتيح لي وبحدود إمكاناتي في دير الزور. معتذراً عن ضآلة ما قدمت. إنه كل جهدي.

إن ما كتبته عن هؤلاء الكتاب والعلماء الذين تكرموا وكتبوا عن موطني وادي الفرات لا يعفي أبناء الفرات من أداء واجبهم نحو من ذكروا بلادهم في كتاباتهم.

وأبناء الفرات مطالبون بأن يكتبوا هم عن شؤون واديهم. إنهم في الواقع مقصرون تقصيراً كبيراً فاحشاً بحق منطقتهم وواديهم العظيم، وبحق أمتهم وبحق العلم والتاريخ والأدب بإغفالهم الكتابة عن الوادي الخصيب موطن الحضارات القديمة والشهيرة، كما لو كان هذا الوادي لا يستحق الذكر. أو كان أمره لا يهمهم في شيء، إنهم ينسون حق موطنهم عليهم. وتلك جريمة وعقوق.

لئن كان أبناء الفرات معذورين في السابق لعدم تسجيل تاريخ منطقتهم ووصف شؤونهم وأمورهم بسبب سيادة الأمية. فأي عذر لهم في السنين الأخيرة. وقد كثر فيهم حملة الشهادات الجامعية في التاريخ والأدب والطب والحقوق والهندسة والجغرافية والفلسفة وغير ذلك.

ما السبب في إدارة الجامعيين الفراتيين ظهورهم للأمور الفكرية وخاصة ما يتعلق بمنطقتهم؟ في الوقت الذي يحققون مرابح مادية كبيرة؟ لذلك أسباب ذكرتها في كتاباتي المنشورة في مجلة صوت الفرات وفيما نشرت من رسائل. إنهم ملامون أشد اللوم. ومقصرون بحق وطنهم أشد التقصير.

متى وكيف يرعوي هؤلاء ويوضعون في السكة الصحيحة؟

دير الزور

عبد القادر عياش

المشتمل

صفحة

ما صدر من سلسلة الدراسات التاريخية عن وادي الفرات

للأستاذ عبد القادر عياش

صاحب مجلة صوت الفرات ورئيس تحريرها

دير الزور . سورية

١ . تاريخ الملاحة في نهر الفرات
٢ . شخصيات من تاريخ الفرات
٣ . الرحبة . قاعدة طريق الفرات
٤ . اليهود في وادي الفرات
٥ . أبرز أماكن الآثار في وادي الفرات
٦ . عبد الله بن طاهر حاكم الرقة
٧ . رحالون عرب وإفرنج زاروا الفرات
٨ . ديارات الفرات القديمة
٩ . تاريخ البدو والغزو في الفرات
١٠ . وقعة صفين في وادي الفرات
١١ . الحمدانيون في الفرات
١٢ . المرداسيون في الفرات
١٣ . الدولة القيلية في وادي الفرات
١٤ . تاريخ دير الزور . حاضرة الفرات
١٥ . تاريخ الري في الفرات
١٦ . تاريخ المآكل الفراتية
١٧ . تاريخ المباني العامة في دير الزور
١٨ . تاريخ الطرق في وادي الفرات
١٩ . العثمانيون في وادي الفرات
٢٠ . القرامطة في وادي الفرات
٢١ . تاريخ المدارس في وادي الفرات
٢٢ . تاريخ التجارة في دير الزور
٢٣ . تاريخ القلاع والحصون في الفرات
٢٤ . تاريخ التبغ في دير الزور
٢٥ . تاريخ الأدب في وادي الفرات
٢٦ . أدباء من وادي الفرات
٢٧ . تاريخ الخبز في دير الزور
٢٨ . تاريخ النار والوقود في الفرات
٢٩ . تاريخ التعليم في وادي الفرات
٣٠ . تاريخ اللباس في وادي الفرات
٣١ . تاريخ السكن في وادي الفرات
٣٢ . تاريخ الرقة قاعدة ديار ومضر
٣٣ . تاريخ قرقسيا قاعدة الخابور
٣٤ . ماري عاصمة الفرات الأعلى
٣٥ . دورا أوروبوس مرفأ تدمر على الفرات
٣٦ . تاريخ الرصافة حصن بادية الفرات

كلمة (منطقة)
وضرورة الرجوع إلى صوابها

بقلم: المهندس الزراعي وصفي زكريا

من جملة المصطلحات الإدارية التي كنا نستعملها في سورية وفي أكثر الأقطار العربية هي كلمة (قضاء) للجزء المحدود الأطراف الصغير المساحة التابع لإحدى المحافظات، وكلمة . (قائمقام) للحاكم الإداري الذي يتولى شؤون هذا الجزء. وهاتان الكلمتان عربيتان صحيحتان لا غبار عليهما من حيث الدلالة على المعنيين المذكورين، وكان الكبير والصغير عندنا يستعملها منذ القديم بفهم وحسن قبول. وإذا بأناس قليلي الصلة بالعلم والفهم قاموا في أواخر سنة ١٩٥٧ لأسباب لم ندركها بعد وظلموا كلمتي قضاء وقائمقام الصحيحتين وبدلوهما بكلمتي (منطقة) و (مدير منطقة) المعتلتين وأقحموهما في صلب قانون التنظيمات الإدارية الجديد المؤرخ في كانون الأول سنة ١٩٥٧ برقم ٤٩٦. وقد كان هذا التبديل عملاً غير حصيف خالف القواعد اللغوية والجغرافية والإدارية ودعا لتشويش الأفكار وزوغان الأبصار. لذلك جئت أفنده وأشكوه وأرجو السادة المحافظين المجتمعين في مؤتمرهم الحالي أن يصححوه للأسباب الآتية:

إن كلمة (منطقة) في اللغة العربية هي ما يشد في الوسط كالزنار. ثم استعملها المتأخرين عندنا مقابل كلمة (رجيون) الفرنسية التي تعني مساحات عظيمة من الأرض والسماء، فيقال مثلاً منطقة الشرق الأوسط التي تضم ممالك ودولاً عديدة أو المنطقة الصحراوية الممتدة في الأرض ألوف الكيلو مترات أو منطقة البروج الممتدة في السماء ملايين

الأميال طولاً وعرضاً. ومثله قولهم المنطقة الساحلية أو الجبلية أو المنطقة الجمركية الحرة. أو قولهم إن المكان الفلاني هو منطقة عسكرية أو منطقة حراجية أو منطقة اصطياف أو منطقة معامل ومصانع.. الخ ومن ثم كانت كلمة أبعد حدوداً وأوسع شمولاً، ولها مفاهيم واستعمالات أخرى لا تنطبق على ما كانت تفيده كلمة (قضاء) التي لا تنطبق على ما كانت تفيده كلمة (قائمقام) ذات المعنى الأدق والأصوب.

وفي كتب اللغة العربية قضى يقضي قضاء بمعنى صغ الأمر بأحكام وقدرة. والقضاء بين الخصمين بمعنى الحكم والفصل بينهما. وهذا هو ما يصنعه قوام المقام الذين يحكمون ويفصلون (إداريا) قبل وصول الدعاوى إلى المحاكم. ولهذا كانت كلمة (قضاء) أنسب للمعنى المقصود من كلمة (منطقة)، ومثلها في حسن المناسبة كلمة (قائمقام) التي تعني الموظف الإداري القائم مقام ذوي السلطات الأكبر في البلاد.

وقد كان أهل المدن والأرياف عندنا معتادين عليها في تأدية هذين المعنيين. وهما ما زالا متربعين على عرشيهما لدى إخواننا سكان الأقطار العربية كالعراق والأردن ولبنان وليبيا والسعودية. ولهاتين الكلمتين ولاسيما لكلمة (قائمقام) رنين وقع في آذان الأهلين لا تجدهما إذا قالوا (منطقة) و (مدير منطقة). وقد شوش هذا التبديل الخاطئ أفكارهم وزوغ أبصارهم فصاروا إذا سمعوا قولهم منطقة الزبداني مثلا لا يفهمون ما يريدون وحول أي الحدود يحومون. أيقصدون بلدة الزبداني لوحدها بمبانيها بسكانها بأحوالها الجوية أم بماذا. وقديماً إذا قيل في القرى جاء القائمقام حصل لهذا المجيء صدى ودوى أوسع مما لو قيل جاء مدير المنطقة حيث لا يفهم السامعون أي مدير هذا. أهو مدير الناحية أم مدير المنطقة الجمركية أم قائد المنطقة العسكرية الشمالية أو الجنوبية.. الخ. فاستعمال كلمة

المنطقة الواسعة الشمول في هذا الجزء الجغرافي الصغير هو واهن وفاسد وبناء كلمة مدير عليه أوهن وأفسد.

لهذه الأسباب وحرصاً على صحة اللغة وأصالة الرأي اللتين يجب أن يسودا مصطلحاتنا أشكو هذا الخطأ وأرجو تصحيحه بالطرق القانونية المؤدية إلى الرجوع إلى كلمتي (قضاء) و (قائمقام) الصحيحين بحكم أن الرجوع عن الخطأ صواب.

المهندس الزراعي

وصفي زكريا

كتاب مفتوح إلى أمانة العاصمة
شكوى الشوارع والحدائق من مصلحة الحدائق

مازلت منذ عدة سنوات ألحظ أشجار شوارع دمشق وحدائقها التي تشرف عليها مصلحة الحدائق التابعة إلى أمانة العاصمة وأرى فيها نواقص ونقائص فنية تدعو لأسف الغيارى على جمال مدينتنا دمشق وزينتها التي يجب أن تكون قدوة لغيرها من مدن سورية على الأقل وتدعو أكثر لأسف الذين زاروا بلاد العالم المتمدن ورأوا ما فيها من شوارع مشجرة أحسن تشجير وحدائق ذات زينة وبهجة تأخذان بمجامع القلوب. وملاحظتي هذه ما هي إلا بدافع حبي لوطني الذي أريد أن لا يكون مقصراً عن غيره في هذا المضمار وبدافع اختصاصي وولعي بفن الزراعة عامة وهندسة الحدائق والرياض خاصة. لاسيما وقد حرمت دمشق مدينة الخضرة والنضرة من بساتين الصالحية الغناء التي كانت وثابة الدمشقيين ومنتزهاتهم بعد أن امتد رواق العمران إليها وامتلأت أو أوشكت أن تمتلئ حتى الربوة بالمباني الضخمة المتعددة الطبقات ومما كنت ألحظه في شوارع دمشق أن مئات من الحفر المعدة للغرس بالأشجار التزيينية مازالت فارغة منذ أربع أو خمس سنوات ومصلحة الحدائق المسؤولة معرضة عنها لا تحرك ساكناً لإملائها في مواسم الغرس، وإن الحدائق التي تنفق عليها أمانة العاصمة المبالغ الطائلة ووضعت فيها حديثاً من العمال ليست على ما ينبغي أن تكون بهجة للناظرين وملاذاً للزائرين في كل من فصول السنة، ولهذا السبب وعقب (عيد الشجرة الذي احتفل به خلال شهر كانون الأول الماضي في ذروة جبل قاسيون بادرت لكتابة كلمة في أحد أعداد

جريدة (الأيام) لفت فيها أنظار أمانة العاصمة إلى ضرورة إملاء الحفر الفارغة في الشوارع قبل انقضاء موسم غرسها كما انقضت مواسم الفنين السابقة. ولما انقضت الأسابيع ولم أجد قارئاً لكلمتي وسامعاً لصرختي قصدت في آخر شهر كانون الثاني الماضي مدير الشؤون الإدارية في هذه الأمانة وشرحت له الأمر ورجوته أن تشفق أمانة العاصمة على مدينة دمشق ذات الشوارع القرعاء والحدائق الجوفاء وذلك بأن توقظ مصلحة الحدائق من رقدتها وتدعوها إلى أن تؤدي واجبها في هذه الآونة التي تغرس فيها الأشجار. فشكرني جنابه على تنبيهي هذا ووعدني بأن يجري اللازم. ولبثت أنتظر دون جدوى. وقد انتهى شهر شباط وحل (سعد السعود) الذي تدب فيه الماوية في العود وضاع موسم الغرس الخامس وراحت كلمتي التي كتبتها في الأيام ومراجعتي الشفهية لحضرة مدير الأمور الإدارية أدراج الرياح. وكنت سألت عن سبب هذا الاستهتار فقيل لي إن مدير هذه المصلحة مسافر يقضي شهر العسل في ربوع أوروبا. ووكيله غير أخصائي بفن الحدائق ولا يجد حافزاً للعمل في غياب الأصيل. وإن سفر المدير هو على حساب أمانة العاصمة وبحجة اقتباس معلومات جديدة في هندسة الشوارع والحدائق لأجل جلب مستحدثات ونماذج فريدة يضعها في شوارع دمشق وحدائقها. وقيل إن شهور العسل والأسفار والحجج قد تكررت وجرت في عدة سنوات مضت وعلى حساب أمانة العاصمة دائماً دون أن تجد مرجعاً عالياً يسأل عن حصيلتها وفائدتها. لأن دمشق وشوارعها وحدائقها لم تر مقتبسات ومستحدثات غير التي تعرفه منذ أمد بعيد. ولأن الشوارع لا تزال قرعاء. يرى السائر في شوارع الصالحية والمهاجرين وغيرهما مثلاً حفرة مغروسة هنا وعدة حفر فارغة هناك. والحدائق لا تزال جوفاء، وعلى ما يفعله فيها عمال سذج.

وبـدون إبـداع وجمـال ملحـوظين. ولـم نعلـم سـبب ذلـك، هـل هـو مـن فقـدان الغـراس والشـتول والبـزور فـإن كـان كـذلك، لمـاذا لا توجـد مصـلحة الحـدائق المسـؤولة هـذه المـواد فـي مشـاتلها ومـا هـو عمـل هـذه المصـلحة وموظفيهـا وعمالهـا الكثيـرين إذن. وإن كانـت هـذه الغـراس موجـودة وموفـورة مـا السـبب فـي عـدم غرسـها فـي مواسـمها التـي ضـاعت. هـذا إلـى أن الأشـجار القائمـة التـي وضـعتها مصـلحة الحـدائق فيمـا مضـى مـن السـنين (ازدرخـت ودردار ودلـب.. الـخ) ليسـت ممـا تحمـد عليـه فهـي مـن أجنـاس وأحجـام متنوعـة وغيـر متناسـبة فـي الحجـم والشـكل والتقلـيم، بعضـها فـي جانـب بعـض. بينمـا يوجـد مـا هـو أصـلح منهـا وأبهـج للنظـر وأطـوع للتقلـيم والتشـكيل يمكـن اقتباسـه وجلبـه مـن الـبلاد التـي زينـت شـوارعها بـه. ثـم هـذه الحـدائق المتعـددة فـي بعـض أحيـاء دمشـق وميادينهـا ممـا تشـكر عليـه أمانـة العاصـمة، علـى كـل حـال ليسـت أيضـاً ممـا تحمـد عليـه مصـلحة الحـدائق. فـلا ورود وريـاحين تعطـر الأنفـاس فـي كـل مـن فصـول السـنة الأربعـة. ولا أشـجار وأنجـم تزيينيـة حديثـة تسـر الأنظـار كـالتي توجـد فـي أي مـن حـدائق مـدن العـالم المتمـدن. وجـل مـا فـي حـدائقنا هـو ممـا يعملـه أبسـط عامـل حـدائقي. ومـازال أمرهـا مقتصـراً علـى مـروج خضـراء بسـيطة مقتطعـة مـن ضـفاف بـردى أو مسـتنقعات ناحيـة النشـابية، وعلـى أشـجار صـنوبرية حراجيـة عاديـة ولا شـيء سـوى ذلـك ممـا ينبغـي أن يأخـذ بجـامع القلـوب كمـا هـو الحـال فـي بـلاد الغـرب. وقـد يكـون حضـرة مـدير مصـلحة الحـدائق رآهـا فـي سـفراته التـي تتكـرر كـل عـام أو عـامين وكـان المنتظـر أن يعمـل فـي مـا عهـد إليـه لـو أحـاط علمـه بهـا وصـحت عزيمتـه. ولأجـل أن لا يتكـرر هـذا الاسـتهتار الـذي أشـكو منـه فـي موسـم ١٩٦٣ . ١٩٦٤ القـادم ولكـي لا تبقـى شـوارع مـدينتنا وحـدائقها عرضـة لنقـد العـارفين وأسـفهم بـادرت إلـى تـذكير أمانـة العاصـمة

مـن الآن راجيـاً أن تهـتم لهـذا الأمـر الـذي هـو حيـوي أيضـاً ومـدار زينـة هـذه المدينــة ومفتــرج لســكانها لاســيما وهـــي تنفــق عليهــا الأمــوال الطائلــة دون جــدوى تــروى الغليــل. وحبــذا لــو تســأل هــذه الأمانـــة الــبلاد التـــي فيهــا أخصــائيون وخبـراء فــي هندســة الحـدائق وغرســها وتجلـب واحـداً مـن هـؤلاء يكـون أوســع معرفـة وأمضــى عزيمـة وأكثـر شـفقة علــى دمشـق وأقـوى صـلة بحرفتـه مـن هـؤلاء الـذين لـدينا بعـد أن ثبـت عـدم تـوفير هـذه الشـروط فـيهم طوال هذه السنين.

٦ آذار ١٩٦٣

المهندس الزراعي المتقاعد

أحمد وصفي زكريا

خـواطر

ثمة كتب لا يستطيع المرء أن ينس الجهد المبذول في تأليفها. وخاصة إذا كانت هذه الكتب ذات طابع علمي موضوعي.

وفي كل مرة أحاول أن أقرأ المزيد من المعلومات عن ريفنا السوري، أبحث في المراجع العديدة الأجنبية ثم أعود إلى البحث في المراجع العربية فأجد أمامي مؤلفات الأستاذ أحمد وصفي زكريا.. وأجد أنه قد لخص بدقة أكثر ما كتب عن الإقليم باللغات الأجنبية أو العربية، إن لم أقل قد لخص كل ما كتب.

وفي مؤلفات الأستاذ زكريا عن الريف أو البادية يجد المرء دقة البحث، وقوة الأسلوب وأمانة الترجمة، وموضوعة البحث ففي كل كتاب لهذا المؤلف، تجد الفهارس، وتجد الخرائط والمخططات، كما تجد المراجع.

ولا يستطيع المرء إلا أن يعجب بهذا المؤلف الذي نهج في تأليفه لهذه الكتب المنهج الصحيح وقدم إلى القراء خدمة لا تقدر.

إن مؤلفات الأستاذ زكريا تحتاج في الواقع إلى دراسة وإلى تقديم بشكل واسع، لأنها في الواقع أهم مؤلفات كتبت حتى اليوم عن الإقليم الشمالي.

لقد قرأت عدة كتب كتبت عن سورية، وعن البادية، وعن الريف السوري بوجه أخص، إلا أني لم أستطع الاستغناء في أية مرة من المرات أحتاج فيها لدراسة قرية من قرانا عن مؤلفات الأستاذ أحمد وصفي زكريا.

الهدوء.. أين تستطيع أن تجد الهدوء.. يهرب البعض إلى الريف.. ويهرب البعض الآخر، إلى أماكن نائية في سبيل الهدوء.

ذهب صاحبي باحثاً عن الهدوء في الزبداني. أحب أن يبتعد عن ضوضاء المدينة، عن المقهى الذي ألف المكوث به..

وإلى أين يذهب؟ إلى الزبداني وكانت نزهة.. عاد صاحبي منها بألم في رأسه.. وألم في معدته.. أما السبب، فقال بأنه ذهب إلى هناك.. فوجد بعض الأصحاب وجلس معهم في المقهى. ولعب الطاولة والشدة كعادته.. ولم يستطع أن يشعر بالهدوء.. لم يستطع الخلو إلى نفسه لحظة.. لم يتمكن الاستراحة لحظة.

وأما معدته، فقد أصابه المرض منها، بسبب تغييره للطعام..

وقص علي صاحبي القصة وهو ثائر.. وهو يتساءل كيف يستطيع أن يتمتع بالهدوء.. والحقيقة أن الهدوء نسبي، فإذا لم يتمكن المرء من إيجاد الهدوء الداخلي لا يستطيع أن يجد الهدوء والراحة خارج نفسه.

إن أكثر الناس، يبحثون عن الاطمئنان وعن الراحة خارج ذواتهم، وهذا فيما أعتقد أمر مستحيل إن الهدوء الداخلي، هو الوحيد الذي يفيد الإنسان وعبثاً تضيع محاولة المرء في البحث عن الراحة خارج نفسه.

إن الإنسان ينقل ذاته معه بالطبع . عندما يغير المكان الذي يعيش فيه، ولا يستطيع أن ينعم بالراحة إذا كانت مشاكله الداخلية تسيطر عليه.

لذلك فإن الاطمئنان الذاتي وحده كفيل بأن يجلب الهدوء للإنسان، أما تغير المكان فقد يفيد، ولكن أكثر هؤلاء الذين ينتقلون بين المصايف لا يغيرون أي شيء في الواقع لأنهم يتصرفون نفس تصرفهم الذي ألفوه في المدينة.. فيذهبون إلى المقهى مثلاً ويلعبون الطاولة مع نفس الأصدقاء.

إن الراحة الداخلية لا تأتي من تغير المكان وحده.

إلى الأستاذ السيد
وصفي زكريا المحترم

لقد قمنا بنقل الحجر الأثري الموجود في قرية مسرابا وذلك بناء على المعلومات التي تفضلتم بها وتم استلامه من قبل المتحف الوطني.

ولا يسعنا في هذه المناسبة إلا أن نتقدم إليكم بوافر شكرنا على إخباركم شاكرين لكم اهتمامكم بآثار البلاد والعناية بها.

مدير الآثار العام

. صورة إلى محافظة المتحف الوطني

. إشعارنا باستلام الحجر المبحوث عنه.

حضرة المهندس السيد
أحمد وصفي زكريا المحترم

بعد التحية،

أخذت في حينه كتابكم المؤرخ في ٢٥ حزيران ١٩٦٣ وأعتذر جداً لتأخري بالجواب عليه وما ذلك إلا بسبب غيابي عن اللاذقية أكثر من مرة خلال هذين الشهرين.

إني آسف جداً لما حصل في دمشق بعد محاضرتي ولابد أنكم تقدرون أنه في عقب كل محاضرة يتقدم بعض الأشخاص من المحاضر فيكون هذا الأخير منشغلاً بمصافحة الأيدي والتحدث السريع إلى الذين يكلمونه وإنني أؤكد لكم يوم ذاك بأنه لم أسمع اسمكم عندما كلمتموني وإلا لانصرفت عن الجميع لأتحدث معكم لأنني أعرف الكثير عنكم وأتتبع نشاطكم الثقافي وقد لاحظت في الصفحة (١١٨) من المجلد السابع للحوليات الأثرية حاشيتكم المتعلقة بمقالتي عن قلعة برزويه.

هذا وإنني أشكركم للمعلومات القيمة التي أعطيتموني إياها عن مؤلفي ولاية بيروت لأنني كنت قد حاولت أكثر من مرة أن أعرف شيئاً عنهما فلم أستطع. إنني سأغتنم فرصة أول زيارة لي لدمشق لأجتمع بكم والتحدث معكم عن تاريخ هذه البلاد وآثارها.

سأرسل إليكم قريباً كتابي (بالفرنسي) عن رأس الشمرة كما ونشرة صغيرة عن آثار محافظة اللاذقية.

وتفضلوا بقبول الاحترام

جبرائيل سعادة

إلى فخامة رئيس وزراء
شرقي الأردن المعظم

علمت أن مديرية الزراعة في عمان في حاجة إلى من يشغلها ويخدمها عن خبرة وجدارة. وإذ كنت حائزاً على هاتين المزيتين بالنظر للبراهين المندرجة أدناه جئت راجياً فخامتكم التفضل بتعييني لهذه المديرية.

١ . إنني خريج الكلية الزراعية في الأستانة سنة ١٩١٣ ولم أنفك من ذلك الحين عن خدمة الزراعة في وظائف وأعمال وأقطار مختلفة.

٢ . إنني خلال ١٢ سنة (١٩١٢ . ١٩٢٤) أسست من جديد وأدرت أحسن إدارة عدة معاهد علمية زراعية كمدرسة دار الحرير في بيروت (لبنان) ومدرسة الأطرون الزراعية (فلسطين) ومدرسة سلمية الزراعية (سورية) وقد خرجت في هذه المعاهد كثيراً من التلامذة الذين صاروا الآن أركان الدوائر الزراعية في تلك البلاد. ومنهم عدد لديكم في عمان.

٣ . إنني خلال تسع سنوات (١٩٢٥ . ١٩٣٣) كنت مفتشاً لأملاك دولة سورية التي تحتوي على مئات القرى فأكسبت وقتئذ الخزينة آلاف الهكتارات من الأراضي المضاعة وأتممت معاملة الإيجار مع الوعد بالبيع لكثير من القرى.

٤ . إنني بعد أن ألغيت وظيفتي المذكورة بحكم إلغاء إدارة أملاك الدولة وتقاعدت في شرخ شبابي، استدعتني بعض الممالك العربية للاستفادة مني في خدمة الزراعة وتعليمها منها اليمن (سنة ١٩٣٦) والعراق (١٩٣٨ . ١٩٤١) فخدمتهما أحسن خدمة.

٥ . إن لي عدة مؤلفات مطبوعة ومخطوطة في فنون الزراعة وفي خطط بلاد الشام وآثارها فضلاً عن مقالاتي العديدة في مختلف المجلات العلمية.

٦ . إنني إثباتاً لما ذكرته آنفاً اجتزئ من شهاداتي بالصور المقدمة في طيه (١) شهادة المسيو كراوس مدير مدرسة مكيفه إسرائيل الزراعية في يافا عن خدماتي في مدرسة الأطرون (فلسطين) (١٩١٦ . ١٩١٧) (٢) شهادة مدير زراعة سورية ومستشاره الإفرنسي عن خدماتي في مدرسة سلمية الزراعية (١٩١٩ . ١٩٢٣) (٣) شهادة مستشار أملاك الدولة الافرنسي عن خدماتي في أملاك الدولة (١٩٢٥ . ١٩٣٣) (٤) شهادة مدير زراعة العراق عن خدماتي في وظائف الإرشاد الزراعي وفي مشروع التشجير العام (سنة ١٩٤١).

وتفضلوا بقبول تحياتي واحتراماتي الفائقة

في ٩٤٣/١٠/٢٢

المهندس الزراعي

أحمد وصفي زكريا

عثرات الأقلام في أسماء الأعلام

بقلم المهندس الزراعي: أحمد وصفي زكريا

يخطئ بعض الكتاب وتتعثر أقلامهم في كتابة بعض أسماء الأعلام الجغرافية والتاريخية، ويكررها بعض مندوبي الصحف ومحرريها، والصحف كما لا يخفى منتشرة بين أيدي ألوف القراء وهؤلاء يوجد بينهم كثير ممن لا يدركون هذه الأخطاء فيتلقونها كأنها حقائق، ولما كان لكل ساقطة في الحي لاقطة يصبح هذا الخطأ بمرور الزمن مشهوراً ومستعملاً ويصبح الصحيح مهجوراً ويتعذر بعدها تبنيه الغافل وتقويم المعوج.

من هذه العثرات كتابتهم اسم بلدة (سلمية) المعروفة في محافظة حماه هكذا (السليمية) بينما صوابها (سلمية) بدون (الـ) التعريف وبدون ياء بعد اللام.

فقد كان اسم هذه البلدة في عهد الرومان البيزنطيين وقبل الإسلام (سالاميناس) كما أبدته النقوش الأثرية التي عثر عليها هناك.

ولما جاء العرب حرفوا هذه الكلمة فجعلوها "سلميه" وكأنهم خففوها عن كلمة "سلم مئه" ولا يزال أعراب البادية من عنزة وموالي وحديدين وبني خالد وغيرهم يلفظونها على هذا المنوال الذي جاء أيضاً في كل الكتب الجغرافية والتاريخية العربية القديمة ومنها معجم البلدان لياقوت الحموي. فقد قال: سلمية بفتح أوله وثانيه وسكون الميم وياء مثناة من تحت خفيفة.

وكذا جاء به الشاعر العربي الأكبر المتنبي حينما قال في إحدى قصائده التي يمدح بها سيف الدولة بمناسبة قدومه إلى سلمية مع جيشه الجرار عام ٣٤٤ هـ لمقاتلة الأعراب الذين شقوا عليه عصا الطاعة:

فاقبلها المروج مسومات ضوامر لا هزال ولا شيار

تثيـــر علـــى ســـلمية مســـبطرا ننـــاكر تحتـــه لـــولا الشـــعار

والمؤرخ والجغرافي الشهير الملك المؤيد أبو الفداء أيضاً ذكرها بهذا الاسم فقال في كتابه (تقويم البلدان): سلمية بلدة نزهة ومياهها قني ولها بساتين كثيرة.

قلت: رحم الله أبا الفداء، أين عينيه الآن ليرى كيف جفت قني سلمية وغاضت مياهها وكيف تصوحت بساتينها وكرومها وأقفرت أماكنها وصارت قاعاً صفصفاً.

ولنعد إلى بحثنا فنقول: ما دام الأمر كذلك منذ قرون عديدة فما الداعي إلى كتابة اسم هذه البلدة التاريخية مقرون (بالـ) التعريف وبباء أولى وثانية (السلمية) كأنها منسوبة إلى رجل اسمه سليم وهي ليست كذلك ولا صلة لها بأي سليم أو سليمان وكما يقال الحلب، الحماة، الحمص فلا يقال (السلمية) لأن أسماء الأعلام لا ندخلها (الـ) التعريف.

إن لهذه البلدة الجميلة ذكريات محببة لدي، ويعز علي أن يلصق بها اسم خاطئ علمياً، فقد قضيت بها زهرة شبابي وكنت أول مؤسس ومدير ومنظم لمدرستها الزراعية، وأقدم باحث في جغرافيتها وتاريخها المنشورين في مؤلفي المسمى (جولة أثرية) لهذا السبب جئت بهذه الكلمة ألفت أنظار مثقفي سلمية الذين كثر عددهم ولله الحمد إلى هذه الغلطة التي ألصقت بها وأخص بالذكر مراسلي الصحف هناك وأرجو أن ينصروا لفظة (سلمية) التي هي الصحيحة ويجتنبوا الخطأ الذي نوهت به ليستحقوا محمدة الحقيقة والتاريخ.

مدير الزراعة والمعادن والبيطرة

وصفي بك زكريا

الموضوع / الموظفون

أعلمني فخامة رئيس الوزراء المعظم بكتابه رقم ٢٤٢/١٠/٢/١٠ تاريخ ١٩٤٣/٨/٣٠ أنه قد صدرت الإدارة السنيه بالموافقة على قرار مجلس الوزراء العالي بتاريخ ١٩٤٣/٨/٢٦ رقم ١١١ بقبول استقالتكم من مديرية الزراعة والمعادن والبيطرة في شرق الأردن وفي الكتاب المشار إليه يعرب فخامته عن تقديره للخدمات القيمة التي أديتموها طيلة مدة استخدامكم وعليه أحيطكم علماً بذلك وأبدي لكم أيضاً إعجابي وامتناني الزائدين من الإدارة الحسنة والخدمات المحمودة التي أديتموها خلال البرهة التي وجدتم فيها في عملكم الحالي من ١٩٤٢/١٢/٨ إلى ١٩٤٣/٨/٣١ وأرجو لكم اطراد التوفيق والنجاح واقبلوا تحياتي الخالصة.

وزير التجارة والزراعة

الدكتور

أحمد وصفي زكريا
في ذكراه الثالثة والعشرين

لا يعرف فضل أهل العلم إلا من خاض غمار الثقافة واستهوته متعة التعليم وحب الاطلاع، وعرف مشاقها ومتاعبها من سهر وتعب وتبعات مادية مرهقة ومردود لا يتناسب مع حجم التطلعات.. والعلامة أحمد وصفي زكريا ذلل ذلك كله وبرز على الساحة الثقافية في الثلاثينات من هذا القرن عالماً وأديباً ومحققاً وباحثاً زراعياً خدم التعليم الزراعي في سورية وأخلص له.

واعتنى بتطوير الزراعة في ستة أقطار عربية منذ عام ١٩١٢ وحتى عام ١٩٥١، وترك آثاراً ثقافية أضيفت إلى مآثر المبدعين في سورية العربية ومن حقه علينا أن نحييه في ذكراه الثالثة والعشرين.

لم أجالس وصفي زكريا على الأرائك، ولم يكن لي شرف التعرف عليه عن قرب لأنه من جيل وأنا من جيل آخر. ولكن جالسته في صفحات كتبه الأدبية والتاريخية وعرفته من خلال مقالاته في أعداد قديمة لمجلة المقتطف والمعرفة والشرطة، وفي كتب الحوليات الأثرية وفي بعض الصحف القديمة، وعرفت نبله وكرمه في الصفحات الرائعة والمراثي التي سطرها عنه تلامذته ومحبوه من بعده.

وجدت وصفي زكريا عوناً لي في أبحاثي عن البيئة الفراتية والبيئة السورية بشكل عام ولن أنسى تلك السطور التي أرشدتني من خلالها على كتب الرحالة الذين زاروا الفرات في الماضي وثمنت جهده في مطالعتها والحصول عليها بعد أن حصلت على بعضها بعد جهد جهيد من أحد المستشرقين الأوروبيين.

ووجدت والدكتور عارف تامر كتابه القيم: "حيوانات بلاد الشام" عوناً لنا عندما أعددنا موسوعة الطيور السورية وجاءت أهمية كتاب العلامة وصفي زكريا

في كونه حلقة قديمة قارنا من خلالها أحياء الماضي في ا لبيئة العربية السورية بأحياء الحاضر وما طرأ عليها من تبدلات.

وأكبرت فيه صبره وجلده على تحمل المشاق في أصعب الظروف عندما جاء إلى محافظة دير الزور عام ١٩١٦ قادماً من حلب على ظهر عربة تجرها الجياد ليكافح آفة الجراد التي استشرت في هذه المحافظة في الماضي.

ولد وصفي زكريا في دمشق عام "١٨٨٩"م في عائلة دمشقية متواضعة وترعرع محباً للعلم منذ صغره، وتعلم في مدارس دمشق حتى أنهى تعليمه الثانوي فيها، وارتحل إلى استنبول لتلقي العلم الزراعي في جامعتها فتخرج مهندساً زراعياً عام ١٩١٢ وفور عودته إلى أرض الوطن عمل في حقل التعليم الزراعي بمدرسة سلمية الزراعية ثم مديرا لتلك المدرسة التي خرجت أوائل الزراعيين السوريين في الماضي، ثم كلف بمكافحة الجراد في دير الزور عام ١٩١٦ خلال الحرب العالمية الأولى وعين مفتشاً لأملاك الدولة عام ١٩٢٤، وانتدب مستشاراً زراعياً لليمن عام ١٩٢٦ ومديراً للزراعة في شرقي الأردن بعد ذلك، ومستشاراً في العراق عام ١٩٤١ ثم عاد إلى القطر بعد ذلك بأخلاقية المثقف العربي الملتزم بأهداف أمته تاركاً في البلدان التي خدم فيها آثاراً خالدة وسمعة طيبة ومثالاً في التفاني والإخلاص عاد ليعمل مفتشاً عاماً في وزارة الزراعة السورية منذ عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٥١ تقاعد بعدها من العمل الوظيفي ولكنه لم يتقاعد عن العمل الثقافي حتى مات مكباً على الصفحات الأخيرة من كتاب "حيوانات بلاد الشام" عام ١٩٦٤.

ومن مؤلفات المرحوم وصفي زكريا:

الدروس الزراعية . المفكرة الزراعية . زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام . عشائر الشام عام . الريف السوري . جولة أثرية . حيوانات بلاد الشام . من دمشق إلى صنعاء الذي جمع مقالاته المفكر العربي أحمد المضواحي.

عاش وصفي زكريا الفترات العصيبة من حياة هذه الأمة عندما شهد نهاية الدكتاتورية العثمانية وعاصر غطرسة المستعمر الفرنسي ولم يثنه كل ذلك عن الإخلاص لمهنته وبلده. إذ كان عالماً في الزراعة والتاريخ والآثار والتراث، أمضى عمره باحثاً دؤوباً في مجال العلوم الزراعية وكان يعمل في النهار ويسهر في الليل على ضوء الشمعة والفانوس ليدون مشاهداته وليبحث في بطون كتب التاريخ والعلم عما هو مفيد وقد نقل عنه المرحوم عبد القادر عياش بيتين من الشعر كان يتغنى بهما:

يالهف نفسي على شيئين لو جمعا عندي لكنت إذن من اسعد البشر
كفاف عيش يقيني ذل مسالة وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

عاصر وصفي زكريا فترة العصبيات التي أذكاها المستعمر فدونها بدقة وأظهر ملابسات أحداثها في كتابه "عشائر الشام" وهو لون من الجغرافية البشرية تتميز به البيئة العربية في السابق ومما ساعد وصفي زكريا على النجاح إلمامه بالتركية واللغة الفرنسية واهتمامه بآداب العربية. قضى وصفي زكريا أيامه الأخيرة متوكئاً على عصاه ينتقل من تلة إلى أخرى لينقب عن آثار نهر مندثر أثبت مكانه في نشرات الحوليات الأثرية السورية.

مات شهيد القلم في الحادي والعشرين من نيسان عام ١٩٦٤ وهو ممسكاً بقلمه وذهب دون أن يحظى بالتكريم اللازم لا في حياته ولا بعد مماته وفقدنا بموته عالماً وأديباً.

العثور على مخطوطة
لأحمد وصفي زكريا ملخص تاريخ الشام

تم العثور بين أوراق وكراريس العلامة أحمد وصفي زكريا على كراس من وضعه مؤلف من أربعين صفحة لخص فيه تاريخ مدينة دمشق منذ أقدم عصورها حتى الاستقلال عام ١٩٤٦ ويقوم بتحقيق المخطوط الأستاذ أحمد غسان سبانو بتحقيق المخطوطة والتعليق عليها تمهيداً لنشرها.

ومما يذكر أن العلامة أحمد وصفي زكريا اشتهر بمؤلفاته التاريخية مثل عشائر الشام من جزأين: و "جولة أثرية في الربوع الشامية و "ريف دمشق" من جزأين وله أيضاً "طيور وحيوانات بلاد الشام" (غير منشور) إضافة لمؤلفاته الزراعية التي تعتبر مصدراً هاماً للأبحاث الزراعية في قطرنا وفي البلاد العربية.

في ذكرى وفاة

مؤرخ وعالم دمشق أحمد وصفي زكريا

كثيرون منا عرف أو سمع أو قرأ شيئاً مما ألفه عالم دمشق الكبير أحمد وصفي زكريا العالم الموسوعي والمؤرخ المدقق، ومن قرأ له يدرك مباشرة أنه كاتب موسوعي مدقق بحاثة متتبع دؤوب ذاعت شهرته في أوساطنا الأدبية والأثرية والعلمية والزراعية في سورية وفي وطننا العربي بالإضافة إلى جهوده الوطنية وخبرته العلمية التي قدمها لكل من سورية ولبنان وفلسطين واليمن والعراق والأردن وقد توفي في مثل هذه الأيام من عام ١٩٦٤ في منزله بدمشق عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بانفجار في الدماغ أثناء مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط "حيوانات بلاد ا لشام" الذي لم يظهر للوجود إلى الآن.

عاش العلامة أحمد وصفي زكريا خمسة وسبعين عاماً في الدرس والبحث وحتى أنه في أواخر حياته ورغم تقدم سنه كان يستحث الخطا متكئاً على عصاه منتقلاً من تل لآخر ومن قرية لأخرى باحثاً منقباً عن نهر مرا "امرأة" الذي ذكره الرحالة والشعراء والذي بقيت آثاره مجهولة حتى قام بالكشف عن بعض مواقعه وتحديدها. وأعد بحثاً عنه نشر بعد وفاته في مجلة الحوليات الأثرية. فمن هو العلامة أحمد وصفي زكريا وما الذي قدمه؟ ولد عام ١٨٨٩ في دمشق وقد أتم فيها دراسته الابتدائية والثانوية وانتقل إلى استنبول والتحق بالمدرسة الزراعية العليا وتخرج منها عام ١٩١٢ مهندساً زراعياً وقد كانت أولى أعماله أن عين في سلمية بمدرستها الزراعية التي كانت قد أنشئت حديثاً ثم أصبح مديراً فيها ثم شغل منصباً في مديرية الحرير في بيروت عام ١٩١٤ وفي المدرسة الزراعية في الأطرون بين القدس ويافا ثم كلف بمهمة مكافحة الجراد في دير الزور عام ١٩١٦ وفي

الحكومة الفيصلية شغل عام ١٩١٩ منصب مدير مدرسة سلمية الزراعية وفي عام ١٩٢٤ عين مفتشاً لأملاك الدولة.

في عام ١٩٣٦ ثم استدعاؤه لليمن كمستشار فني زراعي وقد قدم الكثير هناك وقام بإدخال زراعات جديدة تتناسب مع البيئة اليمنية وأقام في اليمن سنتين ورغم استدعاء حكومة العراق له ليدرس في مدرسة دار المعلمين الريفية في بغداد إلا أنه بقي على اتصال مع مسؤولي اليمن ومختصي الزراعة هناك للاطمئنان عن أبحاثه وحسن سير منجزاته في فصل الزراعة في اليمن وقد ترك في أوراقه الكثير من الرسائل والأوراق التي تثبت متابعته واهتمامه بذلك رغم تركه اليمن.

بقي في العراق حتى عام ١٩٤١ خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني واستدعته حكومة الأردن عام ١٩٤٢ ليكون مديراً عاماً لوزارة الزراعة في عمان.

في عام ١٩٤٣ عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة وبقي في وظيفته حتى عام ١٩٥٠ حيث أحيل على التقاعد لبلوغه السن القانوني وقد اختارته الدولة في أواخر حياته عضواً في المجلس الأعلى للعلوم والآداب.

عاش العلامة أحمد وصفي زكريا في فترة تاريخية عصيبة فقد عاش في ظل الحكم العثماني ثم الاحتلال الفرنسي وعاش الاستقلال العربي فكان بذلك مجيداً للغة العربية والتركية والفرنسية مما جعل أمامه مصادر كثيرة وآفاق علمية واسعة.

أضف إلى ذلك ولعه في الرحلات وفي الدراسات التاريخية والجغرافية وكثرة أسفاره جعلت لديه حصيلة علمية تاريخية أثرية وجغرافية واسعة جداً انعكست على مؤلفاته التاريخية الهامة التي تركها.

ففي مجال اختصاصه المهني كمهندس زراعي كان رائد العلوم الزراعية في وطننا العربي، فهو أول من أسس مدارس زراعية في كل من سورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق واليمن وهو أول من وضع مناهج وبرامج للمدارس الزراعية وهو أول من عرب المصطلحات الزراعية وألف ووضع الكتب الزراعية

العلمية، وكتبه الزراعية رغم مرور حوالي نصف قرن عليها ما تزال أهم وأدق المصادر العلمية في الميدان الزراعي، وقد تخرج على يديه الكثيرون من المهندسين الزراعيين والمختصين أثناء توليه منصب أستاذ في كلية الزراعة بدمشق.

وفي ميدان الأبحاث التاريخية والأثرية والجغرافية ترك العلامة أحمد وصفي زكريا آثاراً هامة كان فيها رائداً في أبحاثه متميزاً في تدقيق المعلومات والبحث والتقصي، وكان يعتمد على المشاهدة الحسية وهو يعتمد أيضاً على استقراء المعلومات ومناقشتها مع أصدقائه العلماء والأدباء وأهل الدراية ثم بعد ذلك يعود لاستقراء المعلومات المتوافرة والمتوفرة لدى العامة. وذلك في سبيل استكمال سائر أنواع المصادر والمعلومات حول الموضوع الذي يدرسه.

ترك العلامة أحمد وصفي زكريا الكثير من المؤلفات سواء في حقل اختصاصه المهني كمهندس زراعي أم في حقول أبحاثه التاريخية والأثرية والجغرافية. ففي مجال اختصاصه المهني خلف الآثار التالية:

١ . الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية ٣ أجزاء صدر بتاريخ ١٩٢٥.

٢ . المفكرة الزراعية وهي تحوي خلاصة الفنون والأعمال الزراعية وقد صدر عام ١٩٣٠.

٣ . زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام في جزأين صدرا عام ١٩٥١.

في المجال التاريخي والأثري والجغرافي:

١ . جولة أثرية في بعض البلاد الشامية صدر عام ١٩٣٤.

٢ . عشائر الشام بجزأين صدرا عام ١٩٤٥.

٣ . الريف السوري محافظة دمشق جزءان صدرا عامي ١٩٥٥، ١٩٥٧.

أما في المخطوطات التي تركها فهي:

١ . حيوانات بلاد الشام البرية.

٢ . مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ وأحوال اليمن.

٣ . مقالات مختلفة زراعية وتاريخية وأثرية وجغرافية كانت قد نشرت في الصحف والمجلات السورية والعربية.

يضاف إلى ذلك بعض المقالات التي نشرت اعتباراً من عام ١٩٣٦ ولغاية ١٩٥٧ في بعض الصحف العربية.

يضاف إلى ذلك كثير من الأبحاث المخطوطة والمقالات غير المنشورة والتي وجدت في أدراج مكتبه بعضها في اللغة العربية وبعضها الآخر في اللغة التركية.

أحمد غسان سبانو

فيا عطشي والخابور يجري في الجزيرة

كلما زرت محافظة الجزيرة وتجولت زدت إعجاباً وإكباراً لأراضيها الشاسعة وبراريها المترامية الأطراف، ولخصبه الشديد الذي تدل عليه المراعي والأعشاب النامية هناك نمواً زائداً، مما يجعلها في سني الإقبال تخفي الجمل البارك بينها فيما قبل.

ويتضاعف هذا الإعجاب والإكبار كلما رأيت الأنهار والعيون والأودية الكثيرة المنتشرة في غربي الجزيرة وشرقيها كالبليخ وروافده العديدة بين تل أبيض والرقة وكالجغجغ والرد والجراح وغيرها حول القامشلي والحسكة ورأس العين مما ينسكب كله، ويلتقي في نهر الخابور العظيم الذي يقدر صبيبه بـ ٣٦ متراً مكعباً في الثانية.

لكن هذا الإعجاب والإكبار ينقلبان إلى ألم وأسف عظيمين حينما أرى تسعة أعشار تلك الكمية من مياه الخابور تذهب إلى الفرات دون جدوى، وحينما أرى آثار العمران والازدهار القديمين كالترع والقنوات المندثرة والتي كانت تشتق من هذا النهر وتمتد عشرات الكيلومترات وتروي ألوف الهكتارات الصالحة للزرع والغرس كيف أنها باقية دون فتح وتنظيف واستفادة، والتلال الصناعية والأطلال الأثرية المنتشرة بكثرة كيف أنها واقفة تندب مجدها الداثر في عهود الدول التي كانت سائدة هنا.

على أنه مما يبعث الأمل أن يبدأ عمران الجزيرة للعودة منذ عشرين عاماً أو أقل، وأن يقوم النازحون إليها والمقدرون قدرها من أرباب السعي الشخصي باستغلال ما وسعهم الجهد من تربتها الزكية ويقدمون عشرات الألوف من أطنان الحبوب إلى مستودعات الميرة ويسدون عوز البلاد السورية خلال سني الحرب وما

بعدها حتى كادت تعد الجزيرة (أهراء سورية) بحق.

ولو أن حكومتنا السورية تنشط الأيدي العاملة والعناصر الفعالة نحو الذهاب إلى أنحاء الجزيرة وإنشاء مزارع عصرية وشق الأبوار وفتح القنوات والترع المهملة . على النحو الذي تعمله دول العالم وخاصة جيراننا في تركيا والعراق ومصر لزاد الاستغلال وفاضت خبرات الجزيرة وكثرت موارد الخزينة أضعافاً مضاعفة، ولوجد ألوف السوريين العاطلين في مدننا وقرانا وبوادينا مجالاً للعمل والارتزاق واستعمروا تلك الأنحاء الخالية.

أجل لقد سبقنا جيراننا الأتراك إلى استغلال هذه الجزيرة التي عندهم منها حصة موفورة شمالي الخط الحديدي الفاصل بيننا وبينهم. فقد عمدوا منذ سنة ١٩٤٢ إلى أراضيهم الممتدة أمام أعيننا ما بين محطتي تل أبيض ورأس العين فعملوا في هذه الأراضي مشروعاً زراعياً حكومياً، وكانوا استحصلوا من الأميركيين بطريقة الإعارة والتأجير على عشرات الجرارات وما يتبعها من الآلات الميكانيكية وصاروا يحرثون ويزرعون بها ألوف الهكتارات ويستغلون مئات ألوف الطنان من الحبوب، ويسدون حاجة جيشهم وشعبهم خلال الحرب وحتى الآن بأرخص الأثمان وأنجع الأساليب. بينما أراضينا السورية الممتدة في جنوبي الخط الحديدي وإزاء المشروع التركي المذكور ما برحت براري قفراء تشكو إهمالنا وتقاعسنا واكتفاءنا بتكرار كلمة (فياعطشي والماء يجري). ولم يقنع الأتراك بما عملوه في أراضي الجزيرة من المشاريع الحكومية بل عمدوا أخيراً إلى إعمار أملاك الدولة التي لهم في بلاد الأناضول عن طريق تقسيمها وتوزيعها على طلابها من الفلاحين وغير الفلاحين الذين ليس لهم أراضٍ بتاتاً أو بالحد الكافي ويرغبون العمل في الزراعة، ومنهم خريجو المدارس الزراعية والبيطرية. وقد أصدروا قانوناً اسمه (جيفنجي يي طوبرا قلند برمه قانوني) رقمه ٤٧٥٤ تاريخه ٩٤٥/٦/١١ ومعناه (قانون تمليك الأراضي للفلاحين)، وهم لم يكتفوا في هذا القانون بتمليك أراضي الدولة فحسب

بل استطالوا إلى تحطيم الملكيات الكبيرة وتنشيط الملكيات الصغيرة وتكثيرها عن طريق نزع ما في أيدي الأشخاص الزائدة أراضيهم عن المساحة المقننة للملكيات والتي لم تستثمر ثلاث سنوات متعاقبة بدون عذر مقبول، وشرعوا بالفعل يأخذونها ويوزعونها على طلابها المذكورين لقاء أثمان مقسطة على عشرين سنة. وقد قسم هذا القانون الملكيات إلى ثلاث، الصغيرة وهي التي تحت ٥٠٠ دونم والمتوسطة وهي التي تحت ٥٠٠٠ دونم والكبيرة وهي التي فوق ٥٠٠٠ دونم وجعل هذا القانون أعمال نزع الملكية وتوزيعها من خصائص (وزارة الزراعة) وموظفيها في الولايات الذين لهم شأن وأثر عظيمان هناك وفي كل الممالك الراقية والعاطفة على بلادها وشعوبها.

وجيراننا وإخواننا العراقيون والمصريون أيضاً لم يقصروا في هذا المضمار، فقد قاموا لمؤازرة الملكية الصغيرة ولتوزيع الأراضي الحكومية على المحتاجين والطالبين. كما أنشؤوا مزارع فنية عظيمة رموا بها إلى غايتين، الأولى الاستثمار واحتجان الأرباح لخزينة الدولة من المحاصيل الناتجة، والثانية العمل بأسلوب فني ومثالي تجاه الملاكين والمزارعين ليحتذوا به ويسترشدوا. ففي العراق مثلاً عدة مزارع حكومية في جنوبه ووسطه وشماله كالتي في مواقع أبي غريب وبكرجو والحويجة والموصل والبصرة، وكل منها ذو مساحة كبيرة تعد بألوف الدونمات وفيه من الموظفين والمستخدمين والعمال والآلات والحيوانات والمباني والترع والقنوات والمحاصيل الفائضة ما يدهش ويعجب، وفي مصر من ذلك التفانيش الكبيرة العائدة لمصلحة الدومن (أملاك الدولة) ولغير من المصالح وهي منتشرة في كثير من مديريات القطر الشقيق مما يزيد عما في العراق مساحة وإتقاناً وإنتاجه بحكم قدم العهد عليه بينما العراق في أول عهده.

فما أحرى بحكومتنا السورية وخاصة وزارة الاقتصاد الوطني المشرفة على دوائر الزراعة وأملاك الدولة معاً أن تحذوا هذا الحذو في هذا العهد الاستقلالي

الإنشائي وتشرع باعمار واستثمار ما هو داخل ملكها الصريح من أراضـي الجزيرة المهملة والمتروكة لطمع الطامعين من كبار الإقطاعيين والموسرين وشيوخ العشائر وكلهم يدعي أو يحاول التصرف أو وضـع اليد على الألوف المؤلفة من الدونمات دون أي مبرر أو مستند قانوني، بينما هو تاركها ومهملها عن عجز أو كسل لا يستفيد منها ولا يفيد إلا ما لا يذكر. أليس من دواعي الأسف والتجني على العدالة الاجتماعية أن تبقى هذه الألوف من الدونمات في متناول أو تحت نفوذ وادعاء شخص أو شخصين بينما ألوف الأشخاص الكادحة من أبناء هذا الوطن السوري بدون أرض ومورد رزق وعمل.

أليس من دواعي الحزن وعذاب الضمير أن تظل أعمال دوائر الزراعة وأملاك الدولة عندنا أعمالاً قرطاسية ديوانية لا حقلية ونظرية لا عملية، وأن لا يكون لدى هذه الدوائر سياسة زراعية معينة وأن لا يعمل موظفوها معشار ما يعمله زملاؤهم في الدول كلها من إصلاح زراعة وتحسين نباتات وإعمار قرى واستغلال مزارع وإصدار محاصيل وتشغيل عمال عاطلين وإسكان فلاحين محرومين في أماكن يستقرون فهيا فينتفعون وينفعون الخزينة بكدهم.

أجل، لا يزال في أقضية ديريك والقامشلي والحسكة ونواحي عامودة والدرباسية ورأس العين وتل أبيض . وقضاء عين العرب وكلها من بقاع الجزيرة الفراتية . آفاق رحبة وإمكانيات عدة لإيواء ألوف من الأيدي العاملة التي ضاقت بها أراضي بعض الأقضية السورية الغربية كالتي في اللاذقية ودمشق، واضطرت هؤلاء إلى الهجرة نحو الأصقاع الأميركية. وها أن أبواب قنصلية البرازيل في بيروت تزدحم بالمراجعين من أبناء لبنان وسورية ذوي القامات والهامات يطلبون السماح لهم بالهجرة وهي لا تسمح إلا لمن يأتي لها بشهادة من دوائر الزراعة المحلية بكونه قروياً فلاحاً، لكي نعمر بسواعد هؤلاء سهول البرازيل ومستنقعاتها المترامية الأطراف حيث لا يعيش ولا ينجو هناك من الحميات وتبدل المناخ إلا

القليل ولا يكتب النجاح والرزق إلا للأقل وهم رغم ذلك وتحمل ضغط الفاقة والحرمان يذهبون زرافات ووحدانا بينما بلادهم في سهول الجزيرة الخصبة أحوج ما تكون إليهم وهم أنسب ما يكونون لها.

ومن لم يوفق بالهجرة ومغادرة البلاد السورية يقبع في مكانه ويتحمل مضض البؤس من حرمان الملك والأرض وضيق مساحتهما، لأن ما يرثه البنون عن الآباء من الدونمات القليلة في أقضية وجبال اللاذقية وقلمون وحرمون مثلاً وحتى في نفس قصبة دوما قرب دمشق وأمثالها من القرى المكتظة بسكانها، أصبح لا يكفي لمعيشتهم هم وعيالهم بعد هذا التكاثر الذي حدث في عدد النفوس وغلاء المعيشة المستمر، ويتضاعف من جراء عدم الكفاية هذه عدد العاطلين والبائسين وترتفع الشكوى والتذمر من أفواه المدركين لهذه الحالات والعارفين بما في سهول الجزيرة التي وصفناها من مزايا وإمكانيات واسعة لإغاثة هؤلاء وإنقاذ بعضهم في أنحاء اللاذقية مثلاً من بيع بناتهم في أسواق الرقيق.

إن معظم أراضي الجزيرة هي كما لا يخفى أملاك دولة فهل للدولة السورية صاحبة هذه الأملاك العظيمة بل هل لوزارة الاقتصاد الوطني المكلفة بإصلاح الزراعة وحفظ هذه الأملاك واستثمارها على الوجه الأكمل أن تفكر بها وتسعى لنبش كنوزها المدفونة فتفيد الخزينة المحتاجة للموارد وفي الوقت نفسه تفيد الألوف المؤلفة من السوريين المتضورين جوعاً وبؤساً.

هذا ما أردت أن ألفت أنظار أولياء أمورنا إليه وأرجو أن يتم في هذا العهد الاستقلالي (إعمار أملاك الدولة) في الجزيرة عن طريق تمهيد السبل وتنشيط من يريد العمل في الزرع والضرع لتقوى الروح المعنوية والوطنية في تلك الأنحاء ويزداد ارتباطها بالعاصمة (دمشق) بعد أن فعل الفرنسيون هناك طيلة ربع قرن لخنق هذه الروح بما حشدوه من العناصر والمؤثرات الغريبة.

وليس (اعمار أملاك الدولة) الذي أرجوه وأدعوا إليه مما يحتمل التأخير بعد هذه

السنين التي أضعناها بمبرر أو بدون مبرر، ولا يجوز في اعتقادي أن يقال انتظروا ختام أعمال التحديد والتحرير التي سيشرع بها قريباً، بينما هي قد تحتاج إلى ثلاث أو أربع سنوات بعد فالوقت نقد، وخير البر عاجله، وحقوق الدولة واضحة في كل مكان من الجزيرة ومع ذلك وإلى أن يتم قسم من هذا التحديد وتثبت حقوق الدولة وإلى أن تنتهي (قناة تل مفاص) التي تسعى مصلحة الري لإكمالها بعد سنتين أو ثلاث، يمكن التشبث من الآن . بالمشروعات الآتية وعدم إضاعة الأعوام والاعمار في الوقوف والانتظار.

في رأيي إن أراضي الجزيرة لا تنجح فيها كما يجب المساعي الفردية والمشروعات الصغيرة التي يقوم بها شخص أو شخصان من أبناء المدن برساميل ضئيلة ولو بلغت ٥٠ . ١٠٠ ألف ليرة. بل إن النجاح مضمون أكثر للمساعي المشتركة والمشروعات الفخمة التي تقوم على أحد أمرين إما على عاتق الحكومات والهيئات الرسمية كما تعمله الآن تركية والعراق ومصر حسبما قدمت، وكما عمل فيما مضى السلطان عبد الحميد العثماني حينما استملك وعمر مئات القرى والخرب في مشارق حلب وحماه وحمص، وأسكن فيها من الفلاحين العلويين والأعراب أنصاف البدو وحماهم من عبث البادية بسرايا البغالة وحباهم بكل عناية ورعاية حتى عمرت تلك المشارق وازدهت وخلدت اسمه مذكوراً بالمحمدة والرحمة، وكما عملت عصبة الأمم الملغاة مع الأرمن الذين أسكنتهم وبنت لهم ثلاث قرى حول تل براق شرقي الحسكة ومع الآشوريين الذين بنت لهم عشر قرى على الخابور غربي الحسكة وأسعفتهم وحمتهم حتى عاشوا وحسن حالهم ومآلهم.

وأما تقوم على عاتق الشركات الزراعية المساهمة القوية التي ينبغي أن لا يقل رأسمالها عن نصف مليون أو مليون ليرة سورية كيما يتسنى استخدام أكبر عدد ممكن من الرجال والوسائل فتشق الأبوار وتفتح الترع والقنوات وتشيد الدور والمباني وتستجلب الآلات الميكانيكية فتستفيد وتفيد.

وإني أتمنى لو أن الدوائر المسؤولة عندنا تسعى من الآن لهذه المشروعات وتتجه نحو الأمرين الآتيين معاً أو الواحد تلو الآخر حسب الإمكان على النحو التالي:

١ . أخذ اعتمادات كافية من الموازنة لبناء قرى عصرية ذات ٢٥ . ٥٠ بيتاً في كل قطعة كبيرة من أملاك الدولة الصالحة للاستغلال، ولاسيما في تلك التي ستظهر عقيب ختام قناة تل مغاص. ويعلن في محافظتنا الغربية كدمشق واللاذقية التي تضيق أرضها بسكانها، ويحمل منها الراغبون من القرويين وغير القرويين من أرباب البطالة والمعسرة المستعدين للعمل الزراعي حقاً، ويسكنوا في تلك القرى وتوزع الأراضي عليهم ضمن شروط ومراقبة وإرشاد ويعطوا رؤوس أموال للمعيشة والاستثمار قرضاً وبأقساط إلى ١٥ . ٢٠ سنة أسوة بما عمله قبلاً السلطان عبد الحميد العثماني وعصبة الأمم وما تعمله الآن حكومات تركيا ومصر والعراق كما ذكرت.

وفي اعتقادي إن الخزينة السورية التي تحملت صرف ستة وعشرين مليون ليرة سورية لمشروع الهاتف الآلي المعدود من الكماليات الممكنة الأرجاء يجب أن لا تعجز عن صرف خمسة أو ستة ملايين ليرة سورية في كل سنة لبضع سنوات في سبيل المشروع الضروري الحيوي الذي عرضته. خاصة وفيه إنعاش الألوف من الأنفس الفقيرة وتأمين مستقبلهم. وهذا لعمري مفضل على كل مشروع ويصدق فيه حديث (إطعام بطن جائع خير من بناء جامع).

٢ . بث الدعاية في الأوساط السورية الميسورة التي تذوقت منافع المساهمة في الشركات حمل هذه الأوساط على تأليف شركات مساهمة أو متحدة كالتي تقدم ذكرها. وليكن ذلك بسرعة وقبل أن يذوب ما ادخره الناس في سني الحرب وتبتلعه الأزمات الاقتصادية وغلاء المعيشة المستمر، على أن نؤازر هذه الشركات بكل وسيلة ممكنة وتعطى لها الأراضي الكافية من

أمـلاك الدولـة بطريقـة (الإيجـار العـادي) ثـم بطريقـة (الإيجـار مـع الوعـد بـالبيع) إذا نفـذت الشـروط وسـارت فـي الأعمـال المنتظـرة. ذلـك لتـأتي بمـا يكفـي مـن رؤوس الأمـوال التـي قـدمت ذكـر مقاديرهـا أعـلاه، وتجلـب الآلات والوسـائل وتسـتخدم العمـال وتسـتثمر خاصـة ميـاه الخـابور ومـا فـي ضـفتيه مـن الأراضـي والقنـوات القديمـة كقنـاة التـف وقنـاة الحمـى وقنـاة دوريـن وغيرهـا فضـلاً عـن قنـاة تـل مغـاص الحديثـة التـي تقـدم ذكرهـا. لأنـه إذا لـم تقـم الحكومـة بهـذه المشـاريع ولـم تعطهـا إلـى شـركات مسـاهمة وطنيـة تبقـى هـذه الأراضـي والميـاه والقنـوات خرابـاً يبابـاً وتبقـى الـبلاد والعبـاد فـي حسـرة وأسـى إلى أبد الآبدين.

هـذا إلـى أن تشـجيع هـذه الشـركات يـوفر علـى موازنـة الدولـة أمـوالاً طائلـة وأتعابـاً وأوقاتـاً كثيـرة فـي سـبيل مشـاريع الـري المنتظـرة التـي لا يعلـم إلا الله متـى يبـدأ بهـا لأن هـذه الشـركات إذا تألفـت تتحمـل نفقـات الدراسـات الهندسـية وبنـاء السـدود والجسـور وفـتح التـرع والقنـوات التـي عـددناها وغيـر ذلـك مـن الأعمـال التأسيسـية، وكلهـا أعمـال نـرى دوائـر الأشـغال العامـة والـري تنـوء بهـا وتتـأخر سـنيناً عديـدة فـي إنجازهـا. وحجتهـا فـي ذلـك قلـة المهندسـين والمنـاظرين ونقـص الاعتمـادات المخصصـة أو نقلهـا إلـى مـواد وفقـرات أخـرى لـم تكـن بالحسـبان كمـا جـرى فـي ميزانيـة عامنـا هـذا حيـث نقلـت مبـالغ طائلـة مـن اعتمـادات (ري الخـابور) إلـى تـرميم الجـامع الأمـوي وغيـره. وهـا أن قنـاة تـل مغـاص قـد مضـى علـى البـدء بهـا نحـو ثمـاني سـنوات واسـتنفذت بضـع ملايـين ولمـا تنتـه بعـد. فـإذا تألفـت شـركات زراعيـة مسـاهمة قويـة، وقامـت بهـذه الأعمـال تكـون كفـة الحكومـة راجحـة بسـبب ظهـور مـن يحمـل عنهـا هـذه الأعمـال والمشـاريع بتعبـه ونقـده ووقتـه، وتكـون الدولـة قـد حصـلت علـى غايتها الأولى في مشاريع الري وهي زيادة الإنتاج وتغذية خزينة الدولة.

هذا ما أردت بيانه. والله الهادي إلى سواء السبيل.

العالم الجليل
أحمد وصفي زكريا

بقلم: أحمد الجندي

حين تذكر مدينة السلمية القديمة العريقة فلا بد أن تذكر مدرستها الزراعية الشهيرة أكبر مدرسة من اختصاصها في الشرق العربي، وإذا ذكرت هذه المدرسة فلابد أن يذكر معها أول أستاذ فيها وأول مدير مؤسس لها أحمد وصفي زكريا العالم الزراعي الجليل صاحب المؤلفات القيمة والأحاديث الزراعية والجغرافية والتاريخية القيمة.

هذا الأستاذ الكبير الذي له الفضل على كل مشتغل في الزراعة وفنها من هذا البلد العربي على امتداده واختلاف أقطاره من أصل جركسي عاش أهله في بلدة طرابلس الشام، أما هو فقد ولد في دمشق في الثمانينات من القرن الماضي، وقد درس دروسه الابتدائية والثانوية في سورية ثم أكمل دراسته الزراعية في أكبر معهد زراعي في الدولة العثمانية الكبيرة وهو معهد داحلقة لي الشهير، وتشاء الظروف أن تؤسس مدرسة سلمية الزراعية في العام الذي تخرج به الأستاذ وصفي زكريا أو بعد ذلك بمدة يسيرة أي حوالي عام ١٩١٠م وقد عين رأساً في هذه المدرسة معلماً لدرس للعمليات وهو أهم درس من هذه المدارس كما يعلم ذلك دارسوا الزراعة وأنا واحد منه وإنه ليشرفني أن أكون تلميذاً لهذا العالم الكبير في شتى الدراسة الأولى لأن الأستاذ نقل بعد ذلك إلى وزارة الزراعة في العاصمة يومئذ.

كانت للعالم الجليل أحمد وصفي زكريا صلات متينة خاصة بعائلتي لاسيما بعد أن أصبح مديرا لمدرسة سلمية الزراعية اعتباراً من نهاية الحرب

العالمية الأولى، فقد كان صديقاً لوالدي بحكم زمالتهما في الوظيفة، لأن والدي كان قاضي البلدة وكثيراً ما كان يدعى في الفحوص المدرسية لهذه المدرسة مميزا من دروس القوانين وقد تخرج من المدرسة ذاتها وهو معلم لها ومدير أربعة من أبناء عمي ثلاثة منهم حصلوا على شهادة الزراعة كما تخرج منها أخواي وهما أكبر مني وانتهت السلسلة بأن انتسبت أنا أيضاً للمدرسة ذاتها وقضيت تحت إشراف عالمنا الجليل سنة بكاملها هي سنة ١٩٢٣ . ١٩٢٤ م عاش عالمنا الجليل سنوات عدة في سلمية، وقطن في دار قريبة من الحي الذي نقطنه فكنت أراه وأعرفه قبل أن انتسب للمدرسة كان رحمه الله أسمر الوجه، بائن الطول تلوح علائم القوة على يديه وأطرافه جميعاً وبخاصة مشيته التي كانت تشبه مشية القواد الكبار في جبهة القتال وكان يحمل على عينيه نظارة تعينه على القراءة، وكان ملماً باللغة الفرنسية ومتقناً للغتين التركية والعربية بل كان يعتبر أديباً في هاتين اللغتين:

كنت له تلميذاً وصديقاً صغيراً لأني كنت رفيقاً وصديقاً لشقيق عائلته وخال أولاده المرحوم مصباح سمينة الذي رافقته سنوات الدراسة الابتدائية في سلمية وكنا نتنافس على الدرجة والعلامات، لقد كان صديقاً متين الأخلاق نبيل الصفات وأذكر أن افترقنا مدة من الزمن بعد أن تركنا مدرسة الزراعة الذي رافقني فيها أيضا، وعاد إلى سلمية بعمل له وقد أنزلته ضيفاً عندي ليلة أو ليلتين لا أذكر، وقد شعرت يومها أنه مريض، وهو المرض الذي قضى عليه فيما بعد، ومن مفارقات القدر أنني اليوم وفي دمشق أصبحت صديقاً لولده الوحيد الذي تخرج من مدارس ايرلنده كلما رأيته والتقينا عرجنا على ذكر مصباح وأخيه سعد الله وأخيه الأكبر سامح الذي توفي منذ زمن بعيد لا أذكره.

كان وصفي بك، كما كان يسمى عند الجميع يخرج كل صباح ممتطياً حصانه الأزرق، أو الأشهب، فيمر بسوق البلدة والناس ينظرون إليه نظرة احترام

حتى إذا وصل إلى المدرسة التي تبعد عن البلدة مسافة كيلو مترين أو ثلاثة، استقبله سائس الحصان فإذا دخل البناء أحسست بالسكوت والصمت لأن هيبة المدير كانت طاغية على كل شيء، والمدرسة يومئذ تعتبر قرية كاملة، فقد كان فيها عشرات المعلمين الأساتذة وعشرات الموظفين الإداريين ومن ٦٠ . ٧٠ تلميذاً أكثرهم من الليليين وحوالي مائة عامل وفلاح وأجير وطباخ وخادم، وكان إذا نظر في واحد من هؤلاء على اختلاف صفاتهم وقف احتراماً وسكت لا ينطق حتى يتحدث المدير.

ولقد تعرض هذا العالم الجليل إلى أحداث أثرت فيه وتركت على وجهه أثراً من الحزن العميق، فقد لقي شيئاً من نكران الجميل ممن كان يحسن إليهم عن طريق الدرس أو الوظيفة، وقد ولد له صبي واحد لم يعش إلا مدة قصيرة توفي بعدها فأحزنه موته حزناً شديداً. ووقع عن حصانه مرة وقد عثرته الجواد فكسرت رجله ولقي من ذلك عناء كبيراً في تلك الأيام التي كان الطب فيها بدائياً وبخاصة طب العظام.

ولكن أشد ما ساءه في حياته كما اعتقد تلك الخلافات الخفيفة التي لم يفطن إليها بين الأساتذة، فقد اختلف الأساتذة الحمويون مع الأساتذة الدمشقيين، واستمر الخلاف بينهم وحار كيف يحل هذا الخلاف، وكانت النتيجة أن اتفق الطرفان عليه فكان ذلك سبباً لنقله بحيلة ماكرة افتعلتها دائرة الزراعة يومئذ، فنقل مفتشاً لأملاك الدولة في عهد الانتداب، وفي هذه المدة اخذ ينشر مؤلفاته، غير الزراعية، من قبل كتابه الشهير من عشائر الشام، والمفكرة الزراعية، وبعض الكتب الأخرى التي لا أذكرها، أما في الزراعة فقد ألف كتابين في البستنة الخضرية والبستنة الشجرية وأظن أنهما لم يطبعا حتى الآن إذا كان قد بقيا عند ذويه وهما مخطوطان. كان وصفي زكريا رحمه الله زراعياً بدمه وتفكيره وكان درسه أعجوبة في حسن الإلقاء وتوضيح العبارة، أما معلوماته فقد امتزج فيها

النظري والعملي، فكان بعد أن يقرأ ما يقرأ من اللغات التركية والفرنسية والعربية يذهب إلى المشتغلين في البستنة من الفلاحين الذين عاشوا حياتهم مع الشتول والغراس، وكثيراً ما كنت أشاهده من داخل البستان الشرقي أحد بساتين المدرسة وقد جلس على التراب وأمامه البستاني أبو حسن يسأله ويجيبه ويتحدث إليه ويناقشه وكأنه يناقش عالماً أجنبياً، وكثيراً ما يخرج مفكرته من جيبه ليدون بعض الملاحظات الهامة التي استقاها من أبي حسن الذي ذكرته آنفاً.

كان رحمه الله لا ينسى أن يذكرني واحداً من تلامذته فكان يزورني حين كنت رئيساً لديوان محافظة دمشق، فيجلس عندي فترة من الزمن يسألني فيها عن أهلي الذين عرفهم جميعاً وبخاصة أخي الأكبر الذي كان يذكره بكل خير، وقد زرته مرة في داره . في حي الطلياني بدمشق . وقد وكان يكتب موضوعاً لا أذكره أحب أن يطلعني عليه.

ولم تمض مدة يسيرة حتى سمعت بنبأ وفاته رحمه الله رحمة واسعة فقد كان من أكبر الرجال العاملين على تثقيف هذا الجيل بعلم الزراعة الذي هو أشد العلوم ارتباطاً بحياتنا ومصيرنا.

حضرة صاحب الدولة
حسني بك البرازي الأفخم

تحيات واحترامات وافرة

علاوة على مراجعتي لدولتكم ثلاث مرات لفداحة الخطب الذي لحقنى واقض مضجعي اضطررت لمراجعتكم الآن بكتابي هذا فأرجو أن ترمقوه بنظركم الكريم

مولاي ها قد مضى شهر ونصف على إلغائكم وظيفتي في الميرة لوحدي دون غيري من أبناء البلاد بين موظفيها الأغراب المختلفي الجنسيات والمشغوليات، لا لعدم ضرورة الوظيفة الفنية التي كنت أشغلها وقد كانت على العكس ضرورية جداً لتأمين البذار الكافي للبلاد، ولم يكن قولهم عن وجود الثوب الفضفاض في الميرة بمقنع لأحد تجاه قطع رزقي هذا لوحدي بين أولئك الموظفين الكثيري العدد، وتركي هكذا دون عمل ومورد مع عائلتي المؤلفة من ثمانية أشخاص، وقد قيل (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق) لأنه كان في مقدوركم وقتئذ أن تحولوني إلى وظيفة، إدارية كمفتش إقليمي أو رئيس شعبة أو نحو ذلك مما أستطيع القيام به أحسن من الموجودين حالياً.. وقد انتظرت التشكيلات والترتيبات التي وعدتم بإجرائها في الميرة فلم أجد خبرا ولا أثرا وعلي الصبر فإذ بي تجاهكم يا صاحب الدولة، وأي نقص لمستموه في مقدرتي وسيرتي وهل هذا ما كنت أنتظره وأرجوه من عطفكم بينما تعرفونني حق المعرفة منذ عهد الدراسة، وتعرفون خدماتي الوفيرة للعلم والتعليم والتأليف ولاسيما للزراعة التي تهمكم وتشهدون بانصرافي لهذه الأمور دون غيرها بكل نزاهة وإخلاص.

أيجوز بعد هذه الخدمات، وبعد هذا الاستعداد سناً وفكراً وخلقاً أن

(أتقاعـد) وألقـى فـي زوايـا البطالـة والإهمـال وتحـرم الـبلاد مـن خـدمتي وإفـادتي، وأتضـور مـع عـائلتي الـوفيرة فـي هـذه الأوقـات العصـيبة وأقاسـي وإياها غصص القعدة وآلام الفاقة؟

أيجـوز أن تبقـى (مديريـة الزراعـة) المحتاجـة لمثلـي شـاغرة منـذ سـنة ونصـف وقـد راجعـتكم بشـأنها وطلبـت مـن دولـتكم كمـا سـبق أن راجعـت وطلبتهـا مـراراً مـن فخامـة الـرئيس الأول ومعـالي وزيـر الاقتصـاد بـالنظر إلـى أنهـا حقـي لا يضـارعني أحـد مـن حيـث القـدم والخبـرة ووفـرة التعـب فـي سـبيلها وسـبيل إدارة معاهـدها فـي مختلـف الأقطـار العربيـة وتخـريج منتسـبيها ونشـر مؤلفاتهـا، ورغـم ذلـك لـم أجـد تلبيـة لسـوء حظـي الـذي جعلنـي مقصـوص الجنـاح وربمـا لسـوء حـظ الزراعـة نفسـها الـذي جعلهـا هنـا مهملـة بينمـا كـل بلاد العالم مهتمة بها أشد الاهتمام.

يـا صـاحب الدولـة، هـا أنـا أعيـد رجـائي إلـيكم بشـأن إزالـة هـذا الغـدر الذي لحقني وحدي في مصلحة الميرة واسترحم من مروءتكم وعطفكم:

١ . أن تعيـدوني بـادئ بـدء إلـى عمـل مناسـب فـي مصـلحة الميـرة يتكافـأ مـع الوضـع الـذي كنـت فيـه لأسـد رمـق مـن أعـولهم واضـع لهـم شـيئا علـى النـار، خاصــة والمـدير العـام لهـذه المصـلحة المسـيو فـالوي يعرفنـي حـق المعرفـة ويسـره أن أكـون مـن معاونيـه، وعـرض ذلـك إلـيكم كمـا سـمعت وهـو فـي انتظار موافقتكم على عرض هذا.

٢ . أن تهيـؤوا لـي سـبيل الوصـول إلـى (مديريـة الزراعـة) الشـاغرة والمحتاجـة لمـن يملؤهـا، هـذا إذا أردتـم خيـر الـبلاد ورجحـتم الصـالح العـام وهـو مـا تريدونـه وترجحونـه طبعـاً. واعتقـد أن وجـدانكم أول مـن يشـهد بصـحة مـا أدعيه من الاستحقاق والجدارة لهذه المديرية وبعدالة ما أطلبه.

فاكسبوا . أطـال الله بقـاءكم . ثنـائي ودعـائي ودعـاء الأنفس العديـدة

التـــي أعولهـــا واجبـــروا خـــاطري الكســـير، لازلـــتم مـــوفقين لصـــالح الأعمـــال سيدي.

٦ تشرين الأول ٩٤٢

العزيز الأستاذ
نصر الدين البحرة المحترم

تحية وسلاماً وبعد،

قرأت ما كتبته عن والدي الراحل المهندس الزراعي وصفي زكريا في "البعث" الغراء خلال أحد أيام الأسبوع الأول من شهر أيلول الماضي.

أكبرت جهدك ودعوتك وزارة الثقافة أو نقابة المهندسين الزراعيين أو اتحاد الكتاب العرب إلى إحياء ذكراه، وهو الأمر الذي سأسعى إليه مع وزير الإعلام ووزيرة الثقافة وغيرهما من المسؤولين عله يتحقق.

أشكرك من أعماقي متمنياً لك الصحة والعمر الطويل.

لندن في ١٩٩٥/١٠/١

غسان زكريا

حضرة الأخ الشيخ

حسين يحيى الدمشقي

الرجاء أن تطلعوا الأخ العزيز وصفي بيك على تواريخ اليمن الثمينة مثل روح الروح وتاريخ الكبسي وتاريخ سيدي يحيى الحسين القاسم ودرر نحور الحور العين وبغية المريد ونحو ذلك وكذلك المصحف الشريف العثماني الكوفي وعرفوه المخطوطات القديمة حتى إذا أحب نقل أي كتاب من ذلك نتراجع في نقله واعرضوا عليه ما ترونه من كتب الأدب وأشعار العمانيين ومؤلفاتهم في فن الأدب وسنكون لكم من الشاكرين.

مدير الإرشاد الزراعي

نكلفكم بإعداد قائمة عن الطيور الموجودة في المتحف الزراعي وإعطاء صورة عنها للسيد وصفي زكريا على أن تكون القائمة شاملة لكل الموجودات المشار إليها في المتحف.

في حال توفر قائمة إضافية بأسماء طيور أخرى في الإقليم نرى أن تعد له وتسلم تمهيداً للكتاب الذي يعد عن هذا الموضوع.

وزير الزراعة

صورة طبق الأصل إلى:

. السيد رئيس قسم المتاحف للاطلاع ومتابعة الموضوع.

. السيد رئيس قسم التصوير لإعداد الصور اللازمة.

. السيد نزار قطيفاني لإعداد اللازم فوراً.

. السيد رئيس قسم المعارض والمهرجانات.

مدير الإرشاد الزراعي

عثمان السباعي

حضرة الأخ العزيز الأستاذ
وصفي زكريا الأكرم

تلقيت رسالتكم بسرور بالغ بعد انقطاع أخباركم عنا مدة طويلة. ولكن ما يبهج النفس أن نسمع أنكم بخير وأنكم قد عزمتم على مواصلة التأليف وخدمة الثقافة العربية بالكتابة عن بلد عربي عريق، عن اليمن، غير أن الكتب التي ألفت عن اليمن خاصة نادرة باللغة الإنكليزية، وأكثر ما يكتب عن هذا البلد يوجد في كتب تؤلف عن شبه الجزيرة العربية أو عن الشرق الأوسط كما أن في الموسوعة البريطانية مقال ذيل ببعض المراجع وقد أرفقت قائمة بها طياً. أما الحصول على هذه الكتب فأمر صعب جداً نظراً لأن طبعاتها قديمة وقد نفذت ومن الممكن استعارتها من المكتبات العامة في دمشق أو في بيروت وأعتقد أن المجلس الثقافي البريطاني في بيروت قد يفيدكم في هذا الشأن فنأمل لكم التوفيق في هذا العمل القيم وأن نسمع عن أخباركم السارة دوماً والسلام.

لندن ١٩٦٣/١/٢٩

السفير

عبد الرحمن العظم

إلى السيد وصفي زكريا
بطريق مديرية الإرشاد الزراعي

إشارة إلى كتابكم المؤرخ ١٩٦١/٨/٦ المتضمن إعداد نشرة عن الحيوانات لعرضها في المتحف الزراعي للدائم.

نفيدكم أننا على استعداد لدراسة مشروعكم إذا كان جاهزاً وفي حال ملاءمته بالإمكان التعاقد معكم دون أي ارتباط مسبق منذ الآن وختاماً تفضلوا بقبول فائق تحياتنا.

وزير الزراعة

إلى السيد الأستاذ وصفي زكريا
مدير الإرشاد الزراعي

مع الموافقة على دراسة نموذج الكتاب المعد من قبل الأستاذ وصفي زكريا وإعلامنا عن نتائج مطالعتكم.

إلى معالي وزير الزراعة
أكرم بك الحوراني المحترم

تحية واحترام وبعد

مازلت في بيروت أواظب على حضور جلساته حلقة الدراسات الاجتماعية الصحية والثقافية والريفية والخلقية.. الخ للدول العربية التي هيأتها منظمة الأمم المتحدة بصفتي عضواً في الوفد السوري، وقد بقي لنا لإتمام الجلسات والأعمال والحفلات ٧ . ٨ أيام أعود بعدها إلى عملي الرسمي في دمشق.

والآن جئت أعلم معاليكم في هذه الرسالة الخاصة أنه بمناسبة انعقاد حلقة الدراسات الاجتماعية المذكورة قررت منظمة الأمم المتحدة منح نفقات خمس عشرة شخصا من الدول العربية يذهبون كبعثة إلى البلاد الخارجية لمدة قصيرة موقتة (بضعة أشهر) يبحثون بشؤون الإنعاش الزراعي ومنظماته الموجودة هناك، وسيصيب سورية من ذلك ٢ . ٣ أشخاص وكتبت بذلك إلى وزارة الخارجية السورية تستعجلها انتخاب الشخصين المرشحين وإرسال أسمائهم ليلحقوا المدة الباقية من موازنة ١٩٤٩ وقد اشترطت المنظمة بحق الذاهبين ما يلي:

١ . أن يكونوا من كبار الموظفين.

٢ . أن يكونوا من الضليعين باختصاصهم (طب، زراعة، تعليم،.. الخ)

٣ . أن يكونوا عارفين بلغة البلاد التي سيذهبون إليها.

٤ . أن يخدموا بلادهم بعد رجوعهم في الشؤون التي درسوها.

ولما كنت أنا حائزاً على الشروط المذكورة أعلاه إلى أقصى حد، وأرغب الذهاب إلى فرنسا وبلجيكا لدراسة شؤون الإصلاح الزراعي والإنعاش الاجتماعي وجمعيات التعاون وأمثالها الموجودة بكثرة وإتقان في الأوساط الزراعية والريفية من

تلك البلاد لنقتبس منها ما يصح اقتباسه وتنفيذه في أوساطنا السورية.

ولما كان هذا القرار سوف تتقدم به وزارة الخارجية السورية إلى مقامكم وغيره من بقية الوزارات بطلب ترشيح الأشخاص التي ترى كل وزارة ترشيحهم لكي ترسل أسماءهم إلى مدير حلقة الدراسات الاجتماعية لمنظمة الأمم المتحدة في بيروت، وهو ينتخب بعد من هؤلاء الشخصين والثلاثة الذين يراهم هو أنسب في نظره.

وحيث إنها بمناسبة حضوري جلسات هذه الحلقة أخيراً واتصالي بالقائمين عليها واشتراكي بموضوعاتها ولجانها أحطت علماً إجماليا بها وبمصادرها وعينت حاجات البلاد السورية لها، ونفسي لا يجب كتابته ونشره من التطوير والمؤلفات العائدة لذلك بالإضافة إلى مؤلفاتي الزراعية والأثرية والاجتماعية التي ربما أطلعتم معاليكم عليها، لهذه الأسباب جئت أرجو تركي لهذه المهمة باسم وزارة الزراعة التي سعدت بوجودكم والأخذ بناصري فيها، لازلتم منهلاً لكل مأثرة ومحمدة سيدي.

بتاريخ ٣٠ كانون الأول ١٩٤٨ اجتمعت لجنة تقدير . تعادل الشهادات المنصوص عليها في المادة ٣١ من المرسوم التشريعي رقم ٨٣ تاريخ ١٩٤٧/٦/٣٠ ودرست الشهادة التي يحملها السيد وصفي زكريا خريج المعهد الزراعي العالي في حلقة لي (استنبول) فقررت بأنها من شهادات التعليم العالي ذات الاختصاص المنصوص عليها في المادة ٢٣ من المرسوم المشار إليه التي تخوله اشغال وظائف الحلقة الأولى وللبيان حررت.

مدير البيطرة مدير الحراج مدير الزراعة المدير العام للشؤون الزراعية

إلى السيد غسان وصفي زكريا

ممثل ورثة المرحوم والده

دمشق مجلة الحسناء ٢٣ شارع الفردوس

لقد تأثرت كثيراً عندما تلوت كتاب المرحوم والدكم الأستاذ أحمد وصفي زكريا المؤرخ في ١٩٦٢/٦/١٠ والموجه إلى المديرية العامة للآثار والمتاحف، يعرض فيه خدمته من أجل متابعة البحث والتحقيق في مجرى قناة قديمة لنهر بردى. وتألمت كثيراً لأن أحدا من المسؤولين لم يلتفت إلى مساعدته للكشف عن هذا الأمر الخطير. ولا يسعني الآن إلا أن أفصح عن تقديري واعتباري لجهوده في ميدان البحث الأثري، سائلاً الله تعالى أن يتغمده برحمته ورضوانه.

وإني بهذه المناسبة أعدكم أن تستكمل المديرية العامة للآثار والمتاحف هذه الدراسة، وأن تحتفظ للمرحوم بحق السبق في هذه الأبحاث.

أشكركم شخصياً على تقديم نواة البحث وأرجو لكم التوفيق.

المدير العام للآثار والمتاحف

محمد أبو الفرج العش

كلمة تقدير وشكر

أما وقد من الله عز وجل بخروجي سالماً ومعافي من مستشفى دمشق (المجتهد) بعد عملية جراحية هامة أجريت لي رأيت من واجبي أن أسجل وأن أشيد بما رأيته ولمسته في هذا المستشفى الكبير الذي يفتخر به في الإقليم السوري من حسن البناء والنظام والنظافة والعناية بمداواة المرضى ومداراتهم وهي أمور يعود الفضل فيها إلى وزارة الصحة التي يتولاها الدكتور شوكة القوتي الذي يعني بهذا المستشفى وغيره كل العناية وإلى مديره الحالي الدكتور أمين سعادة وإني أتوجه بالشكر الجزيل لهما وخاصة للجراح الدكتور البير عجم الذي أجري لي تلك العملية بغاية الدقة والبراعة ولزميليه الطبيبين نور الدين أتاسي وسليم الحجار والممرض السيد فضل الله أبو فخره إلى إحدى ملائكة الرحمة الموجودات هناك وهي الراهبة المحترمة الأخت بلانش وأعوانها الممرضات اللواتي شملتني بسهرهن وعطفهن والأصدقاء الأفاضل الذين واسوني باستفسارهم هاتفيا أو زيارتهم شخصيا فللجميع تقديري الوافر وثنائي العاطر. دعائي لهم بالصحة التي هي أعز ما في الحياة.

سيادة مدير
الآثار والمتاحف العام

في شمالي بلدة دوما جبل يشرف عليها وهو يمتد من الغرب إلى الشرق ويحسب من اعضاد سلسلة ستير وفي لحف هذا الجبل يجري نهر صناعي يدعى (نهر المر . نهر المرأة) منقور في الصخر، بعرض ثلاثة أمتار، ممهد القاع نظيف كالإسمنت ذو هندسة وتخطيط يثيران العجب. وقد بنوا له في الواديين الهابطين من أعالي الجبل المذكور جسرين كبيرين، الغربي منهما ذو ثلاث قناطر والشرقي ذو خمس قناطر مبنية كلها بأحجار مكعبة ضخمة بإتقان وإحكام جيدين.

وهذا النهر (نهر المرا) يمتد في لحف الجبل المذكور كيلو مترات عديدة من غربي بلدة دوما وشرقي قرية حرستا ويسير في لحف الجبل المذكور نحو الشرق إلى شمالي أراضي الدوير فأراضي القصير فأراضي عدره. وبعد أن يخترق عقبة الثنايا يسير نحو شمالي خربة المعيصرة فخربة الرمادي إلى أن ينتهي في شمالي قرية الضمير ليعطيها ماء الشرب وماء الري معاً.

وهذا النهر من أجل الآثار حول دمشق وجدير بأن تلتفت إليه الأنظار ويدرس دراسة فنية كاملة كافية حتى إذا كان إحياؤه ممكنا وجب التوسل إلى ذلك. والشائع عند الطاعنين في السن من أهالي قريتي الضمير ودوما الذين سألتهم والمذكور أيضاً في تاريخ اسمة (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي المتوفى في منتصف القرن السابع الهجري، إن هذا النهر تتمة نهر يزيد أحد فروع بردى الذي يروي قرية حرستا وينتهي فيها. فهل لهذه الشائعة صحة؟ وهل يمكن لمياه نهر يزيد أن تركب نهر المرا الذي على ما يراه الرائون هو أعلى من نهر يزيد.

لقد شغل هذا النهر فكري منذ أكثر من ثلاثين سنة كي أعرف أوله وآخره

وكيفية اتصاله بنهر يزيد وقد زرته عدة مرات ومشيت في مجراه، دارساً منقباً، وأخذت معي في إحدى المرات مهندساً من مصلحة الري وفي مرة تالية مهندسا من مصلحة المشاريع الكبرى، إلا أن انشغال المذكورين بأعمالهما الأساسية حال دون إنجاز هذه الدراسة حتى الآن.

وهناك في وادي بردى وعلى ضفته اليسرى قناة منقورة في الصخر نقرا عجيباً تمتد عشرات الكيلومترات تظهر للعيان تارة وتختفي أخرى فوق قرى سوق وادي بردى وبسيمة والاشرفية والجديدة والهامة ودمر.

وقد كنت أظن أن ماء هذه القناة هو الذي يذهب إلى نهر المرا المبحوث عنه آنفاً، لولا أن هذا الظن لم يتحقق بعد بسبب عدم معرفة أحد أو رؤية أحد منتهى هذه القناة بعد دمر. لاسيما ومعمل الإسمنت أخذ منذ عدة سنوات يقضم الجبل الذي كانت تلك القناة فيه، وآخر زيارة لي لهذا المعمل، كانت في شهر نيسان الماضي، ولعل بقية تلك القناة قد زالت حتى الآن، على حين أنها أثرية، كان يجب أن تسجل في دائرتكم وتصان من العبث.

ولما كانت قضية كل من نهر المرا وقناة وادي بردى مهمة من الوجهة التاريخية والأثرية، ويكون تركها بدون دراسة وحراسة لا يجوز، ولما كنت قد قمت بقسم من هذا العمل العلمي والوطني وبقي أكثره وهذا يحتاج إلى معونة إدارتكم الموقرة خطر لي أن أقترح على سيادتكم . إن شئتم . التعاقد مع إدارتكم على القيام بهذه الدراسة لمدة شهر على أن يعاونني خلال ثلاثة أو أربعة أيام فقط مهندس طبغراف قدير ليقيس تفاضل الارتفاع بين آخر نهر يزيد في قرية حرستا وأول نهر المرأة في أول أراضي دوما من النقاط التي أعينها له. حتى إذا ظهر أن نهر يزيد أعلى من نهر المرا انحل المشكل وثبت قول المؤرخين والقائلين بأن نهر المرا هو من نهر يزيد. وإن لم يظهر ذلك اتجهت أنظارنا إلى قناة وادي بردى. وعلى أن يعاونني أيضاً خلال هذه المدة الوجيزة مصور فوطبغرافي ليأخذ بعض المناظر

الجديرة بالتصوير.

ثانيا أن تأمروا بتسجيل قناة وادي بردى وصيانتها من عبث معمل الإسمنت إذا لم يكن قد محى آثارها بتاتا حتى الآن . ومن عبث الأهلين في قرى وادي بردى وتفهيم ذلك إلى المخاتير والهيئة الاختيارية في كل قرية.

ثالثاً: تخصيص سيارة جيب لمدة اثني عشر يوما في فترات متقطعة تأخذني إلى الأماكن المحتاجة للدرس وتعقيب المجرى في كل وادي بردى وفي مجرى نهر المرا حتى الضمير.

فإن راق لسيادتكم هذا الاقتراح، سأقدم في ختامه تقريراً مفصلا عنه، بلغتموني جوابكم، ودمتم.

المهندس الزراعي

أحمد وصفي زكريا

دمشق في ١٩٦٢/٦/١٠

صعد إلى القمة

عالم.. من مفاخرنا

في بلادنا عالم.. لفظت هذه الجملة عفواً لم أتعمدها لأنه لم يكن لدي أحد ولم يكن في الغرفة سواي، وانتبهت وأنا أحدث نفسي معجباً بهذا العالم المستخفي لا بل هذا العالم الذي أخفته ظروفه وظروفنا عنا وما عرفنا عنه إلا القليل.

انتبهت إلى نفسي وأنا أتحدث عن وصفي زكريا العالم الدائب الذي ما كل ولا ونى عاملاً مجداً نشيطاً قرابة ثلث قرن وربما كاد أكثر من ذلك يدرس ويسافر ويطلع ويتحدث ويستفيد ثم يجمع ذلك في كتاب خالد يفيد به ولا يستفيد.

عرفته منذ زمن طويل عاملاً دؤوماً عجيب النشاط ورافقته في رحلة إلى قمة جبل حرمون وراقبته كيف يتتبع ويدرس ويقارن ويطلع واستفدت منه الكثير الكثير، وأقسم لو كان وصف زكريا في بلاد غير هذه تقدر العلماء العاملين لدوى اسمه أوطان الآخرين قبل أن تدوى باسمه آفاق وطنه، ومع أن وصفي زكريا مقابل بالعقوق فإن لم ييأس وقد قرأت له أكثر كتبه إلا ما فاتني أثناء تغييبي هذه المدة الطويلة عن دمشق فلم أجده إلا ثابتاً متقدماً يحاول أن يتفوق في كل كتاب عن الذي سبقه وآخر ما قرأت له منذ أسبوع عن الريف السوري تحدث به عن محافظة دمشق فوصفها وصفاً طبوغرافياً دقيقاً وتتطرق إلى تاريخها وبحث آثارها وعمرانها وزراعتها، ثم وصف مجتمعاتها وصفاً دقيقاً وتحدث في مقدمة الكتاب عن الباعث له على هذا التأليف وأسف كثيراً إن لم يتطرق إلى هذا الموضوع حتى الآن سواه منذ قرون، ونحن نقره على كل ما قال إذ كنا قبل كتابة هذا نلجأ إلى الكتاب الذي أنشئ كدليل باللغة الفرنسية ثم ترجم إلى الإنكليزية ويسمونه: "القائد الأزرق" أما الآن فلم تعد هناك من حاجة إلى مثل هذا الكتاب الغريب قد وجد كتاب ضخم

للعالم وصفي زكريا، حجمه نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير.

ومع أن المصادر التي تلجأ إليها في مثل هذه الأبحاث نادرة جداً فقد تفوق المؤلف تفوقاً يدل على عمق بصره فيما يقرأ ووقته فيما يستقصى.. ويبدو في مقدمته أنه سيقف يائساً عند هذا الكتاب وحده لشدة ما قاسى في تأليفه وما أضاعه من جهد ومال، وهذا ما يؤسفنا أشد الأسف ونحن ندعو إلى تأليف لجان من أبناء المحافظات الواعين ليلتفوا حول هذا العالم الذي يعرف كيف يخدم محافظاتهم ويخلدها بكتب نفيسة كهذا الكتاب ويمدوه بالعون المادي والمعنوي.. ومع إنا ندعو له بطول العمر ليستفيد منه وطنه أكثر ما يمكن، فإنا نخشى إذا فقدناه أن لا نجد له مثيلاً بعد اليوم مد الله بحياته وأمتع هذا الوطن بنفثات قلمه البارع.

المسيحيون في سوريا مارسوا العمل الوطني إلى أعماقه ووالدي من أولئك الشركس الذين حاربوا القياصرة

رداً على "تصحيحات" المحامي كمال أبو لطيف لمقالي المنشور في الملحق الصادر في ٢٢ . ٨ . ١٩٧١ بعنوان "رحلة طويلة منذ أول رئيس فريق للحكومة السورية بعد العثمانيين" أرجو نشر الآتي:

١ . لم أقل أن الفريق عفيف البزري كان "فريقاً" في عهد ما قبل الوحدة، بل قلت بالحرف الواحد: من الصدف الغريبة أن يكون الرئيس السوري حافظ الأسد انتخب رئيساً للجمهورية الخامسة والعشرين يوم الثالث عشر من آذار ١٩٧١ وهو يحمل رتبة فريق جوي في الجيش وهي . وحديثي لا زال عن الرتبة . الرتبة الأعلى في القوات المسلحة، وقد سبقه إليها . سبقه إلى حمل هذه الرتبة كل من: عفيف البزري رئيس أركان الجيش قبيل عصر الوحدة وأثناءها قائداً للجيش الأول.. الخ. لم أقل أن عفيف البزري كان فريقاً قبيل عصر الوحدة بل قلت إن رتبة "الفريق" التي يحملها الرئيس السوري سبقه إلى حملها كل من البزري وفيصل وزهر الدين والأتاسي والصوفي والحافظ فضلاً عن رضا الركابي الذي ترأس حكومة سورية في ٥ تشرين الأول ١٩١٨.

٢ . كذلك لم "أفقط" في حديثي المختصر عن الثورة السورية امتداد لهيبها من "جبال حوران حتى غوطة دمشق وأحيائها الجنوبية والشرقية فقط".

قلت في مقالي: "إن كان التاريخ يسجل على صبحي بركات تشكيله لثلاث وزارات في هذه الفترة، فإنه يسجل للشعب المقاتل في سبيل استقلاله ووحدته، ثورته المسلحة التي وإن لم يكن لها الشمول القومي الواسع فإنها كانت منعطفاً تاريخياً هز فرنسا وأكد لها أن الشعب الذي "انتدبت" نفسها لتحضيره وتمدينه يرفض

حضارتها ومدنيتها الزاحفة إليه في الدبابات.

وقلت كذلك "كانت ردود الفعل الوطنية للثورة المسلحة التي اندلعت في تلال جبل حوران وامتد لهيبها حتى غوطة دمشق وأحيائها الجنوبية والشرقية كبيراً..".

فمن أين جاء الأستاذ أبو لطيف بـ "فقط" أضافها إلى جملتي ليظهرني وكأنني ناكر لبطولات الثوار من بني معروف أولاً ومن غير بني معروف ثانياً، تلك البطولات التي لم يكن أولها معركة "المزرعة" ولا آخرها سلم الأجساد البشرية يصنعه أولئك الصاعدون أعالي أسوار قلعة راشيا..

٣ . لم أقل في مقالي إن الثورة انتهت في ٢٦ نيسان ١٩٢٦. الذي قلته بالحرف: "الأمر الذي دفع المفوض السامي، وقد فشل كل المتعاونين معه في تأليف حكومة، إلى تكليف بيار اليب الفرنسي تشكيل وزارة "استمرت محاولاتها" لسحق الثورة عاماً وبعض عام (٩ شباط ١٩٢٥ . ٢٦ نيسان ١٩٢٦) فلما فشلت جاء المفوض السامي بالداماد أحمد نامي رئيساً للدولة".

فإذا كانت كلمتا "استمرت محاولاتها" لا تعني استمرارية المحاولة، وكلمة "الفشل" لا تعني بالتالي أن محاولة السحق فشلت، فماذا كان علي أن أقول للقارئ كي أفهمه أن محاولة لسحق الثورة جرت فلما فشلت جيء بمن يجد لإطفاء نارها وسيلة وحلاً؟

٤ . أما كون الداماد أحمد النامي كردياً لا شركسياً فهذا أمر لا يساوي الحوار حوله قيمة الوقت الذي يهدر. إن معاصري الداماد من حسني البرازي إلى فارس الخوري إلى نصوحي البخاري إلى شاكر الحنبلي يعرفون أن الداماد أحمد نامي كان شركسياً.

أكثر من ذلك إن والدي المرحوم وصفي زكريا البحاثة والمؤرخ كان صديقاً لأحمد نامي وكلاهما ينتسب إلى عشيرة "الشبصغ" الشركسية التي قاتل فرسانها،

تحت راية الشيخ شامل الزعيم القفقاسي المشهور، استعمار روسيا القيصرية سنين طويلة في القرن التاسع عشر.

وسواء أكان أحمد نامي شركسياً أم كردياً فالأمر سيان.. لقد كان رئيساً لدولة استطاعت في تركيبها الكيميائي العجيب وعبر خمسة آلاف سنة أن تمتص القوميات كلها والأجناس كلها عدا اليهود.

٥ . هل كان من الضروري "جداً" أن أذكر "مسيحية" سليم جنبرت مقروناً بموقف الرفض الذي وقفه من معاهدة "الصداقة والتحالف" لأؤكد "الوحدة الوطنية والإيمان بالعمل الوطني ورفض المسيحيين في سورية للانتداب الفرنسي"؟

من قال إن المسيحيين في سورية في حاجة إلى "براءة ذمة" أو شهادة "حسن سلوك" في العمل الوطني؟ من قال عنهم أنهم "أقل" وطنية من غيرهم أو أكثر "قرباً" للفرنسيين من "الشيخ" تاج الدين الحسين مثلاً أو محمد علي العابد أو أحمد نامي أو جميل الالشي أو عطا الله الأيوبي أو حتى علاء الدين الدروبي الذي قتله ثوار الجولان يوم ٢١ آب ١٩٢٠ لأنه صنيعة فرنسا حتى ذاك الصباح؟

وما رأيك في وطنية فارس الخوري مثلاً غير المقرونة بلقب "مسيحي"؟ أو في ترؤسه للعديد من الوزارات أو لمجلس الأمن أو في عضويته لمحكمة العدل الدولية أو حتى في آيات الذكر الحكيم الذي كان المرتل يتلوها عن روحه بعد وفاته وبوصية منه وبتنفيذ من ابنه سهيل؟

٦ . في تصحيحك تاريخ الجلاء الفرنسي عن سورية وتحديده في ١٧ نيسان ١٩٤٦ بدلاً من ١٧ نيسان ١٩٤٥ الحق معك. والخطأ عندي ليس تاريخياً ولا تاريخياً، لأنني عشت الجلاء عن بلادي وأنا فتى في الخامسة عشرة وسرت في صفوف كشافته أحمل علم النسر رمز فرقتي يومذاك. لكن ما حيلتي يا سيدي في الأيدي التي طبعت مقالي فقلبت حرف الستة إلى خمسة؟

٧ . من فجر ١٤ آب ١٩٤٩ حين أعدم حسني الزعيم ومحسن البرازي حتى

السابعة والربع من صباح ١٤ كانون الأول ١٩٤٩ موعد نشرة أخبار راديو دمشق وإذاعة خبر تعيين هاشم الأتاسي رئيساً مؤقتاً للدولة السورية، بين هذين التاريخين سمي اللواء سامي الحناوي رئيساً للمجلس الحربي الأعلى. فهل كانت السلطات التي منحها "المجلس الحربي الأعلى" للمرحوم الحناوي سلطات رئيس ووزير خارجيتها ناظم القدسي ووزير داخليتها رشدي الكيخيا ووزير عدلها المرحوم سامي كبارة؟

في اعتقادي إن الحناوي لم يمنح صلاحيات رئاسة الدولة حتى يمارسها عملاً بين تشريع وتنفيذ بل ترك هذه الأمور للرئيس الأتاسي واكتفى بدوره في مجلسه الحربي وهو . رحمه الله . معروف عنه البساطة والطيبة، الصفتان اللتان لا تتوافقا دائماً مع العمل السياسي.

أما الفريق زهر الدين "فلرئاسته" حكاية أخرى..

فهو في المؤتمر الصحافي الذي عقده في نادي ضباط حامية دمشق صباح يوم ٢٨ آذار ١٩٦٢ وتلا فيه بيان الانقلابيين عن "حركتهم" قال وبالحرف الواحد: "واليوم وقد تسلم الجيش مهمات السلطتين التشريعية والتنفيذية.." أي أنه لم يقل أنه هو بالذات قد تسلم مهمات السلطتين. فلما نوقشت "القيادة الثورية" في نص البيان "كلفته" يوم ٢ نيسان ١٩٦٢ تسلم زمام الحكم نيابة عنها أي أنه كان وكيلاً ولم يكن أصيلاً.. وبموجب هذا التوكيل أصدر مراسيم حل المجلس النيابي وقبول استقالة رئيس الجمهورية وإقالة وزارة معروف الدواليبي وتكليف الأمناء العامين تسيير أمور الوزارات.. الخ. لكنه بعد "الاتفاق الجنتلمن" السري الذي وقعه مع الرئيس القدسي . هو من خلف مكتبه في وزارة الدفاع والدكتور القدسي من سجنه في مستشفى يوسف العظمة العسكري . ذهب إلى التلفزيون والإذاعة ليعلن للشعب "إن كلمة الجيش العربي السوري أجمعت على أن المصلحة الوطنية العليا تفرض عليه أن يعلن رفض الجيش والشعب لاستقالة رئيس الجمهورية".

أي أن زهر الدين قبل بتوكيل من "القيادة الثورية" استقالة رئيس الدولة ثم أعلن بالتوكيل ذاته رفض الجيش والشعب للاستقالة.

فهل هذا يعني أنه كان رئيساً للدولة طيلة الفترة التي امتدت من ٢٨ آذار إلى مساء ١٣ نيسان ١٩٦٢.

وشيء أخير:

لقد رفع عبد الكريم زهر الدين إلى رتبة لواء في ١ كانون الثاني ١٩٦١ وإلى رتبة فريق في ١ كانون الثاني ١٩٦٣.

وهنا ليسمح لي المحامي أن "أصحح" له بدوري:

كيف يكون "الفريق" زهر الدين "فريقاً" يوم رأس الدولة مدة ١٧ يوماً بين ٢٨ آذار ١٩٦٢ و ١٤ نيسان ١٩٦٢ ومرسوم ترفيعه وقعه رئيس الجمهورية قبيل عشائه المشهور مع قائد جيشه في ١ كانون الثاني ١٩٦٣.

الريف السوري مجهود
جبار يقوم به فرد واحد

يكاد المرء لا يصدق أن هذا المجهود الجبار، قام به فرد واحد، دون أن يتلقى أية مؤازرة رسمية.

إنه مجهود تنوء به لجنة كاملة

إنه مجهود ينطوي على خدمة صحيحة للعلم في البلاد، وعلى عناية صادقة للكشف عن أسرار مبعثرة المعالم هنا وهناك.

"الريف السوري" هو الكتاب الذي ألفه المهندس الزراعي الأستاذ أحمد وصفي زكريا، ووصف فيه الأقضية والقرى العائدة إلى محافظة لواء دمشق، وصفاً تناول فيه النواحي الطبوغرافية والتاريخية، والأثرية، والعمرانية، والاجتماعية والزراعية.

وقد جرى في وضعه على الطريقة الحديثة، فجاء مستوفياً جميع المعلومات التي تهم القارئ المدقق، لم يغفل شاردة ولا واردة.

يحدثك عن قرية، فيرسم لك عنها صورة كاملة الخطوط، ويصف لك أهلها ودورها ومناخها وتربتها، وإمكانياتها الزراعية والصناعية وتاريخها وما تضمه من آثار، ويشير، مفصلاً، إلى النواقص التي تشكو منها، فإذا بك وكأنك من سكان القرية القدماء.

ومعلوماته الوافية الشاملة لم يستقها من الكتب والمؤلفات . ولو اقتصر عليها لاعتورها الضعف . ولكنه عززها بزيارة الأماكن التي ذكرها، والاستقصاء الدقيق فيها.

وميزة الكتاب على أمثاله من الكتب أن الروح الأدبية تسيطر على

عباراته، فليس فيه "الجفاف" الذي يطلع عليك من المؤلفات العلمية، فأنت تطالعه وكأنك تطالع رسائل شيقة عن سفرة أو سياحة.

إن هذا الكتاب يكشف لقارئه دنيا جديدة عن المنطقة التي يتناولها بالدرس ولا يسع القارئ إلا أن يعجب كيف غفل عن هذه الدنيا، وهي على خطوتين منه؟

وتصغي إلى مؤلفه، وهو يشرح لك الطريقة التي اتبعها للحصول على المعلومات الجامعة، فترى تواضع العالم الذي يهمه . قبل كل شيء . ولا يحفل بما يتطلبه ذلك من مساع وتضحيات.

والأستاذ وصفي زكريا . معلم جيل كامل من الذين يعنون بالشؤون الزراعية على الأساليب العصرية، فإن لم يكن اسمه على الشفاه والألسنة، فلأنه أبعد الناس عن إتقان الدعاية الشخصية . وهذه فضيلة كبيرة في هذا العصر الذي أضاعت فيه الدعاية الموازين الخلقية والعلمية ..

وهذا التواضع نفسه هو الذي يحملنا على أن نسأل الحكومة:

أيجوز أن يقوم في الأمة من يؤدي هذه الخدمة، ولا يلقى من الحكومة شيئاً من التشجيع؟ ولا نقول كل التشجيع الذي يستحقه؟

أيجوز أن يظل كتاب نفيس كهذا على رفوف المكاتب، ولا تهتم وزارة الزراعة. على الأقل . بتقدير ما بذل عليه من مساع؟

إن القضاء على المواهب، لا يكون دائماً في زج أصحابها بأعماق السجون . كثيراً ما يكون في الاستهتار بما تنتجه أصحابها من روائع ومن طرائف.

المفكرة الزراعية

كتاب جديد نفيس في عالم الزراعة

المهندس الزراعي الأستاذ أحمد وصفي بك زكريا، من أقدر الرجال الزراعيين الذين درسوا فن الزراعة بمختلف أنواعه وفروعه دراسة حقة في المدارس العالية، ودرسوه سنوات كثيرة. وقد تقلب في عدة وظائف ومناصب زراعية برهن فيها على قدرة كبيرة واضطلاع وافر في الفن الزراعي علماً وعملاً. فقد كان مديراً للمدرسة الزراعية التي أسسها أحمد جمال باشا في زمن الحرب في دير الأطرون الواقع على طريق القدس . يافا ثم عين مديراً لمدرسة سلمية الزراعية في قضاء سلمية من أعمال حماة ثم عين مفتشاً لأملاك الدولة في دمشق وقد أظهر كفاية عظيمة في كل مناصبه وأعماله.

كثيرون هم الذين درسوا الزراعة من شبان العرب في المدارس التركية والغربية ووقفوا على النظريات العلمية وقوفاً كافياً، ولكن الذين لهم خبرة ومران في الأمور العملية كالأستاذ أحمد وصفي زكريا يكادون يكونون مفقودين أضف إلى ذلك ما امتاز به من النشاط والهمة التي لا يتطرف إليها الكل. ونستطيع أن نؤكد أن الأستاذ المشار إليه هو أقدر الزراعيين الأخصائيين في سورية وفلسطين خاصة في تطبيق النظريات على الأعمال. وقد حصل لنا الحظ الحسن بالتخرج على يديه في الفن الزراعي فخبرناه حق الاختبار ونستطيع إذا تكلمنا في هذا الموضوع أن نتكلم عن وثوق وخبرة كافية.

وقد أخرج الأستاذ المشار إليه من جملة مؤلفاته القيمة كتاباً جديداً أسماه "المفكرة الزراعية" هو خير ما أخرج للناس بالعربية في موضوعه.

وقد اشتمل على مباحث شتى في الفنون والصناعات الزراعية كقواعد

الزراعة العامة والبستنة الخضرية والشجرية ونباتاتها، والآلات الزراعية والبنيان الزراعي، والحشرات والأمراض النباتية، والحلابة وتربية الماشية ودود الحرير والنحل والدجاج وأمراض الحيوانات وكل ما يمت إلى الزراعة بنسب أو صلة من بقية الفنون كالجغرافيا الطبيعية والنباتية والزراعية وجئولوجية البلاد السورية، الشمالية والجنوبية، وبعض قواعد الحساب والهندسة الطبيعية، وعلم الظواهر الجوية المعروف (بالميترولوجيا).

ويشتمل الكتاب في آخره على تقويم للأعمال الزراعية التي يجب القيام بها في كل شهر من أشهر السنة الاثني عشر.

وقد راعى المؤلف في كل ذلك ما ينفع العلم به ويستطاع عمله في سورية وبقية البلاد العربية التي امتازت بأقاليم متنوعة لم يحظ بمثلها أي قطر من أقطار العالم.

وجماع القول إن الكتاب في جملته يفي أتم وفاء بحاجة كل موظف فني في الزراعة، وكل صاحب أطيان محترف للزراعة، وكل مزارع متعاط لها مستفيد منها وهو يقع في ٤٥٥ صفحة من القطع المتوسط مطبوعاً بالحرف الدقيق بنظافة وإتقان وحسن ترتيب وتبويب ومزدان بخمسة وسبعين رسماً متقناً عدا الجداول والبيانات الدقيقة بحيث لا يستغني مزارع عنه.

فعسى أن تنظر إدارة الزراعة في حكومة فلسطين إلى هذا الكتاب النفيس بعين الاعتبار وتعمل على تدريسه في المدرسة الزراعية بطولكرم.

الكتاب الذي يجب أن تفرضه الدولة على كل وزير وكل موظف إداري

الريف السوري

خلال عهد الرئاسة الأولى لفخامة السيد شكري القوتلي استقبل فخامته المستشرق البريطاني الشهير جيب في اجتماع شخصي ودي وخلال تبادل الأحاديث سأل جيب فخامة القوتلي: أحقاً إنكم لم تنشروا حتى الآن تاريخ دمشق لابن عساكر، كيف ذلك وأنتم مستقلون وتراثكم الثقافي بين أيديكم، وقد أثارت هذه الملاحظة فخامة القوتلي فاستدعى في الحال المغفور له الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي وكلفه بأن يعمل بدون تأخير لإخراج تاريخ دمشق لابن عساكر مهما كلف الأمر وقد شرع المجمع فعلاً بهذه المهمة وأخرج حتى هذا التاريخ مجلدين ضخمين من أصل ثمانين مجلداً هي تاريخ ابن عساكر.

وتاريخ ابن عساكر في جانبه الأعظم تراجم أشخاص وإيراد أحاديث وأقوال، ولاريب في أنه يتضمن معلومات هامة وواسعة عن منشآت ومرافق في دمشق اندثرت الآن وفيه وثائق تاريخية ضخمة، ولكنه لا يوضح لنا شيئاً عن الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك العصور التي شملها وكتب عنها، ونحن الآن أمام محاولة لتعريف بلادنا، أكثر مما يعرفنا عليها تاريخ ابن عساكر العظيم محاولة عصرية يقوم بها فاضل غيور وبحاثة مدقق هو الأستاذ وصفي زكريا وذلك في الكتاب الذي صدر منه الجزء الأول منذ أسابيع وهو (الريف السوري . محافظة دمشق) ولو كان في البلد تقدير للعلم الصحيح والتأليف القيم لأحدث صدور هذا الكتاب ضجة ولتطوع الكثيرون من الناس لتقريظه والتدليل على

أهميته، ولكن الكتاب صدر ونزل إلى الأسواق ولم يقل عنه أحد شيئاً، وغاص في هذا الفيض من المنشورات التافهة ولقد سلك الأستاذ زكريا طريقاً طقوسها وطرز دورها ونزعات أهلها، كما يشرح متاعبهم ونقائص منطقتهم وحاجياتها وما يجب القيام به لسد هذه الحاجات، ورفع مستوى حياة المنطقة.

ويعني الأستاذ المؤلف بالوصف الطبوغرافي عناية دقيقة فهو يصف المنطقة المبحوث عنها ويصور جبالها ووديانها وتضاريسها وأشكالها الجيولوجية بشكل مشوق والصفحات التي كرسها لجبال سنير وقلمون شيقة وهامة، كما أن وصفه لطريق دمشق . حمص وما فيه من منعطفات ومهابط ومصاعد ولافتات للنظر بديع.

وما كتبه عن القلمون لم يجمع في كتاب من قبل، ومجرد قراءته تعطي أدق الصور الصحيحة عن هذه المنطقة التي كانت في عزلة تاريخية عن العالم حتى أمد قريب رغم قربها من دمشق.

وهناك تفاصيل عن البادية ومواقعها وعشائرها تتضمن معلومات ثمينة للغاية وتفاصيل مماثلة عن قرى نواحي النبك ويبرود والقطيفة ودوما والبادية والنشابية والتل.

إن هذا الكتاب لا يمكن إيفاؤه حقه في عجالة كهذه لا نملك فيها إلا نظرة العابر المسرع وجل ما يمكن أن نقوله إن من واجب الدولة أن تفرض مطالعة هذا الكتاب على كل موظف إداري مهما سما شأنه، وقد دأب بعض الوزراء في عهود شتى على فرض كتب لبعض المحسوبين على الدوائر الإدارية في المحافظات والأقضية وعلى الوجوه والمخاتير وأصحاب المصالح، وهذا عمل مجحف، ولكن كتابا ككتاب الريف السوري يجب أن يفرض فرضاً على كل موظف إداري، ويجب أن يقتنيه كل مواطن يرغب في التعرف على بلاده لأنه فعلاً وحقاً يروي الغليل ويسد الحاجة.

ولن أختم هذه الكلمة قبل أن أنوه بملاحظتين قيمتين لهما دلالة كبيرة وردنا في الكتاب، لقد لاحظ الأستاذ زكريا أنه لا يوجد في سوريا حفاء فليس في كافة قراها من أفقرها وأتعسها إلى أغناها وأسعدها فلاح لا ينتعل حذاء، ولاحظ أيضاً أنه لا يوجد أيضاً فلاح سوري يرتدي أسمالاً بالية وخرقاً مهلهلة، بينما يوجد الحفاة والعراة في بعض العواصم العربية بالآلاف، وهذا وحده أقوى دليل على ارتفاع مستوى الحياة في سورية عنه في غيرها من بلدان الشرق.

وإنني لأختم كلمتي شاعراً بأني لم أوف الكتاب حقه، وأملي أن يقوم غيري بهذه المهمة.

حلقة الشؤون الاجتماعية لهيئة الأمم المتحدة في بيروت

محاضرة رئيس الجامعة السورية ومحاضرة وصفي زكريا عن العشائر البدوية

أسعفني الحظ في زيارتي الأخيرة إلى بيروت أن أحضر الجلسات الأولى لحلقة أو مؤتمر الدراسات الاجتماعية لهيئة الأمم المتحدة بشأن بلدان الشرق الأوسط التي نظمت لبحث مسائل الإنعاش الاجتماعي بصفة خاصة والتوفر على دراسة طائفة من المشاكل الاجتماعية التي تتصل بحياة الريف والحضر والبدو. وكان افتتاح هذه الحلقة في ١٥ آب الجاري في القصر الفخم الحديث الذي بنوه في العام الماضي في منطقة رملية جنوبي مدينة بيروت ودعوه بكلمة مختصرة (الأونيسكو) وقد ضمت هذه الحلقة مندوبين من هيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية وعن الحكومات المصرية والعراقية والسورية واللبنانية والسعودية واليمانية والأردنية، وممثلين للمنظمة العالمية الصحية ومنظمة التغذية والزراعة العالمية ودائرة الإنعاش الاجتماعي في بلدان الشرق الأوسط العربية وجمع غفير من المرافقين لهؤلاء الوفود أساتذة وموظفين وطلاب معاهد عالية رجالاً ونساءً بالإضافة إلى المستمعين والمستمعات، وكلهم من الطبقة المثقفة التي تعنى بمثل هذه الدراسات والبحوث الراقية.

وقد حشدت الحكومات والهيئات والمنظمات المذكورة صفوة من رجالها ذوي المعرفة والاختصاص في هذه الدراسات والبحوث. وكان المصريون كعادتهم سباقين في كثرة من أوفدوه من علمائهم وعالماتهم من مختلف الوزارات والمسالك

وفي كثرة ما جلبوه معهم وعرضوه من الرسائل والنشرات المطبوعة والجداول الإحصائية والألواح والصور الشمسية والأفلام السينمائية والمخططات والرسوم الملونة.. وكلها مما يعدد ويظهر أنواع الخدمات الاجتماعية وأشكالها الجارية في القطر المصري كوقاية الشعب من الأمراض السارية وتعليم النظافة والمداواة الأولية وتسهيل الزواج الصحي بين الأفراد وخدمة الحوامل والمرضعات والأطفال الرضع وتدريب الفلاحين على بعض الصناعات اليدوية التي يمكن إجراؤها خلال فترات الأعمال الزراعية وما إلى ذلك مما غبطناهم وتمنينا وجوده عندنا.

ولحظنا أيضاً أن الوفد السوري لم يمثل في الأيام الأولى سوى بالدكتور قسطنطين زريق رئيس الوفد وحده، وهو بعد أن ألقى محاضرته القيمة التي سنذكرها تغيب، ثم جاء في اليوم الثالث عضوان فقط، هما المهندس الزراعي الأستاذ وصفي زكريا ممثل وزارة الزراعة بصفته اختصاصياً بالشؤون الاجتماعية.

وقد عنيت الحكومة اللبنانية بأمر هذا المؤتمر وحسن افتتاحه كما أنها في اليوم الثالث ١٨ آب دعت جميع الوفود لحفلة شاي في سراي بيت الدين التي بناها الأمير بشير الشهابي، وحضر هذه الحفلة لبنان كله برؤسائه ووزرائه ونوابه ووجهائه رجالاً ونساءً فكان لذهاب الوفود وإيابها ومشاهدتهم جبال لبنان وحراجه وأوديته ومصايفه وأخيراً هذه السراي التاريخية الرائعة في بناءها وزخرفها وقع حسن في نفوسهم.. وحدث بعد مثل هذا الوقع لما دعتهم الحكومة السورية لزيارة دمشق ومتحفها ومسجدها الأموي والأسواق والدور الأثرية ومنظر الغوطة الفيحاء، وخاصة لما أخذتهم إلى حفلة الشاي في فندق بلودان الكبير وأشرفوا على الجبال والمصايف السورية ولمسوا حسن الوفادة والترحاب، ورجعوا يحدثوننا عن ذلك بلسان الإعجاب والامتنان، وقد بلغنا أن الحكومة اللبنانية ستدعوهم ثانية في ٢٧ آب لزيارة بعلبك وثالثة في ٣ و ٤ أيلول لزيارة الأرز في شمال لبنان.

وقد افتتح الحفلة فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية، وحضر فخامته مع

وزرائه وكبراء رجال لبنان وعلمائه وفضلائه، وكان أول المتكلمين معالي السيد فيليب تقلا وزير الاقتصاد والشؤون الاجتماعية فرحب بالوفود القادمة ونوه بأن لبنان مغتبط بأن يحصل تحت سمائه اجتماع مندوبين من شقيقاته العربيات جمعوا إلى خبرتهم الفنية إدراكاً عميقاً لمشاكلنا الاجتماعية الراهنة ومندوبين من الأمم المتحدة عرفوا بأنهم من ألمع الخبراء العالميين في دروس المعضلات الاجتماعية فينكبون على استقصاء هذه المعضلات واستئصالها ورفع مستوى سكان هذه البقعة الشرقية الخ.. وتلاه مدير الحلقة السير رفائيل سيلانتو من هيئة الأمم المتحدة، فشكر رئيس الجمهورية اللبنانية على حضوره وعلى تكرم لبنان بدعوة هذه الحلقة للانعقاد في بيروت وتقديمه التسهيلات اللازمة، واستطرد أن أمين السر العام لهيئة الأمم المتحدة أعلمه بأنه مستعد أن توزع فوراً خمس عشرة منحة قصيرة الأمد بين جميع بلدان الشرق الأوسط لمن توفدهم حكوماتهم ليذهبوا (ويراقبوا بسرعة أية ناحية خاصة من نواحي الإنعاش الاجتماعي يختارونها في أي بلد يقع عليها اختيارهم أيا كانت) وقد طلب الإسراع بتلبية هذه الدعوة.

وألقى بعده العشماري باشا الوزير المصري السابق ورئيس وفد الجامعة العربية كلمة قال فيها أن جامعة الدول العربية إذ تشترك في هذه الحلقة بوصفها المنظمة الإقليمية في هذا الجزء من العام تقدر ما لهذه الدراسات من فائدة محققة في توجيه قوى الدول العربية نحو الإصلاح الاجتماعي المنشود وحفز الهمم للعمل على الارتفاع بمستوى الحياة فيها ووضع أسس ثابتة سليمة للإنعاش الاجتماعي السابق.

وتليت كلمة عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية الذي رجا رجال هذا المؤتمر التوفيق في مهمتهم ولفت نظرهم أن اجتماعهم هذا حدث تاريخي في حياة العرب ودولهم وشعوبهم وأنهم سيشهدون وضع الأسس العملية لتعاون شامل بين العالم والعرب ممثلين في جامعتهم العربية التي أصبحت

الهيئة الإقليمية الثانية في الدنيا والأولى الجامعة الأميركية، تلك الجامعتان اللتان أقرتهما الأمم المتحدة ودخلت معهما في علاقات تعاونية في ميادين الاجتماع والاقتصاد.

ونوه بأن للعرب وخصوصاً في الشؤون الاجتماعية والتاريخية تاريخاً حافلاً وإن الإسلام لما جاء أحل التكامل البشري مكان العصبية القلبية فقال (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) وإن الإسلام انتقل بالمجتمع خطوة كبيرة حين أقر حقوق الطبقات المحرومة فجعلها حقاً على المجتمع والدولة والعادرين لا منحة ولا منحة (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم).. الخ.

وفي ١٦ آب كانت المحاضرة الأولى العامة للدكتور قسطنطين زريق رئيس الوفد السوري وموضوعها (الإدارة العامة للخدمة الاجتماعية، أهمية الإنعاش الاجتماعي في المجتمع والدولة، فكان موفقاً في سرد الموضوع بإيجاز وإصابة. فما علق في الذاكرة من أقواله، إن أول المبادئ الأساسية للإنعاش الاجتماعي هي: ١ . إن الدولة وسيلة لا غاية ٢ . إن الغاية من هذا الإنعاش هي سعادة الشعب الذي يؤلف المجتمع والدولة وتحرره. ٣ . إن الإنعاش الاجتماعي وسيلة لاكتساب التحرر المنشود وهو واجب لأنه يساهم في هذا التحرر ويؤدي إليه. ٤ . إن الإنعاش الاجتماعي يجب أن يبنى على العالم المنظم وعاطفة الخير المتدفقة من المتانة الخلقية والسمو الروحي.. الخ.

ولما كان من الأصول أن يعقب على أقوال المحاضر خطباء آخرون ويناقشونه فقد عقب على الدكتور زريق الدكتور وندل كليلاند (الولايات المتحدة) والأستاذ محي الدين النصولي (لبنان) وغيره.

وفي اليوم ١٩ آب كانت محاضرة أحد أعضاء الوفد السوري المهندس الزراعي وصفي زكريا وموضوعها: (العشائر البدوية والخدمات الاجتماعية) وكان هذا أيضاً موفقاً في شرحه وإلقائه. وقد مهد بادئ بدء بوصف لبادية الشام وموقعها

الجغرافي ووضعها الطبغرافي وإقليمها، وذكر بأن هذه العوامل هي التي جعلت سكان هذه البادية بدواً بأشكال وملامح بدنية وأطوار وأخلاق فطرية خاصة بهم وقد قسمهم إلى عشائر جمالة وغنامة ومستقرة ووصف طرفا من محاسنهم ومساويهم وأعمالهم ونوه بالمرأة البدوية ومتانة أخلاقها وعلو قدرها لدى البدو. وأخيراً خلص المحاضر إلى الخدمات الاجتماعية اللازمة للبدو وهي إقرار الأمن وقطع دابر الغزو والسلب والنهب وسوق العشائر للتحضر والعمل في الفلاحة والزراعة وسكنى القرى، واقطاعهم أراض من أملاك الدولة ومدهم بالقروض والمعونات وفتح مدارس عشائرية خاصة بهم، وإرسال مستوصفات طبية وبيطرية لمكافحة أمراضهم البشرية والحيوانية، وإيجاد ملاجئ لمواشيهم ومستودعات لإعلانهم وإصلاح النظم التي وضعها الفرنسيون لهم وتعديل القضاء البدوي الجاهلي وسوقهم إلى الأحكام الشرعية والنظامية الخ.

وقد عقب على هذه المحاضرة كل من العشماوي باشا والأمير مصطفى الشهابي والأستاذ شاكر العاني (العراق) والدكتور كوتريك أحد أعضاء منظمة الصحة العالمية وسيدة مصرية.

وهكذا تتابعت الأيام في إلقاء المحاضرات والتعقيب عليها ومناقشتها بجو جميل من الهدوء والنظام وحسن التخاطب، والعادة هنا إذا ألقى المحاضر كلمته مكتوبة بالعربية أو الإنكليزية توزع ترجمتها من قبل الهيئة فوراً على الحاضرين فيطلع عليها من لا يعرف اللغة التي تلقى فيها. وإذا ألقاها ارتجالاً وعفو الساعة قام مترجم قدير وهو مصري اسمه الدكتور عباس عمار فترجمها فوراً بالحرف لإحدى اللغتين، وبذلك لا تفوت الحاضرين أية كلمة.. كل ذلك يجري قبل الظهر خلال ٣ . ٤ ساعات، وبعد الظهر إما أن تجتمع لجان التحرير والصياغة للمناقشات والمقررات وإما أن تلقى محاضرات مسائية ويدوم ذلك إلى بعد الغروب.

هذا ما اطلعت عليه من شؤون هذا المؤتمر العالمي الهام رأيت أن أتحف

مواطني السوريين وأرجوا أن يحضر منهم من يحب الاستفادة من هذه البحوث القيمة الطريفة ويسمعها وأن يكون لمحاضرات هذا المؤتمر ومقرراته الفائدة المرجوة للبلدان العربية.

ذروة قاسيون

قرأت في العدد المؤرخ ١٩٦١/١/٣١ من جريدة الأيام الغراء مقالاً للأديب السيد غسان بابيل في وصف ذروة جبل قاسيون ومناظرها الخلابة المطلة على دمشق وغوطتها.

فحمدت ما كتب وقدرته، ولا عجب فكاتبنا الناشئ هذا المرجو له مستقبل في عالم الصحافة هو نجل الأستاذ صاحب . الأيام . عميد الصحافة عندنا. والمثل يقول . فرخ البط عوام . ومع ذلك التقدير خالفته في اقتراحه الذي يطلب فيه أن يكون في تلك الذروة التي وضعوا فيها محطة للتلفزيون . منطقة سياحة واصطياف . للأسباب المانعة التي سأبنيها الآن.

وقبل عشرة أيام كتب السائح العربي مفخرة شباب دمشق السيد عدنان تللو نجل صديقنا السمح المرح السيد حسني تللو كلمة في هذا الموضوع والاقتراح. ونحن نتتبع ما يكتبه السيد عدنان عن البلاد والمشاهد التي يزورها على دراجته النارية. ونقرؤه بكل لذة وتقدير وندعو بأن يوفقه الله في إنهاء رحلاته الطويلة ويعيده إلينا سالماً غانماً.

فقد كتب عن مدينة رآها في فنزويلا يطل عليها جبل شاهق كما يطل جبل قاسيون على دمشق، فيه فنادق ومقاصف ومصعد . تلفريك . وتمنى أن يكون لقاسيون مثيل لها.. الخ.

وقد كنت نشرت في جريدة . الوحدة . الدمشقية بتاريخ ٢٨ تموز سنة ١٩٦٠ مقالة وصفت فيها جبل قاسيون وتاريخه ومناظر ذروته المبحوث عنها المطلة على جهاته الأربع ولاسيما على مدينة دمشق وغوطتها. وبينت رأيي بعد ذلك الوصف المسهب في اقتراح الذين يطلبون تأسيس فنادق ومقاصف في تلك

الذروة. وكان رأيي سلبياً ومخالفاً لذلك الطلب. ولما اطلعت أخيراً على ما درج في . الأيام . خطر لي أن أعيد نشر ما كتبته على صفحاتها تصحيحاً لرأي القائلين بإمكان إنشاء منطقة سياحة واصطياف.

هنالك. واستنهاضاً لهمة الذين يستطيعون أن يدحضوا رأيي ويثبتوا إمكان إنشاء تلك المنطقة لعلني على خطأ وهم على صواب.

ومن احتكاك الآراء تتجلي الحقيقة. والعصمة لله وحده.

قلت وقتئذ بعد شرح طويل: هذا ولطالما فكر بعض ذوي الهمم والرأي بالانتفاع من ذروة قاسيون للاصطياف والتنزه والقصف وذلك بإشادة فندق يحتوي على مقهى ومقصف ووسائل اللهو والانشراح، بعد جلب ماء الفيجة إلى أعلاها وربطها بحي المهاجرين بخط حديدي هوائي . تلفريك . يصعد وينزل وينقل الزوار على غرار ما هو منتشر في سويسرا وأمثالها من البلاد الجبلية.

بالإضافة إلى طريق السيارات التي فتحت حديثاً كما قدمنا ووصفنا، فيرتاد الدمشقيون هذا المكان البهيج بسرعة ويسهرون خاصة في الليالي المقمرة التي تكون هناك رائعة وأي روعة ثم يعودون إلى مساكنهم بسرعة وسهولة.

وقد كنت أنا من هذا الرأي معتقداً بجودة الهواء ونقائه كل الجودة والنقاوة وإذا بي اصطدم في زيارتي الأخيرة لمحطة التلفزيون المنشأة حديثاً بسببين مانعين أو معكرين صفو ما أعتقد لتحقيق هذا الرأي، أضعهما أمام المهتمين بأمر هذه الذروة والقادمين على عمل مشروع وسائل الاصطياف فيها . الأول . هذا الريح الغربي العاتي الذي يهب كل يوم مساء في دمشق وضواحيها طوال أشهر الصيف ـ حزيران وتموز وآب . وربما بدأ بأولى أيامه ولم ينته في أيلول ويزعج الهدوء والراحة في ساعة طلب الراحة. في ذروة قاسيون المكشوفة من كل الجهات الشامخة حيث العلو ١١٥٠ متراً عن سطح البحر و ٤٥٠ متراً عن دمشق. وهذا الريح العاتي يقض المضاجع ويمل المقام. فكيف السبيل إلى إتقانه.

والمانع الثاني: "الدخان والغبار الصدعدان إلى عنان السماء من مداخن معمل الإسمنت في قرية دمر.

وصفي زكريا

الريف السوري

دعوة لإحياء المعالم الغابرة ونشر الفوائد الحاضرة

بقلم الأديب الكبير الأستاذ يوسف الكناني

لا بدع إذا بلغ اهتمام المحققين والمدققين حداً كبيراً في نبش ما انطوى من تاريخ ريفنا السوري، ورسم الصور الصالحة الحية التي تساعد على إنعاش نهضته ورفع مستواه الاجتماعي، كي يغدو في نهضته الحديثة المرتقبة عنصراً طيباً في تقدم الوطن وازدهاره، ذلك لأن الريف هو مصدر الإلهام الصافي والمواهب النقية، ومركز تجمع العرب الخلص الذين انطلقت جموعهم في الحقبة السالفة إلى ارتياد المدن الكبيرة بحثاً عما يؤمن لهم أسباب عيشهم وطمأنينتهم.

إن هذه الكتل من الأبنية الطينية المبعثرة في طول البلاد وعرضها والتي لا تحتوي على أثر للشروط الصحية، وهذه الطرق المتعرجة الملتوية المحدبة المقعرة المشحونة بالحجارة والأتربة، وهذه الأرض القاحلة الجرداء التي تحيطها من كل جانب، وهذه الوجوه المشعثة البائسة التي يستلقي أصحابها هنا وهناك بتأثير الخمول المؤلم، وهذه الروائح غير المستحبة المنبعثة من بين كل ذلك، إن هذه التجمعات المحرومة من كل تنسيق وتنظيم والتي يطلق عليها اسم (الريف السوري) مفتقرة إلى نهضة سريعة شاملة تتناول جميع مرافق الحياة الصحية والعمرانية والثقافية والاجتماعية والزراعية، وحري بالدولة التي تسهر على مصالح الشعب وترعاها، أن تتعهد هذا الريف المحروم بعنايتها الخاصة وأن تحدث دائرة خاصة باسمه في وزارة الاقتصاد أو في وزارة الشؤون الاجتماعية عند إحداثها تنحصر مهمتها بترقية الريف وإحداث الوحدات الاجتماعية الكبرى التي تجدد

حياته وتسير به نحو اعتناق أحدث أساليب التقدم والازدهار.

ويسرنا ويسر كل عاقل في هذه البلاد أن يقوم مواطن فاضل من خيرة المواطنين علماً وثقافة، فيعمل جاهداً على تزويد المكتبة العربية بكتاب قيم عن الريف السوري، ماضيه وحاضره ومستقبله مبتدئاً بأقضية النبك والقطيفة ودوما، وقد تضمن هذا الكتاب بحثاً مستفيضاً عن المعالم الغابرة وعما يراه من الوسائل الناجحة لبعث الريف بعثاً مرتكزاً إلى العلم والمعرفة بعيداً عن تلك التخربات الهدامة التي ألقت العداوة والبغضاء في القرية الواحدة بل وفي الأسرة الواحدة إلى حد التناحر، ولا ريب في أن الوصول إلى هذه النتائج واكتشاف منابع الخير والرفاه يحتاج إلى جهود كبيرة متواصلة وإمكانيات مادية كبيرة ساعد على تنشيطها أنصار العلم ومحبوا الخير للوطن وأهله.

إن المؤلف الأستاذ "أحمد وصفي زكريا" المعروف بأبحاثه الدقيقة التاريخية والزراعية جدير بكل شكر وتقدير على مؤلفه الذي جمع فأوعى ولم يترك في موضوع الريف شاردة ولا واردة إلا أحصاها وقد سد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية وجدير بكل من يهتم بهذه الشؤون الدقيقة أن لا تفوته فرصة الاطلاع على هذا المؤلف القيم.

أول مؤلف عربي من نوعه
يتحدث عن الريف السوري من جميع نواحيه

على الرغم من جمال الريف السوري وصلاحه أن يكون وحياً لأدبائنا وشعرائنا وعلى الرغم من احتوائه على كثير من الآثار والأوابد التي تكشف عن أشياء هامة من تاريخنا القديم، فإن أحداً من الكتاب والأدباء والشعراء والباحثين لم يتصد للبحث في هذا الريف وإظهار ما فيه من بدائع ومن خبايا أثرية وتاريخية، عدا شذارات وردت عنه في بعض الكتب القديمة، ومقالات نشرها كتاب أجانب زاروا بعض قراه وأعجبوا بمشاهدها أو آثارها وسجلوا عنها معلومات سطحية سمعوها من السكان أو طالعوها في بعض الكتب القديمة.

وظل ريفنا مغموراً في بحر الإهمال والنسيان ردحاً طويلاً من الزمن، حتى أتاح الله له في الآونة الأخيرة عالماً جليلاً وبحاثة صبوراً على الجهد والدرس والتنقيب هو الأستاذ أحمد وصفي زكريا فتطوع . بدافع العلم وغريزة البحث . لإيفاء هذا الموضوع الشاق المرهق حقه من الدرس والبحث، فأخرج كتاباً قيماً باسم "الريف السوري" هو أول مؤلف من نوعه في المكتبة العربية، وأعظم كتاب عربي بذل في سبيله جهد علمي صحيح تعجز عنه طاقة المئات من العلماء والباحثين.

إننا لا نقول هذا مبالغة، ولا دعاوة للمؤلف، وإنما نقرر حقيقة واقعة وليتصور القارئ ما يتطلبه وضع كتاب يتضمن وصفاً جغرافياً، تاريخياً، أثرياً، عمرانياً، اجتماعياً، وزراعياً لعشرات القرى، فيضطر إلى زيارة كل قرية بمفردها والقضاء أيام فيها يسأل ويبحث وينقب ويزور كل جبل وكل تل وكل نبع وكل طريق، ولا يترك شاردة ولا واردة تتعلق بها إلا ويدرسها ويتبين حقيقتها بنفسه، ثم يعود إلى الكتب القديمة والحديثة في شتى اللغات فيطالع ما كتب عنها ويقارن بينه

وبين ما عرفه وشاهده ويقارن بين الخطأ والصواب ويستخرج من بين هذا الركام الهائل الحقائق الصحيحة.

إنه . والله . لجهد ما بعده جهد وصبر ما بعده صبر، وجلد علمي ما عرفناه إلا في عدد قليل من رواد البحث والمعرفة في العالم.

لقد صدر الجزء الأول من كتاب الأستاذ زكريا في (٤٤٨) صفحة من القطع المتوسط وبالحرف الصغير . مزداناً بصور مشرقة وخرائط واضحة فكان أول كتاب عربي فيه جهد علمي واضح، وفيه معالجة لموضوع خطير لم يعالج من قبل إلا لماماً.

ونحن حين ننوه في هذه الكلمات ببعض مزايا هذا الكتاب وبقسط وفير من جهد مؤلفه، نتساءل في كثير من الاستغراب: لماذا لم تطبع هذا الكتاب وزارات الداخلية أو المعارف أو الزراعة. لماذا لم ينفق عليه المجمع العلمي أو دار الآثار أو محافظة لواء دمشق على الأقل، وكيف ترك المؤلف يتحمل نفقات طبعه وإصداره ومشقة بيعه، مع أن مؤلفاً من نوعه وأبسط منه لوضع في غير هذا البلد لتولت الحكومة طبع الملايين منه، ولقدمت لمؤلفه المساعدات الطائلة، والهدايا الفاخرة، والأوسمة الرفيعة، ولا حلته المكانة التي استحقها بعلمه وجهده وجلده.

إننا نلفت بهذه الكلمة الأنظار إلى كتاب "الريف السوري" ونذكر الوزارات والمؤسسات ذات العلاقة أجبها نحو المؤلف، ولعلنا نجد منها ما بل من الأذهان الوصمة التي لصق بها إنها لا تقدر العلم ورجاله، ولا تمد المساعدة إلا للمؤلفات التافهة الرخيصة، ولا تشجع إلا المؤلفين الذين يتقنون أساليب النفاق وبذل الوساطات والشفاعات.

تصحيح خطأ فادح في حق قلعة الصبيبة
نصيحة إلى اللجنة التي ستذهب إليها إن صح الخبر

بقلم المهندس الزراعي الأستاذ
البحاثة أحمد وصفي زكريا

قرأت في بعض صحف دمشق الصادرة صباح الجمعة في ٢٢ آب أن بعض المراجع تفكر بإرسال لجنة إلى المدينة التي اسمها (قلعة النمرود) في قضاء القنيطرة لتدرس السبل المؤدية إلى اتخاذ هذه المدينة مصيفاً لأهل القضاء المذكور.

ولما كنت حجة في هذا البحث وقد زرت هذه القلعة ودرستها وكتبت عنها عشر صفحات طويلة في الجزء الثاني من كتابي (الريف السوري) المطبوع سنة ١٩٥٨ بمناسبة كتابتي عن كل شؤون قضاء القنيطرة وقراه وآثاره وسكانه وعشائره. وحيث إنني لحظت في الخبر الذي نشرته صحف دمشق أخطاء تدل على فقدان الصلة بجغرافية بلادنا وتاريخها واندفاعاً من قبل لجنة إذا صح خبر إرسالها سوف تذهب جهودها سدى، لهذه الأسباب جئت بمقالي الوجيز هذا أصحح وأنصح على المنوال الآتي:

أولاً: ليس هناك مدينة كما قالت الصحف، بل قلعة أثرية خراب قلت عنها في الصحيفة ٥٧٠ من كتابي المذكور في جملة ما قلت: قامت هذه القلعة فوق صهوة جبل شاهق ذي منحدرات عمودية صعبة يطل على قرية بانياس الحولة من شرقيها من علو حوالي ٣٠٠ متر ويستند على الأعضاد الأولى لجبل الشيخ. وهي قلعة عظيمة هائلة المبنى رائعة المنظر جميلة التخطيط والهندسة جديرة بأن يزورها

كل مثقف في البلاد السورية، لأنها من أضخم القلاع الحربية وأبدعها في هذه البلاد لا تقل في هذه الأوصاف عن القلاع التي في محافظة اللاذقية خاصة كحصن الأكراد والمرقب وصهيون وبرزويه وغيرها التي اشترك في بناء كل منها المسلمون والإفرنج خلال الحروب الصليبية في القرنين السادس والسابع الهجريين. وتاريخ قلعة الصبيبة مشترك مع تاريخ بلدة بانياس الحولة. لأن المسلمين بنوها للدفاع عن هذه البلدة تجاه أعدائهم الصليبيين المرتقب زحفهم من أنحاء فلسطين إلى أنحاء دمشق. فهي إذن ذات موقع استراتيجي هام يشرف على عدة طرق عامة، وأكثر تصاميمها وتحصيناتها ومبانيها والكتابات العربية الماثلة حتى الآن على بعض أحجارها تشهد بأن هذه القلعة عربية، ولو أن الصليبيين كانوا استولوا عليها في غفلة من الزمن وبقوا فيه مدة وبنوا فيها بعض المباني ثم داهمهم البطل المجاهد الملك العادل نور الدين محمود زنكي وحاصرهم وطردهم منها.

ثانياً: إن نسبة هذه القلعة إلى النمرود خطأ فادح. فلا النمرود، يعرفه ولا هي تعرفه. وإذا صح أن هنالك شخصاً اسمه النمرود وكان في بلاد الكلدانيين في عهد تاريخي يبعد آلاف السنين، فهذا الشخص لم يأت إلى قضاء القنيطرة حتى تصح نسبة القلعة التي نبحث عنها إليه.

كما لا تصح نسبته إلى قليعة أو دير آرامي وثني قائم حتى الآن في أعالي جرود قرية رنكوس من قضاء دوما واسمه هناك أيضاً قلعة النمرود، فالعوام عندنا الجاهلون بالجغرافيا والتاريخ جهلاً عميقاً يلقون الكلام على عواهنه دون تحقيق واستنتاج. مثل تسميتهم البناء الأثري الذي في أعلى قمة جبل الشيخ (قصر عنتر) وتسميتهم المدفن الأثري البديع الذي في مدخل مدينة البتراء جنوبي المملكة الأردنية (خزنة فرعون) مما يدل على أنهم لا يعرفون من الشخصيات التاريخية إلا الأسماء التي في القصص كعنتر وعبلة وفرعون وأبي زيد الهلالي وأمثالها. ومتى استقام المنطق في ألسن العوام حتى يستقيم في تسمية الأماكن التاريخية ومعرفة

غابرها وحاضرها؟.

ثالثاً: إن اسم هذه القلعة (الصبيبة) تصغير كلمة صبة بضم الصاد وتشديد الباء مع فتحها كقولك حبيبة تصغير حبة. والصبة بمعنى القليل من الطعام أو الخيل أو الإبل. واسم الصبيبة الخاص بهذه القلعة ذكرته كتب التاريخ العربية والإفرنجية مراراً بمناسبة الحروب والمحاصرات التي تعرضت لها حينما تعاورتها أيدي المسلمين والصليبيين كما قدمنا. والصليبيون كما هو معلوم ظلوا في فلسطين كلها وفي أكثر البلاد السورية وسواحلها قرابة قرنين، يفاديهم المسلمون ويراوحونهم بقيادة ملوكهم الأبطال أمثال عماد الدين زنكي وابنه نور الدين وتلميذ نور الدين صلاح الدين الأيوبي وأخيه أبو بكر وأبنائهما وأحفادهما والسلاطين المماليك حتى دفعهم المسلمون الدفع الأخير وقذفوهم في البحر (سنة ٦٣٢هـ) كما سيدفعون ويقذفون الصهيونيين قريباً بحوله تعالى والدهر دولاب، والتاريخ لابد أن يعيد نفسه ويصحح خطأه.

ثالثاً: يخطئ من يفكر باتخاذ هذه القلعة مصيفاً. أولاً . لأنها كما قلنا على ذروة جبل شاهق منقطع عما حوله صعب الصعود والوصول. ثانياً . لأن هواء هذه القلعة حار غير صحي لقربها من سهل الحولة ذي الهواء الدفيء المرزغي. ثالثاً . لأن الماء مفقود لفقدان الينابيع وقد كان الجنود المقيمون فيها أيام عزها يشربون ماء الصهاريج المنقورة في صخورها والملوثة بما يجتمع من المطر. كانوا يشربون هذا الماء الآسن الطافح بالعلق للضرورة، فهل يمكنك أن تجبر المصطاف على شربه؟ رابعاً . إن أبنية القلعة عبارة عن أسوار وأبراج ومهاجع للجنود ومستودعات للمؤنة والعتاد كما هو الحال في كل القلاع وكلها متهدم متشعث بفعل المحاصرات والزلازل، تراكمت أحجارها الضخمة بعضها فوق بعض ونبتت بينها الأنجم والأعشاب الحاملة للأشواك القاسية وزحفت الأفاعي والعقارب الفتاكة. خامساً . ليس هناك مدينة ولا مساكن ولا سكان فإلى أين ذاهبة للجنة التي ذكرتها الصحف

إني أنصحها أن تقرأ كتابي الباحث عن هذه القلعة بالتفصيل والحاوي على مخطط هندسي لها، أو على الأقل تسأل أهل قريتي بانياس وجباتا الخشب المجاورتين لها. ثم ترجع للتفكير بما يجب الإقدام عليه.

أحمد وصفي زكريا
مؤرخ الشام ورائد المؤلفين الزراعيين

* زكريا أول من درس العلوم الزراعية في اللغة العربية
* قصة الباخرة التي غرقت في نهر الفرات؟
* الثياب القديمة تنقل الموت للبدو؟

المهندس أحمد وصفي زكريا من أقدم المهندسين الزراعيين في سورية وأكثر من خدم حرفة الزراعة عملياً ونظرياً عن طريق مؤلفاته وهو معروف بالأوساط الرسمية والأدبية والأثرية في القطر العربي السوري والعديد من الأقطار العربية الشقيقة وهو أول من أسس المدارس الزراعية في هذه الأقطار.

له شغف بالتاريخ والجغرافية وأحوال السكان من حضر وبدو، ويهوى الرحلات والأدب.

كان عمله يقتضيه التجوال في جميع الأراضي السورية فكان الرجل نشيطاً مجداً في عمله لا يترك شاردة ولا واردة يسأل أهل القرى والأرياف عن اسم المكان أو القناة أو البناء الأثري يلاحظ بنفسه الأمور الهامة في المنطقة ويدون مشاهداته ثم يراجع أصحاب العلم في الموضوعات الهامة ويرجع إلى بطون الكتب العربية والأجنبية فيستقصي ويستقصي. ولقد نشر شيئاً من معلوماته في كتاب هام اسمه الريف السوري الذي كان يعتزم إصداره في عدة أجزاء بحيث تشمل جميع المحافظات السورية ولكن المؤلف لم يلقَ التشجيع من أحد؟.

توفي في ١٩٦٤/٤/٢١ في منزله بدمشق عن عمر يناهز الـ ٧٥ سنة بانفجار في الدماغ أثناء مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط حيوانات بلاد الشام

والجدير بالذكر أن الأستاذ غسان سبانو يقوم بمراجعة هذا الكتاب الهام قبل أن يدفعه إلى الطباعة.

حياته:

ولد سنة ١٨٨٩ في دمشق وقد أتم فيها دراسته الابتدائية والثانوية ثم انتقل إلى استنبول والتحق بالمدرسة الزراعية العليا وتخرج منها عام ١٩١٢ مهندساً زراعياً وقد كان أول عمل تقلده في زمن الحكومة العثمانية هو التدريس في المدرسة الزراعية في سلمية التي كانت قد أنشأت حديثاً آنذاك وصار مديراً لها.

في سنة ١٩١٩ حينما تألفت الحكومة العربية الفيصلية كلف بمديرية مدرسة سلمية الزراعية التي كانت أحرقت وأغلقت في تلك الفترة فجاء إلى المدرسة وأعاد فتحها وبناءها وظل فيها خمس سنوات.

كان أول من درس العلوم الزراعية في اللغة العربية ووضع مصطلحاتها وألف المؤلفات الزراعية في سورية مع التنويه بأن كتبه تعتبر من أهم وأدق المصادر العلمية في الميدان الزراعي على الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على صدورها.

أقام في اليمن سنتين ونشر مجموعة من المقالات عن اليمن في مجلة المقتطف المصرية وبعض التي كانت رائجة بين المثقفين وبعض الصحف السورية، ثم أمضى فترة من الزمن في الأردن وفلسطين.

في سنة ١٩٤٣ عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة بقي في هذه الوظيفة إلى أن أحيل على التقاعد بمناسبة بلوغه السن القانونية سنة ١٩٥٠.

مؤلفاته:

ترك الأستاذ أحمد وصفي زكريا الكثير من المؤلفات سواء في حقل اختصاصه المهني كمهندس زراعي أم في حقول أبحاثه التاريخية والأثرية والجغرافية ففي مجال اختصاصه المهني ترك الآثار التالية:

* الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية ٣ أجزاء صدر عام ١٩٢٥.
* المفكرة الزراعية وهي تحوي خلاصة الفنون والأعمال الزراعية وقد صدرت عام ١٩٣٠ ومما جاء في مقدمة هذه المفكرة:

(خطر لي أن أحذو حذو الأوروبيين الذين يضعون في كل فن وحرفة كتباً يدعونها مفكرة يجعلونها صغيرة الحجم كبيرة النفع إذ يحشرون فيها بجمل وجيزة وأحرف دقيقة ما قل ودل من كل بحث ومطلب في الفن الذي يعالجونه وتكاد لا تجد هناك طبيباً أو مهندساً أو ضابطاً أو صانعاً أو زارعاً أو تاجراً إلا ويحمل في جيبه كتيباً من هذا النوع يحوي خلاصة القواعد والدساتير وزبدة الجداول التي لا يستطيع الإنسان أن يحفظها في ذهنه في كل زمان أو يقتني كتبها المفضلة في كل مكان.. ولما كان أرباب الزراعة عندنا محرومين من مفكرة شبيهة بما ذكرته رأيت أن أقوم بهذا العمل فضميت على التقويم الذي نوهت عنه أبحاثاً وجيزة من شتى الفنون الزراعية.. وزدتها نبذاً مما له علاقة بالزراعة من بقية الفنون كالجغرافيا الطبيعية والنباتية والزراعية والجيولوجية للبلاد العربية السورية وبعض قواعد الحساب والهندسية الطبيعية والظواهر الجوية.."

* زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام وهو في جزئين.
* ***في المجال التاريخي والأثري والجغرافي:***
* جولة أثرية في بعض البلاد الشامية صدر عام ١٩٣٤.
* عشائر الشام صدر في جزئين عام ١٩٤٥ . ١٩٥٧.
* الريف السوري "محافظة دمشق" في جزئين وقد صدرا بين ١٩٥٥ . ١٩٥٧.

* ذكرياتي عن وادي الفرات عام ١٩١٦ صدر بتحقيق الأستاذ المرحوم عبد القادر عياش عام ١٩٦٨.

أما المخطوطات التي تركها فهي:

* حيوانات بلاد الشام البرية.

* معجم عن الطيور في ٣٥٠ صفحة وقد قدمه لوزارة الثقافة في عام ١٩٦٢ لكن الوزارة أعادت الكتاب إلى مؤلفه بحجة عدم وجود المال، مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ وأحوال اليمن.

* يضاف إلى ذلك العديد من الأبحاث والمقالات غير المنشورة التي وجدت في أدراج مكتبه بعضها في اللغة العربية وبعضها الآخر باللغة التركية.

المقالات الأثرية

١ . الخطط والآثار في بعض بلاد الشام نشرت في مجلة الحوليات الأثرية السورية العدد ١ . ٢ "١٩٥١".

٢ . المروج الاستراتيجية المنسية في التواريخ العربية نشرت في مجلة الحوليات العدد ٣ "١٩٥٣".

٣ . مدينة أفاميا الأثرية نشرت في مجلة الحوليات العدد ٧ "١٩٥٧".

قراءة أولية في كتاب عشائر الشام:

يقع الجزء الأول من هذا الكتاب في حدود الـ ٢٩٠ صفحة من الحجم المتوسط وقد ذكر في قسمه الأول مقدمات وجيزة عن البادية وجغرافيتها وجوها ومائها ونعيمها وشقائها وآثارها وعمرانها الغابر والحاضر. ثم عن تاريخ البدو القديم والحديث وهجراتهم وأفاعيلهم في بلاد الشام ثم عن أوصاف البدو وأحوالهم الاجتماعية وأخلاقهم ومزاياهم في الماضي والحاضر ثم عن عادات البدو في المعيشة والغزو والملبس والمسكن واللهو والزواج والأعراس والضيافة.

ثم عن التشريع البدوي وكيفية المرافعة وأصول الصلح بين الأفراد

والعشائر، أما القسم الثاني فقد تضمن تعداد العشائر وتعريف أنسابها وأحسابها ومنازلها وأخبارها الماضية وأحوالها الحاضرة لكل منها من جنوبي حوران إلى أقصى شمالي الجزيرة الفراتية.

وقد تضمن الجزء الأول معلومات طريفة جمعها المؤلف من خلال زياراته الميدانية للقبائل البدوية.. وفيما يلي نموذج مما كتبه الأستاذ زكريا عن

*** صحة البدو:***

* يداوي البدو مرضاهم بما تعلموه من أجدادهم بالوصفات وثقفوه بطول الزمن في مداواة الجروح ويداوون أكثر الأمراض المستعصية بالكي وعندهم آخر الدواء الكي أو بأدهان وحشائش لهم يعرفونها. وأحذق أطبائهم من عشيرة الصليب فعند هؤلاء وعند بعض العشائر أهل خبرة في الطب من النساء والرجال. وجميع هؤلاء لا يعرفون من الطب إلا المعالجة بمخ عظام البعير المخ يستعمل بمنزلة دهان أو مرهم لأنواع الأمراض الخارجية أو الأدواء الباطنية ذات الأثر الخارجي كداء المفاصل والرئية والنقرس ونحوها.. وكل ما لا يعالج يداوى بالكي.

*** الزواج:***

يتزوج البدوي بين سن ١٥ و ٢٥ وقلما يتأخر إلى ٣٠ بل ربما سبق الزواج هذا الأجل. والبدوي ينتخب خطيبته خلال المصادفات التي تبعثها حياة الترحال واختلاط الجنسين وتعارفهما منذ الصغر.

والبنات البدويات يتزوجن في سن مبكر جداً وقبل الحضريات بكثير لأن عيش البداوة وإقليم البادية ينميانهن بسرعة وينضج استعدادهن في وقت وجيز وحتى أنهما يعجلان بشيخوخة المرأة وهرمها، وعلى كل حال لا تستثار الفتاة البدوية في زواجها ولا تسأل حين خطبتها لأن الرأي لوليها يعطيها لمن يشاء ويبيعها بيع السلع لمن أراد أو لمن يدفع له أكثر.

أما الجزء الثاني من الكتاب فيقع في ٣٦٣ صفحة من الحجم المتوسط

وهو يتضمن الأبحاث الخاصة بكل عشيرة أو قبيلة بدوية. وقد استقى المؤلف مادة الكتاب من تجواله في البادية والاتصال بالعشائر أو النبهاء من العشائر العارفين لتاريخهم وعاداتهم وفي هذا الصدد يقول الأستاذ عبد القادر عياش: "في رأيي أن أهم من كتب عن وادي الفرات من بين من اطلعت على كتاباتهم هو أحمد وصفي زكريا في كتابه عشائر بلاد ا لشام ولو امتد به العمر لكتب عن وادي الفرات وعن أبناء الفرات شيئاً كثيراً.

**** ذكرياتي عن وادي الفرات قبل خمسة وأربعين عاماً***

لعل هذا المقطع من ذكريات الأستاذ أحمد وصفي زكريا يدلنا على طريقته العلمية في تقصي الحقائق وجمع المعلومات المبعثرة هنا وهناك وفي الصدور بهدف إغناء أبحاثه وتوخياً للدقة والموضوعية:

"وعقب انحدارنا من خان الشعر وعندما صارت الشمس في كبد السماء بلغنا قرية مسكنة التي تبعد مئة كيلو متر عن حلب فوقفنا هنا للاستجمام.. ومسكنة هذه ضيعة تقع في غربي الفرات على بعد كيلو متر ونيف. وفيها مخفر للدرك وعدة حوانيت تحتوي على بعض الأشياء الضرورية وقد تبين لي من المسافة التي قطعناها خلال اثنتي عشرة ساعة إن معدل سيرنا في هذه المركبة الخشبية العرجاء ثمانية كيلو مترات في الساعة والعجلة من الشيطان.

وقد استنكرت يومئذ هذا الاسم مسكنة الذي يذكر بالذل والمسكنة.. وسألت نفسي من أين أتوا بهذا الاسم المكروه؟ ومن الذي أتى به ولماذا؟ بعد أن كان اسمها في العهد العربي بالس وفي العهد الروماني بارباليسوس.

فبعثوا واستدعوا لي اثنين من شيوخ مسكنة المفروض فيهم الفهم والعلم فقالوا ما تفسيره حسب مفهومي أنا وما أنقله بتصرف: إن سكان مسكنة هم أعراب متحضرون ينتمون إلى فخذ خفاجة من عشيرة الولدة الزبيدية وفسروا كلمة زبيدية بأنهم من أعقاب الفارس العربي الشهير عمرو بن معدي كرب الزبيدي دون أن

بدليل.

إن مربيتهم ومئات القرى والقريات الممتدة بينهم وبين بلدتي الباب ومنبج كانت من الجفتلكات السلطانية الخاصة بالسلطان العثماني عبد الحميد ثم عقب إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ تنازل هو عنها ودورها إلى الخزانة العامة فسميت الأملاك (المدورة).. ثم حدثاني عن ماضي مسكنة فقالا: نسمع من العارفين أن لمسكنة هذه موقعاً جغرافياً هاماً. فهي أقرب نقطة إلى حلب ويمر من أمامها كل يوم عدة سفن نهرية تأتي من بلدة بيره جك (قلعة البيرة) القديمة وبعد أن تمر بجرابلس وقلعة النجم ومسكنة والرقة ودير الزور تنتهي في بلدة الفلوجة التي هي ميناء بغداد على الفرات. وإن هذه السفن والصح أن يقال هذه القوارب ذات القعر المسطح ما برحت على الشكل والحال اللذين كانت عليهما منذ آلاف السنين تنقل الركاب والمحاصيل الزراعية والسلع التجارية من شمالي بلاد الشام وجنوبي الأناضول إلى مدن الفرات حتى تبلغ الفلوجة. وهي الآن (في السنة الثانية من الحرب العالمية الأولى تنقل المؤن والذخائر والمدافع والبنادق إلى الجيش العثماني والألماني الواقفين تجاه الإنكليز الذين زحفوا من البصيرة للاستيلاء على بغداد) وقالا رداً على سؤالي إن البواخر النهرية التي تعمل في نهر دجلة بين بغداد والبصرة يمكن أن تعمل أيضاً في نهر الفرات وتصعد فيه وتبلغ مسكنة فقط.

والدليل على ذلك أن الوالي العثماني (مدحت باشا) كان أول من أحدث مصلحة ملاحة تجارية على الفرات وصارت تصل بواخرها إلى مسكنة ثم ألغيت بانتقال الوالي المذكور من بغداد وعلى أثر اصطدام أحدها بحويجة قرب مسكنة على أن هذه الفكرة ظلت تراود الأذهان حتى انبرى أحد أثرياء دير الزور . قبيل الحرب العالمية الأولى . وراح إلى أوروبا واشترى أجزاء باخرة مستعملة تناسب أنهار تلك البلاد وحمل هذه الأجزاء إلى بيروت فحلب فمسكنة واشتغل مهندسوها بتركيبها مدة ستة أشهر حتى إذا برزت للوجود أوقدوها وزحفوا بها إلى الفلوجة بين

التصفيق والتهليل لكنهم يا للأسف لما أرادوا الرجوع والصعود بها عجزت لضعف محركاتها عن مقاومة تيار الفرات المنحدر لأنهم لم يحسبوا قوة هذا التيار ولم يركبوا في الباخرة المحركات المتحملة لقوة الصعود فتوقفت الباخرة عن العمل وداهمت الحرب العالمية أصحابها فلم يستطيعوا أن يتداركوا الأمر وذهبت أموالهم أدراج الرياح عندما غرقت السفينة.

<u>الثياب القديمة تنقل الموت للبدو:</u>

وفي موضع آخر من مذكراته ومشاهداته يسجل هذه الملاحظة المؤلمة:

كنت أشاهد بعض البدو يركضون وراء موتى قوافل المهجرين من تركيا الذين كانوا يتساقطون بحمى التيفوس فيعرون الميت مهما كان أنثى أو ذكراً من ثيابه ويلبسونها ويعدونها من غنائم العمر، وكان مما يضحك ويحزن لبس رجال البدو ثياب النساء الميتات ولبس نسائهم ثياب الرجال الميتين لا يفرقون هذه عن تلك. فكانت النتيجة المؤسفة أن المرض انتقل إلى هؤلاء البدو عن طريق هذه الثياب، وكم من مرة كنا نصل إلى بيت من الشعر منفرد ونادي فلا نجد مجيباً ونرفع الرواق فإذا بالأب والأم والأطفال أموات من جراء العدوى من المهجرين الأرمن.

<u>اليمن كما شاهدتها:</u>

عن ملابسات هذه الرحلة يقول: طوحت بي الأقدار في مطلع عام ١٩٣٦ إلى اليمن وكان السبب في ذهابي أن بعض رجالات العرب الأفاضل.. قد اقترحوا على المسؤولين الالتفات إلى إصلاح مرافق بلادهم الفقيرة ولاسيما الزراعة التي لا مورد لشعب اليمن سواها.. وقع اختيارهم علي فذهبت إلى هناك.. واستطعت أن أترك في اليمن نباتات وأشجار مثمرة وغير مثمرة مما لم يكن لليمانيين عهد به ثم رجعت إلى سورية بعد ستة أشهر.

هذا وخلال أعمالي الزراعية في صنعاء والأقضية والنواحي التي مكنوني

من زيارتها كنت أتسلم والتقط المعلومات الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية وغيرها فحصلت على نبذ منها نشرته بعد رجوعي في بعض المجلات المصرية والسورية. وقد حفزني إلى ذلك النشر كون اليمن لا يزال مجهولاً في جملته عندنا معشر العرب لم يكتب في اللغة العربية كتابات كافية عن جغرافيته الطبيعية والبشرية وعن أحداثه وكوارثه التي جرت في العهود الأخيرة. بينما الأتراك العثمانيون في زمن وجودهم هناك ألف بعض قوادهم وأطبائهم عدة كتب قيمة ورسموا خرائط عسكرية وقام قبلهم منذ مائتي سنة وحتى الآن بعض المغامرين من الأوروبيين وجازفوا بأرواحهم وجاسوا بلاد اليمن وألفوا ونشروا عنه كتباً جميلة في لغاتهم وكانوا يتهافتون على زيارة مدينة مأرب عاصمة بلقيس ملكة سبأ المذكورة قصتها مع النبي سليمان في التوراة والقرآن الكريم وقد قتل بعض هؤلاء الرواد في طريقه إلى هذه المغامرة وراح ضحية البحث العلمي.

واليمانيون وأخص بالذكر "القريون" أرباب الحرث الذين يسمونهم هناك (قبليين) جمع قبلى هم من أشجع الناس وأصبرهم على تحمل المشاق وشظف العيش وأبرعهم في حرب العصابات في الجبال.. ينطلقون ويقفزون من المرتفعات والمنحدرات كالفهود فلا تشعر كيف نبتوا من بين الجنادل والصخور وهم يسابقون الرواحل في الجري ويحسنون الكر والفر والكمون والتحصن وتسديد الضرب بالبنادق والطعن بخناجرهم الطويلة العريضة المعقوفة التي يسمونها (جنيات) وقد صاولوا في زمنهم الجيش العثماني وأرهقوه طوال عشرات السنين رغم شهرته وتفوقه عليهم بالمدافع والوسائل الحربية الحديثة.

قصة اكتشاف نهر المرا:

كتب أحمد وصفي زكريا إلى مديرية الآثار والمتاحف قائلاً:

في شمالي بلدة دوما جبل يشرف عليها وهو يمتد من الغرب إلى الشرق ويحسب من أعضاء سلسلة سنير وفي لحف هذا الجبل مجرى نهر صناعي يدعى (نهرا

المرا . نهر المرأة) منقور بعرض ثلاثة أمتار ممهد نظيفة كالإسمنت ذو هندسة التخطيط يثيران العجب وقد بنوا له في الواديين الهابطين من أعالي الجبل المذكور جسرين كبيرين الغربي منها ذو ثلاث قناطر والشرقي ذو خمس قناطر مبنية كلها بأحجار مكعبة ضخمة بإتقان وأحكام جيدين.

وهذا النهر (نهر المرا) يمتد في لحف الجبل الذكور كيلو مترات عديدة من حرستا.. وإلى أن ينتهي في شمالي قرية الضمير ليعطيها ماء الشرب وماء الري معاً.

وهذا النهر من أجل الآثار حول دمشق.. لقد شغل هذا النهر فكري منذ أكثر من ثلاثين سنة كي أعرف أوله وآخره وكيفية اتصاله بنهر يزيد إلى أن تمكنت من معرفة ذلك. كما أن هناك في وادي بردى وعلى ضفته اليسرى قناة منقورة في الصخر نقراً عجيباً تمتد عشرات الكيلومترات تظهر للعيان تارة وتختفي أخرى فوق سوق وادي بردى وبسيمة والأشرفية والجديدة والهامة ودمر.

وقد لاحظت أن معمل الإسمنت بدمر أخذ منذ عدة سنوات يقضم الجبل الذي تلك القناة فيه ولعل تلك القناة مازالت حتى الآن على حين أنها أثرية كان يجب أن تسجل في دائرتكم وتصان من العبث لأن (نهر المرا) وقناة وادي بردى مهمة من الناحية التاريخية.

كلمة أخيرة:

هذه لمحة عامة عن حياة هذا البحاثة الجليل الذي أفنى حياته في البحث والتأليف.. والأسفار المحلية والعربية، لقد فقدنا بوفاته عالماً وأديباً وفاضلاً ومؤلفاً مخلصاً للعلم على أنه حي في كتبه ومؤلفاته العديدة النافعة. صحيح أن أحمد وصفي زكريا رحل عن عالمنا بهدوء وصمت دون أن تقام له في دمشق حفلة تأبين أو تكريم من قبل وزارة الزراعة أو نقابة المهندسين الزراعيين أو إحدى الجهات الرسمية.. كذلك لم يحظ بأي تقدير من الدول العربية التي عمل بها غير أن الأجيال العربية ستذكره عندما تقرأ أعماله ومؤلفاته التاريخية الرصينة. وتجدر الإشارة إلى أن التكريم الوحيد الذي حظي به بعد وفاته جاء من الأستاذ المرحوم عبد القادر عياش الذي كتب ترجمة حياته في كتاب صغير الحجم يتضمن ذكريات زكريا في وادي الفرات عام ١٩١٦.

علاوة عما كتبه عنه الأستاذ محمد أبو الفرج العش في مجلة الحوليات الأثرية وفي هذا الصدد فإن بعض مؤلفات الأستاذ زكريا سيعاد طبعها من جديد بعد أن نفذت من الأسواق بإشراف الأستاذ أحمد غسان سبانو وستظهر في المكتبات خلال فترة وجيزة.

إعداد: هاني الخير

المراجع:

. المفكرة الزراعية

. عشائر الشام

. ذكرياتي عن وادي الفرات . تحقيق المحامي عبد القادر عياش

. مجلة الحوليات الأثرية السورية

. مقال بقلم الأستاذ محمد أبو الفرج العش.

. غرائب اليمن كما شاهدتها أحمد وصفي زكريا.

الريف السوري

معجم العصر لبلدان وقرى الإقليم السوري

بقلم : أحمد شكري

يقوم البحاثة الأستاذ أحمد وصفي زكريا بمجهود علمي وطني كان من واجب الحكومة أن تضطلع به وتكلف به لجاناً من المختصين تتناول تعويضات كبيرة لتتوصل إلى نفس النتائج التي يصل إليها الأستاذ زكريا وحده بإمكانياته الفردية وجهده الشخصي.. إنه عمل يستحق الإكبار والتقدير ولكنه لا يقابل بما يستحق.. إنه يضع معجماً للإقليم السوري يصف محافظاته واحدة واحدة، ويمسك كلاً منها على حدة فيفرغ بين يدي القارئ كل المعلومات عنها ويمشي معه في طرقاتها فيعرج على كل بلدة وعلى كل قرية وعلى كل مركز مفصلاً إياها قضاء فقضاء وناحية فناحية، مقدماً وصفاً محسوساً مستمداً من شهادة العيان لكل منها من النواحي الطبوغرافية والتاريخية والأثرية والاجتماعية والزراعية والعمرانية مع لخرائط المتصلة بالموضوع.

هل هذا قليل، كلا والله بل إنه عمل كبير لم نسمع بمثله منذ عصر ياقوت الحموي الذي قدم لنا معجم البلدان، وها نحن أمام ياقوت العصر يقدم لنا بلادنا بلداً بلداً وقرية قرية ويشرح أوضاعها وثرواتها ومستوى معيشتها وموارد رزقها وتقاليدها وعاداتها ومطالبها وأخبارها وشخصياتها البارزة وتركيبها الإداري.. وأن أي مواطن يثق بعلمه وسعة اطلاعه في أحوال وطننا سيجد أن الأستاذ زكريا في كتابه (الريف السوري) يأتيه بجديد عليه.. وسيجد أيضاً أن من أمتع الأمور أن يطلع الإنسان على أحوال بلاده بهذا التفصيل والوصف الواقعي المؤثر.

أقول هذا بمناسبة صدور الجزء الثاني من كتاب (الريف السوري) الذي

يشرح أوضاع أقضية الغوطتين والزبداني وقطنا والقنيطرة، ويذكر القراء أن الجزء الأول من هذا الكتاب يشرح أوضاع أقضية النبك ويبرود والقطيفة والتل ودوما والنشابية والذين قرؤوا الجزء الأول مثلي شعروا بدون شك بأهمية الكتاب وتمنوا لو أن مؤلفه عجل بإخراج الأجزاء التالية، وهو مستعد لبذل هذا الجهد لوطنه إذا ساعفه الوقت والوسائل وإذا لقي التقدير الكافي من الحكومة والشعب، وأرجو أن يتحقق ذلك لأن الكتاب هام وهو خير من تلال اللغو والهذر التي يقذفها تيار النشر الهائل في البلاد العربية، فهو يقدم لنا بلادنا وأريافنا في تفاصيل حياتها ومعاشها ويمد أمام عقولنا شاشة سحرية تعرضها شيئاً فشيئاً، مشهداً فمشهداً مفصلة فترى نفسك تجوس الطرقات وتدخل البيوت وتفحص الأثاث وتقعد في المجالس وتمعن النظر في الألبسة والوجوه.. وتتعقب القوم في أفراحهم ومآسيهم.. وفي لقمتهم وكدحهم وصراعهم مع عوامل الطبيعة.. وجهادهم لترميم ما خربته النكبات.. وتشعر بروح الناقد المصلح المتألم للنقائص والعيوب يتحراها ويعالجها ويدعو إلى إصلاحها.

لقد انتهى الأستاذ زكريا بإصدار الجزئين الأول والثاني من كتابه من محافظة دمشق، وإننا لنرجو أن يتاح له إصدار الأجزاء التالية التي تتناول بنفس الشرح والاستيفاء المحافظات الأخرى في الإقليم السوري محافظات حلب وحمص وحماه والجزيرة والفرات واللاذقية وحوران والجبل.. لنتعرف إلى بلادنا هذا التعرف العميق الدقيق الشامل الذي لا يمكن أن يتاح لإنسان عملياً.. ولنغوص في ثروة من الصور والمعلومات والملاحظات تقدمها لنا ذهنية مدققة ومجهود مؤثر يشي بحب الوطن والأرض والبلاد ولنسد باستكمال هذه الموسوعة الهامة بل بمعجم أرياف الإقليم السوري نقصاً كبيراً في دائرة معارفنا المكتوبة.. لم يسده أحد منذ عصر ياقوت الحموي.

إن أجزاء هذا المعجم يمكن ويجب أن تكون مرجعاً ثقافياً ضرورياً

للموظفين الإداريين في الإقليم السوري ليكونوا مطلعين اطلاعاً كافياً على أوضاع ودخائل وأمور الأقضية والنواحي التي يعينون فيها.. ومن واجبنا أن نثير انتباه وزير الداخلية إلى هذا الكتاب الذي تدعو الضرورة إلى تعميمه على الموظفين الإداريين ومكاتب البلديات لتزويدهم بالمعلومات العامة الضرورية عن بلادنا التي يجهلها معظمنا.. ولا يعرف عنها إلا القليل، كما نثير انتباه الوزير إلى بحث إمكانية تشجيع المؤلف على إخراج الأجزاء الأخرى ليوضع هذا المرجع كاملاً بين يدي وزارته للاستفادة منه في أمور شتى على ضوء المصلحة العامة.

هذا ما يقولون
مساجدنا الأثرية وتخليد أسماء بناتها
كلمة إلى وزير الأوقاف للاهتمام بهذا الأمر

أتيح لي قبل أيام أن أزور محافظة السويداء مرة أخرى بعد فراق طويل واخترقها من الجنوب إلى الشمال وأمر بالقرية والسويداء والشهباء وغيرها من القرى المتناثرة بينها.

وكانت زيارة خاطفة دخلت فيها إلى متاحف السويداء والشهباء وأعدت التأمل في مبانيها التاريخية وعقودها وأقواسها ومسارحها وتماثيلها الأثرية. فرأيت خلال ذلك تبدلاً وتقدماً محسوسين ومحمودين جداً. فطرق السيارات قد تجددت ونظمت باستقامة جد حسنة وزفتت تزفيتاً جميلاً والقرى في الجملة زادت اتساعاً وعمراناً عمال قبل وصرت ترى رجال هذا الجبل الأشم ونساءه في أزياء جد نظيفة ومحترمة. ويسرك خاصة رؤية التلاميذ من أبناء هذه القرى يتنزهون على الطرق العامة يحملون كتبهم المدرسية يقرؤونها ويتذاكرون مواضيعها.

ومررت بالسويداء مركز هذه المحافظة فوجدت توسعاً وتقدماً كبيرين في إشادة الدور والمباني الحديثة لاسيما في شمالها بحيث أصبحت ضعفى أو ثلاثة أضعاف ما كنت أعهده قبل خمس عشرة سنة التي فارقتها فيها. هذا مع نظافة تامة في الأزقة والشوارع تضاف إلى جمال الربيع هناك في هذه الآونة ونقاء الهواء وعذوبة الماء وحسن المنظر الممتد من علو ٩٢٠ متراً نحو سهول حوران المترامية الأطراف المتدرجة في الانخفاض في الأفق الغربي، وجودة الصحة الملحوظة على الوجوه وشدة التعلق بالعروبة وجمهوريتها المتحدة ورائدها الملهم السيد جمال عبد

الناصـر. ولا غـرو أن يحمـل أبنـاء هـذه المحافظـة العزيـزة هـذه العواطـف وهـم السباقون إلى التضحية، وقد سرني خاصة منظر الجامع اللطيف الظريف الذي بني حديثاً في السويداء ولما لمحت قبته ومئذنته الجميلتين هرولت نحوه وزرته فرأيت أثر العناية في فرشه ونظافته وجمال حديقته المحيطة به وشكرت على الغياب مساعي أهل البر والإحسان الذين قاموا بإشادته وما زالوا يقيمون بإدارته. لولا نقص سهل الإتمام ولا يكلف نفقات زائدة أردت أن ألفت إليه نظر سيادة وزير الأوقاف، وهو عدم وجود لوحة حجرية منقوش فيها تاريخ بناء هذا الجامع وكيفية بنائه وأسماء الساعين بهذا البناء مما هو لا بد منه في كل الجوامع والمساجد والمبـاني العامـة ليكـون عبـرة للمعتبـر ومـداراً لطلـب الرحمـة لأولئـك السـاعين والعاملين. وقد عجبت من إهمال وضع هذه اللوحة منذ سنة ١٣٧١ التي قيل أن بناء هذا الجامع قد تم فيها، ومن ترك خبر هذا المعروف والإحسان عرضة للنسيان بمرور الزمان وقد كنت لحظت أيضاً هذا الإهمال في عدة مبان شيدت في زمننا، كنت أراجع فيه المسؤولين عن أمره فيقال أنه تجنباً من إغاظة بعض ذوي المقامات الذين يتهالك كل منهم على أن يحشر اسمه وينقش رغم عدم اشتراكه في أي مسعى يتعلق بذلك البناء الخيري كما جرى في قصر العدل الضخم الحديث الذي ظل بدون تاريخ سنينا عديدة بعد أن تم بناؤه وسكن إلى أن وضعوا حجرة صغيرة في طرف واجهته لا تلفت الأنظار وإذا لفتت تحتاج قراءتها إلى منظار.

ومن المباني العائدة للأوقاف التي ظلم التاريخ فيها جامع الورد الذي في حي سوق ساروجة في دمشق بعد أن أعيد بناء مئذنته قبل ربع قرن. فقد ظل الحجر المهيء للتاريخ فوق بابه فارغاً بدون كتابة شيء حتى الآن وسيبقى إلى ما شاء الله. بينما لا يوجد جامع أو مدفن أو مدرسة أو قلعة مبنية في العصور الإسلامية الغابرة أيام كان المسلمون أكثر عناية بالمباني الدينية والعدلية ناهيك

البيع والكنائس والأديرة من قبل الإسلام وبعده إلا وعلى أبوابها لوحات حجرية نقش فيها تاريخ البناء وأسماء الذين بنوه وسببه والعقارات الموقوفة عليه وغير ذلك من المعلومات التي يتركها السلف إلى الخلف لتكون سجلاً لا تمحوه الدهور ومداراً للعظة والذكرى.

إنني أضع هذه الملاحظة القيمة أمام سيادة وزير الأوقاف الذي انعقدت الآمال على حيويته وهمته في صيانة أوقافنا ورفع شأنها وأرجو أن يأمر الدوائر المختصة بوضع اللوحة التاريخية الناقصة في جامع السويداء وبكتابة اللوحة البيضاء الموجودة فوق باب جامع الورد في حي سوق ساروجة، على أن لا يتكرر هذا الإهمال في المباني الحديثة للأوقاف وله شكر الأجيال الحاضرة والقادمة.

المهندس الزراعي

وصفي زكريا

ما يهم وزارة الزراعة معرفته والإطلاع عليه
معاهدنا الزراعية العليا
هل لها لزوم.. وهل تبقى كما هي؟

بقلم المهندس الزراعي:
وصفي زكريا

من جملة المشاريع الارتجالية الجديرة بالنقد واللوم التي عملت في العهد السابق، هو تأسيس كلية زراعية في حلب ومعهد عال زراعي في دمشق، وما كان لهاتين المؤسستين الكبيرتين لزوم في الوقت الحاضر وليس لدينا وسائل مالية وفنية لإشادتهما والسير بهما سيراً صالحاً ينفع طلابنا وزراعتنا، لاسيما وعندنا خمس مدارس زراعية ثانوية في مختلف المحافظات (دمشق، حلب، اللاذقية، ديرالزور، سلمية) إذا عنينا بها كما ينبغي تكفي حاجة البلاد السورية إن تأسيس الكليات والمعاهد الزراعية لا يشبه تأسيس الكليات والمعاهد غير الزراعية التي تشاد في أي مكان وكيفما كان. لأن هذا التأسيس الذي نبحث عنه باهظ الثمن، كثير المطالب متوقف على شروط لابد من توفرها كلها. هي الآن مفقودة في مؤسستي حلب ودمشق ولا سبيل للحصول عليها إلا بعد سنين عديدة وظروف جديدة، أما العمل بدونها فهو إسراف وتبذير وخبط عشواء وهذه الشروط هي:

أولاً: أن يكون هناك داعٍ إلى التعليم الزراعي العالي الذي يخرج زراعيين نظريين لسنا بحاجة إليهم حتى لسنين طويلة، فقد كثر عدد هؤلاء عندنا بعد رجوعهم من مصر وأوروبا وأميركا وصار يتعذر إيجاد وظائف ومناصب لهم ولمن

سوف يلحقهم من كلية حلب ومعهد دمشق المبحوث عنهما.

ومن المعلوم أن شبابنا المعسورين لا يتعلمون الزراعة حباً بالعمل الزراعي الحر بل حباً بالوظائف التي ضاق مجالها في وجههم. وشبابنا الميسورون على فرض حصول رغبة لديهم في التعليم الزراعي العالي يولون وجوههم شطر كليات الزراعة الراقية التي في أوروبا وأميركا. فما دام الأمر كذلك ما الداعي لإشادة مؤسستين زراعيتين عاليتين في حلب ودمشق قبل أن تستوفى شروطهما ونهيئ مطاليبهما؟.

وما الداعي إلى أن يقوم بعض المسؤولين في شؤون الزراعة ويزيد الطين بلة ويصرخ بأنه سيشيد كلية زراعية في مدينة دير الزور المحرومة من كل ما يبرر إشادة هذه الكلية. لاسيما وفي دير الزور مدرسة زراعية ثانوية لو عنى بها كما ينبغي لكفت حاجة المحافظات الثلاث (دير الزور والحسكة والرقة) وزادت.

نحن شعب عددنا أقل من خمسة ملايين وزراعتنا تحت رحمة الأمطار القليلة السخاء في أكثر السنين وثلاث كليات زراعية حمل باهظ فوق طاقة بلادنا وحاجتها، فالقطر المعروف الذي فيه سبعة وعشرون مليوناً من النفوس وزراعة أوسع وأرقى مما لدينا بخمس أو ست مرات ليس فيه سوى ثلاث كليات زراعية أي لكل تسعة ملايين نفس كلية زراعية واحدة. وتركية التي تقرب من مصر في عدد النفوس ورقي الزراعة ليس فيها سوى كلية واحدة في عاصمتها أنقرة وجل اعتمادها على المدارس العملية التي لديها.

إن بلادنا السورية أحوج إلى شبان زراعيين عمليين من خريجي المدارس العملية الذين أسمرت وجوههم واخشوشنت كفوفهم من توالي العمل الصالح في الحقول وميادين الزرع والفرع أي أنها ليست محتاجة إلى شبان زراعيين نظريين مرفهين.

وإذا احتاجت دوائرنا الرسمية إلى زراعيين نظريين ما عليها إلا أن توفد

كل سنة بعثات إلى ديار الغرب يتعلمون في كلياتها ومعاهدها ويتدربون في بيئاتها الزراعية أحسن وأكمل مما قد يرونه في كلية حلب ومعهد دمشق، وهذه البعثات إذا ذهبت وتعلمت هناك لا تكلف الدولة نفقات بقدر ما تكلفه المؤسسات في دمشق وحلب.

ثانياً: أن يكون للكلية أو المعهد جهاز إدارة وتعليم كامل مؤلف من أساتذة حملة دكتوراه أو ليسانس ذوي معرفة وخبرة عميقتين في علوم الزراعة وإحاطة بحالة بلادنا وأراضيها وحاجاتها الزراعية، يضاف إلى ذلك القدرة على تفهيم الدروس النظرية والعلمية وتأليف الكتب العلمية القيمة وإيجاد مكتشفات جديدة في الزراعة وأعمالها شأن الأساتذة في ديار الغرب. وهذا العيار الثقيل غير موجود لدينا الآن ولا يمكن وجوده إلا بعد سنين طويلة إذا توجه المبعوثون إلى ديار الغرب نحو اكتساب هذه المزايا.

ثالثاً: أن تكون الكلية أو المعهد وسط مزرعة مستوفية الشروط ذات أرض مساحتها لا تقل عن ألف وخمسمائة دونم. نصفها مسقية ونصفها بعلية كي يجري الطلاب فيها تطبيقات واختبارات على أنواع المحاصيل وأصنافها وأساليب زرعها وتسميدها وسقيها وحصادها ومداواة عللها.. الخ فيقرنوا القول بالفعل ولا يبقى تعليمهم نظرياً بحتاً كما هو الحال في كلية حلب ومعهد دمشق على ما سوف نشرحه وقديماً قيل علم بلا عمل كسحاب بلا مطر..

رابعاً: أن يكون للكلية أو المعهد مبانٍ خاصة تحتوي على غرف التدريس والمختبرات والمعامل والمرائب والمستودعات والاصطبلات وغير ذلك على أن تكون هذه المباني وسط الأرض المبحوث عنها في المادة الثانية ليكون الطلاب على مقربة من حقول الاختبار ويستأنسوا برؤية مزروعاتها ومغروساتها وتجاربها ويتابعوا أطوار نموها ونتائجها عن كثب لا أن يروها لماماً.

خامساً: أن يكون في الكلية أو المعهد مجاميع كاملة من الآلات والمكنات

الزراعية والمختبرات والأجهزة للعلوم الكيماوية والفيزيائية والحيوية ومتاحف تحتوي على نماذج الأسمدة والأتربة والمعادن والأزهار والأثمار والبزور والأخشاب والحشرات والطيور والأمراض النباتية المتنوعة الصالحة لتطبيق كل نظرية واختبار كل قاعدة.

سادساً: أن يكون ملاك الدولة محتوياً على وظائف وأعمال للذين سوف يتخرجون ويحملون الشهادات من الكلية أو المعهدين المذكورين وعددهم عندنا أكثر من مائتين كل سنة. يضاف إلى هؤلاء الذين سيتخرجون من مدارسنا الثانوية الزراعية الخمس. وعددهم أيضاً بضع مئات وعيون هؤلاء أيضاً متجهة نحو الوظائف. فأين الوظائف التي تكفي هذه الجموع وقد ازدحمت وزارة الزراعة ووزارة الإصلاح الزراعي ولم يبق موطأ قدم إلا لمن كان ذا حظ عظيم. لأن جميع هؤلاء ما تعلموا الزراعة إلا للحصول على وظيفة ما والزراعة الفعلية ما منهم من يفكر بها ويتجه نحوها. فلأي شيء نبدد هذه الأموال والجهود.

إن الشروط التي عددناها غير موجودة وغير قابلة للايجاد في كلية حلب ولا في معهد دمشق. ناهيك بالكلية التي يفكرون بإشادتها في دير الزور. فكلية حلب بدون أرض صالحة وقطعة الأرض الصغيرة التي أخذتها هذه الكلية من مدرسة المسلمية الثانوية بعلية لا سبيل لإسقائها من نهر قويق أو غيره وبالتالي لا إمكان لإجراء زراعات مسقوية وتعليم الطلاب وإفادتهم منها.

هذا إلى أن القطعة المذكورة بعيدة نحو عشرين كيلو متراً عن مدينة حلب التي سوف تكون مباني الكلية فيها إذا شيدت أي لا سبيل لذهاب الطلاب إلى أرض المسلمية بالسيارات ورؤيتهم مما فيها كل وقت. وكان يجب أن تكون مباني الكلية وسط الأرض لا بعيدة عنها البعد الشاسع الذي ذكرناه. ثم إن هذه الأرض قاع صفصف. ليس فيها مباني زراعية كالاصطبلات والزرائب والمرائب والمستودعات والسقائف لحفظ الآلات والمكنات وغير ذلك مما يجب أن يكون في كل مزرعة

فنية وإذا شرع بإشادتها ورفع قواعدها يحتاج الأمر إلى سنين طويلة وأموال طائلة أين نحن منها؟

ومن المحزن أن كلية حلب بدون أساتذة زراعيين. وبعد ذهاب الأساتذة الذين عملوا فيها سنة ١٩٦٠ . ١٩٦١ لم يمكن إيجاد أساتذة سوريين ذوي كفاءة للتعليم في هذه الكلية وما ذكرته الصحف عن عزم عميد جامعة حلب على جلب أساتذة أجانب مما لا يجوز التفكير به. لأن الأستاذ الأجنبي يجهل اللغة العربية وطلابنا يجهلون الأجنبية التي يكلمهم بها. وليس عندنا مترجمون تتوفر فيهم شروط الترجمة مع معرفة العلوم التي يلقيها الأساتذة الأجانب. فبأي لسان يتفاهمون؟ هذا إلى أن الأساتذة الأجانب الذين سوف يكلفونا أموالاً طائلة يجهلون بلادنا وأراضينا وأساليب زراعتنا التي تختلف عن أساليب بلادهم، فيتكلمون عن أمور غريبة ويفرضون أحكاماً غير قابلة للتطبيق عندنا ويحصل الضرر من وجودهم بدل النفع فما دام الأمر كذلك ما الداعي لهذا الاستعجال والارتجال ولماذا لا ننتظر البعثات التي يجب إيفادها إلى أوروبا وأميركا للتخصص وترجع مزودة بما هو كافي للتعليم والتدريس ومعهد دمشق العالي أيضاً ككلية حلب بدون بناء وبدون أرض وبدون وسائل تعليم كافية ولما جاؤوا به سنة ١٩٦٠ . ١٩٦١ أقحموه اقحاماً في بناء المدرسة الثانوية الزراعية في خرابو. على حين أن هذا البناء شيد سنة ١٩٤٨ لأجل مدرسة متوسطة عدد تلامذتها ستون أو سبعون ثم ظلوا يرفعون هذا العدد عاماً بعد عام حتى بلغ ٢٠٠ وجاء المعهد العالي يزاحمهم بتلامذته الكثر فبلغ المجموع في المدرستين ٤٠٠ ولم يبق موطأ لقدم، وكان حول مدرسة خرابو المذكورة قطعة أرض مساحتها ٦٠٠ دونم مازالوا يقتطعون منها للمباني والمستودعات والاصطبلات والملاعب والطرق وغير ذلك حتى امتلأت ولم يبق هناك للزراعة سوى ١٠٠ دونم فقط، لا تكفي لمدرسة ابتدائية ريفية، بقي المعهد العالي المذكور بدون أرض وبدون أي عمل واختبار، وليس فيه الآن سوى

التدريس النظري فقط، والنظريات إذا لم تدعمها العمليات لا تستقر في الأذهان ويعتريها النسيان. أي يخرج الطلاب غدا إنصاف متعلمين وغير متمرنين لائقة لأحد بعلمهم ولا أمل بنفعهم.

هذا أمر لا نظير له في العالم ومن أعجب ما سمع أن تؤسس كلية زراعية ومعهد عالٍ زراعي ويكون التعليم فيهما نظرياً صرفاً غير مقرون بتطبيق أو تدريب، ويبقى الطلاب خياليين كلمانيين، لا يفيدون أنفسهم في المستقبل ولا يفيدون وطنهم الذي أنفق ألوف الليرات على كل منهم دون جدوى. وهل يتخرج الأطباء في كلية الطب ليس فيها مشرحة ولا مستشفى ولا تمرين على المعالجة؟.

لهذه الأسباب أرى أن إبقاء كلية حلب والمعهد العالي في دمشق والإغضاء على نواقصهما التي عددتها وصرف الأموال الطائلة في هذا السبيل إنما هو أضرار بمستقبل ناشئة البلاد التي سوف يكون علمها الزراعي هزيلاً وإضراراً بخزينة البلاد وسبباً لنقد العارفين ولومهم وأسفهم. فإذا حصلت القناعة بما شرحته عن اختصاص عميق في الموضوع وإخلاص تام للصالح العام أقترح:

١ . إلغاء كلية حلب الزراعية ومعهد دمشق العالي الزراعي وإرجاء فتحهما نحو عشر سنوات أخرى على الأقل ريثما تحصل الشروط التي عددتها وهي الشعور بالحاجة، الأرض البناء، وسائل التدريس، جهاز التدريس، الوظائف أو الأعمال للمتخرجين.

٢ . الالتفات نحو مدارسنا الزراعية الثانوية الموجودة في مختلف المحافظات ودعمها بالوسائل الفنية والتدريسية وتغليب العمليات فيها على النظريات لينشأ منها زراعيون عمليون جديرون بالثقة.

٣ . إيفاد بعثات إلى أوروبا وأميركا ليتخصص كل منها في علم من العلوم الزراعية وليكون حين رجوعه مدرساً لهذا العلم ومنقطعاً إليه ومتبحراً فيه لتحصل الفائدة المرجوة منه إلى طلابه.

٤ . إذا كان . رغم الأسباب المانعة التي شرحناها . لا سبيل إلى العدول عن هذا الطريق الخاطئ ولا مناص من إبقاء المعهد العالي الزراعي في دمشق والكلية الزراعية في حلب على علاتهما ينبغي حينئذ إغلاق المدرسة الثانوية في خرابو والمدرسة الثانوية في المسلمية وتوزيع ما يبقى من طلابهما على مدارسنا الثانوية الأخرى في سلمية واللاذقية ودير الزور، ثم تسليم أراضي المدرستين المذكورتين ومبانيهما ووسائلهما إلى المعهد والكلية للبحوث عنهما، وإيجاد جهاز إدارة وتدريس وأدوات أقوى مما هو موجود فيهما الآن وأحسن عملاً وإنتاجاً.

هذا ولما كانت المدارس والمعاهد الزراعية لا تشاد وتوضع في كل بلاد العالم إلا وسط بيئة ريفية وبين الحقول والمزارع البعيدة عن المدن الصاخبة. ينبغي جعل كلية حلب . إذا كان لا مناص من إبقائها . في بناء مدرسة المسلمية الثانوية.

ذلك لتكون هذه الكلية وسط المناظر والأعمال الزراعية المتنوعة التي يراها الطلاب كل وقت.

٥ . وأخيراً لابد من رفض الفكرة السقيمة التي تطلب إحداث كلية زراعية ثالثة في دير الزور وعدم إفساح المجال لزيادة الطين بلة بها.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

مدينة السلمية ومدرستها الزراعية

بقلم: أحمد وصفي زكريا

قرأت في العدد ذي الرقم ٣٨٣ والتاريخ ٢٦ أيار سنة ١٩٦٠ من جريدة . الوحدة . الغراء وصفاً مسهباً للحالة المحزنة التي بلغتها بلدة سلمية[١] بحكم الجفاف الذي فاجأها منذ خمس سنوات فيما قالوه. وأشده كان في سنتنا هذه. وقد أعجبني أسلوب السيد . موفد الوحدة الخاص . كاتب هذا الوصف كما أعجبني اهتمام جريدة . الوحدة . بهذا الموضوع الحيوي لأنه حد خطير ومفجع، لا يهم بلدة سلمية وحدها بل الإقليم السوري كله الذي يعز عليه أن يرى إحدى مناطقه المشهورة في تاريخها وآثارها ومحاصيلها الزراعية وحيوية أهلها أن تحتضر وتبتلى بهذه النكبة السماوية التي لم ير التاريخ لها مثيلاً. ولأن هذه النكبة تدعو للتفكير والتدبير وإيجاد الدواء قبل استفحال الجفاف والظمأ والهجرة والبطالة.. الخ ما هنالك من النتائج المؤلمة التي شرحها الموفد الموما إليه.

وقد أثار هذا الشرح الشجون التي استحوذت علي حينما زرت سلمية قبل شهرين من زيارة خاطفة بعد فراق خمس عشرة سنة، وكل الشرح كان مطابقاً لمشاهداتي وانطباعاتي، وقد حفزني ذلك إلى أن أدلي الآن دلوي في موضوع هذه

---

[١] يخطئ الذين يكتبون هذا الاسم (السلمية) ويخطئ أكثر من يكتبها (السليمية) لأن أسماء الأعلام لا تلصق بها أل التعريف فكما لا يصح أن يقال الحلب، الحماه، الحمص لا يصح أن يقال السلمية ولا يصح أن تنسب إلى سليم أو سلمان اللذين لم يعرفاها. لأن هذا الاسم كان في عهد الرومان . سلامياس . وجاء العرب فجعلوه . سلمية . بفتح السين واللام وسكون الميم. وعشائر البدو هناك لا يزالوا يلفظونها كما ضبطناه، فما أحرانا أن نأخذ ما صفا وندع ما كدر

البلدة المنكودة الحظ التي عرفتها وقدرتها وتمرزت بحلوها ومرها منذ أمد بعيد. لأنني قضيت فيها سبع سنوات في شرخ شبابي قبل الحرب العالمية الأولى . في سني ١٩١٢ . ١٩١٤ . ثم بعدها . في سني ١٩١٩ . ١٩٢٤ . بسبب تأسيسي لمدرستها الزراعية أول مرة وثاني مرة وإداراتي وتنظيمي لهذه المدرسة التي كانت الأولى والمنقطعة النظير في الأقطار العربية. وقد كنت وقتئذ أنتهز الفرص فأدرس تاريخ سلمية القديم ووضعها الحديث والحالة الدينية والفكرية والاجتماعية في حاضرتها وباديتها، هذا بالإضافة إلى ما بذلته من عرق القرية في سبيل نهضتها الزراعية والثقافية. وقد كتبت عن هذا كله في مؤلفي (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) المطبوع سنة ١٩٣٤ وفي مؤلفي الثاني المسمى (عشائر الشام) المطبوع سنة ١٩٤٧، ولما غادرت سلمية سنة ١٩٢٤ بعد أن أوصلت مدرستها إلى ازدهار مرموق حملت منها ومن مزايا أهلها أجمل الذكريات وأطيب التمنيات.

ولهذا قد أسفت أشد الأسف على النكبات التي أصابتها بسبب هذا الجفاف العجيب. وقد كانت مضرب الأمثال في الإقليم السوري كله بغزارة مياهها الدافقة في قنواتها الأثرية الممتدة كالشباك مما يبلغ طوله عشرات الكيلو مترات. وربما صادفت قناة فوق قناة متوازيتين أو متعامدتين تشهد كل منها بمهارة الأقدمين الذين هندسوها وخططوها وحفروا الأعماق ونقروا الصخور أو بنوا الجدران وأجروا ماءها عذباً وأوجدوا فوق هذه القنوات بلدة سخاء ورخاء دعوها . سلامياس . ولعل معناها عندهم دار السلام، ظلت مشتهرة قبل الإسلام وبعده ونوه بها جغرافيو العرب ومؤرخوهم كابن حوقل واليعقوبي والطبري وياقوت الرومي وأبي الفداء في مؤلفاتهم ومدحوا قنواتها ومزارعها ومغارسها ومنازلها ومستودعات حبوبها.. الخ. وظلت معروفة في عهدنا بأنها أحد المنابع السورية للمحاصيل الشتوية والصيفية، ومصدر كميات معروفة في عهدنا بأنها أحد المنابع السورية للمحاصيل الشتوية والصيفية ومصدر كميات هائلة من الحبوب والأقطان والقزع والبصل ومبعث

العنب البياضي الذي كان يغذي مدن سورية الشمالية ويستقيم حتى أوائل كانون.

والشيء بالشيء يذكر أن سلمية كانت فوق علها ونهلها من قنواتها التي وصفناها كانت تبعث بمائها الغزير إلى مدينة أفاميا الأثرية الواقعة في شمالي غربي حماه والمعروفة بجمال آثارها وطول شوارعها المستقيمة وكثرة سكانها ورفههم. وقد كانوا لا يقلون عن ٥٠ . ٦٠ ألفاً على ما ظهر لنا من ضخامة بلدتهم . هذه أجل؟ كانت سلمية تبعث إلى مدينة أفاميا ماء الشفة بقناة اسمها حتى الآن . قناة العاشق . تشق من عين ثرة اسمها . عين الزرقاء . في غربي أراضي المدرسة الزراعية. وقد كانت أيام القيظ ثم جفت الآن بالمرة. كانت قناة تسيل في مجارٍ منقورة أو قناطر معمورة من سلمية إلى أفاميا تزيد على خمسة كيلو مترات على ما صوره وكتب عنه كامل شحادة مأمور الآثار في محافظة مقال قيم له نشر في مجلة الحلويات لسنة ١٩٥٨ . ١٩٥٩، ولعل . عين هذه كانت تشبه إلى حد ما . عين التي في ناحية تل أبيض من قضاء . قناة العاشق . تشبه أيضاً نهر البليخ من عين العروس والذاهب جنوباً للانصباب بعد سقي آلاف الهكتارات المزروعة.

ان ذهبت هذه المياه وكيف أصبحت غوراً بسبب في هذا الجفاف المتواصل الذي كما لم يشهد التاريخ له مثيلاً من آلاف السنين وكم كانت كمية الأمطار كل سنة في قرون الغابرة. وكم مرة كانت أكثر من سلمية في عهدنا وهو على ما أذكر . ٣٤٤

ان كفى الزراعة الشتوية لا يكفي الصيفية البعلية قط في تربة سلمية للري الوفير. ترى أكان للحراج ركناها مكتظة في جبل البلعاس وما ورائه الممتدة من قرب قرية عقير باتسب من تأثير على غزارة أمطار تلك القرون. ارت هذه الجبال الآن جرداء مردا بحكم والتحطيب وفقدان الوقاية والتعقيب. فيما ذكرته التواريخ ودلت عليه العاديات الموجودة حتى الآن بين أزقتها هي من مدننا التاريخية الآرامية ثم العربية كانت على قارعة طريق بين مدن سورية الشمالية وتدمر.

الملكة زنوبيا ودخلت في حوزتها الزمن ثم دخلت في حوزة الرومانيين فخلفوا فيها ما ذكرناه من الآثار والعاديات تواريخها العربية إنها كانت في القرن والثالث الهجريين مقراً لأحد فروع بني الهاشميين وفي القرن الرابع صارت خلفاء الفاطميين ومصدر دعوتهم الإسماعيلية انطلاق رسلهم إلى الأقطار الإسلامية.

كانت مشهورة منذ ذلك الحين وقبله قنواتها . الآرامية واليونانية والعربية . بساتينها وكرومها وجمال منازلها يجب بها الخليفة المهدي العباسي لما زارها وكان ينازعهم عليها أبناء عمومتهم الملوك الأسديون الأيوبيون أصحاب حمص الذين شيدوا قلعة شميميس الشاخصة أطلالها حتى الآن هناك.

وبعد أن خربتها عوادي الزمان عدة مرات وأقفرتها بسبب غارات القرامطة أولاً والتتار ثانياً والزلازل أو الطواعين ثالثاً استعادت عمرانها قبل قرن ونصف في عهد السلطان عبد الحميد العثماني على أيدي جدود سكانها الحاضرين الوافدين من قراهم في جبال اللاذقية أحياء لبلدة كانت مصدر شيعتهم الإسماعيلية. وطلبا للبحبوحة في الأرض والرزق. فعمروها بمضاء عزمهم وشدة انضمامهم فرجعت ترفل في الخضرة والنضرة اللتين أدركتاهما في المدرسة الزراعية وفي سلمية نفسها لدى أهلها الذين كان عطفهم مهتزاً وصدرهم معتزاً إلى حد بعيد.

لكنهم أثر اتساع زراعة القطن بعد الحرب العالمية الثانية وقد كانت مزدهرة عندهم ونشوب حرب كوريا في سنة ١٩٥٠ وافت الأرباح الطائلة عامئذ وبعده على زراعيه وبايعيه تعلقوا . وياليتهم لم يفعلوا . بالمحركات والمضخات. وحفروا لها الآبار التي قيل أن عددها ناف على عشرة آلاف، فاستنزفوا بها المياه الجوفية المخزونة في الأرض إلى أبعد الأعماق وأقصى الآفاق. وشحت السماء عليهم في هذه السنين العجاف ونقص معدل الأمطار واختل نظام تهطاله، ولم يسقط عوض ما استنزفوه وجففوه ولم يوجد من أهل الأمر والنهي من يقول لهم حسبكم يا قوم، فوقعوا في الكارثة التي وصفها السيد . موفد الوحدة الخاص .

وأصبحت سلمية مضطرة إلى الاكتفاء بالمحاصيل الشتوية البعلية. هذا إذا جاءها الغيث في السنين القادمة بما يكفي لإنماء هذه المحاصيل وإذا نبضت الآبار الارتوازية المحفورة إلى أعماق بعيدة بما يكفي لشرب الشفة وهما أمران تحت رحمة الأقدار، لا سبيل للتعلق بهما أو اليأس منهما.

لهذا السبب لا أجد وسيلة لإنقاذ سلمية من الاقفرار الذي يهددها إذا دام الحال على هذا المنوال إلا بأخذ جزء من ماء العاصي الذي سيخزن في سد الرستن وجره بقناة من الإسمنت كالتي في مشروع الري بين حمص وحماه مهما كلف الأمر. والمسافة بين الرستن وسلمية على خط مستقيم لا تزيد عن ٢٧ كيلو متراً إلى الشرق الشمالي. مع العلم بأن هذه القناة إذا مدت سوف لا تعطى سلمية إلا ماء الشفة أي لا يرجى منها أن تكفي أراضيها الشاسعة وتربتها الخفيفة المحتاجة للكثير من الماء. اللهم إذا كان فرق الارتفاع بين الرستن وسلمية يسمح بهذا الجر، وفي ظننا أن ارتفاع الرستن ٤٨٥ متراً وارتفاع سلمية ٤٧٥ متراً. وإذا كان هذا العمل لا يتعارض مع حقوق مدينة حماه وزوارها ومشروع الغاب. تلك مسائل تحتاج لدراسة وافية أعرض فكرتها على الدوائر المختصة لتنظر فيها. ورجائي إلى أن يتم تحقيق هذه الفكرة أن تطبق المقترحات التي ذكرها نبهاء سلمية إلى . موفد الوحدة الخاص . كتدابير أولية.

وفي زيارتي الخاطفة لسلمية . ٣٠ آذار سنة ١٩٦٠ . وبعد أن لمست وحزنت لسوء الحال وتصدع الآمال في هذه البلدة التي كانت تموج بالحركة والبركة قصدت مدرستها الزراعية التي أنا مؤسسها ومنظمها ومربي الرعيل الأول من ناشئتها الذين خدموا وما برحوا يخدمون الزراعة في أكثر الأقطار العربية. ذلك لأشاهد ما حل بأعمالي وآثاري وآمالي، فرأيت ما هالني وأبكاني بسبب البوار والاقفرار وانعدام الرجاء من كل رجوع للاخضرار والازهرار، طالما سبب الحياة الذي هو الماء صار مفقوداً منها وصار ماء الشفة لتلامذتها وأساتذتها ينقل إليها

من مرج القديم البعيد ثلاث كيلومترات. فاضطررت بعد أن رجعت إلى دمشق إلى أن أقدم إلى مراجع هذه المدرسة التقرير الآتي الذي وحدت الآن لزوماً لنشره بعد أن رأيت اهتمام جريدة . الوحدة . بكارثة سلمية. وبيت القصيد في تقريري هذا هو أنني اقترحت على تلك المراجع أن تلغي مدرسة سلمية الزراعية التي أدت رسالتها خلال نصف قرن ولفظت أنفاسها وانتهت، وتنقل تلامذتها وأساتذتها إلى مدارسنا الزراعية الأخرى. على أن تسلم أبنيتها الواسعة إلى أي مؤسسة أو مصلحة حكومية أخرى تضع فيها ملجأ أيتام أو دار صناعة أو دار معلمين أو مركز اجتماعي أو مستشفى أو ثكنة عسكرية أو أي معهد غير زراعي، فقلت :

أولاً: لأن تربتها رديئة التركيب الفيزيائي والكيماوي رملية كلسية رخوة عطشى، لا تقبل الزراعة البعلية الصيفية كالأقطان والمقاتي على النحو الذي تقبله تربة حلب وحماه وحمص وغيرها. فهي لا تجود في الصيف إلا إذا رويت بغزارة من مياه القنوات أو الآبار، ولا تقل في الشتاء إلا إذا جادها الغيث وهمي بما لايقل عن ٢٠٠ . ٣٠٠ ميلميتر. ومياه قناة المدرسة وآبارها كانت حتى في السنين السابقة أقل ما هو لازم بداعي أن حق المدرسة منها لا يزيد عن الثلث، والثلثان لأناس آخرين. أما الآبار فكانت قدرتها محدودة. والأمطار كما أسلفنا لا تهطل كل سنة على وتيرة واحدة.. فما بالكم الآن بعد جفاف القنوات والآبار وعدم نجاح أي مسعى في إعادتها. والبئر الارتوازي الذي يحفرونه الآن بالكاد يكفي لماء الشفة فقط.

ثانياً: من جراء وقوع هذه المدرسة في بيئة شبه صحراوية حرمها سوء الحظ من الوسائل والمشاهد الزراعية التي ينبغي أن يراها التلميذ خارج مدرسته ليقايسها بما قرأه لتزداد خبرته وتتسع معرفته . كما هو الحال في مدارس خرابو وبوقا والمسلمية على الأقل . لأن بلدة سلمية نفسها قد جف كل ما كنت أعرفه فيها من كروم وبساتين كانت على علاتها تفيد تلامذتنا حينما يرونها بعض الفائدة. أما

وقد زالت الآن بالمرة وأضحت خلاء قواء وصارت بلدة سلمية كتدمر لم يعد التلميذ الزراعي يرى ما يجلى بصره وبصيرته، وصار من العبث التفكير بإبقاء هذه المدرسة (مصدر إشعاع لمنطقة سورية الوسطى) بعد أن فقدت كل عوامل الإشعاع. فلا بستان ولا كرم ولا مشتل ولا حديقة ولا حقل نموذجي أو غير نموذجي. فمن أين الإشعاع، وكيف يشع من كان في الظلام؟

ثالثاً: من جراء كثير من بقية مدارسنا الزراعية التي عددنا أسماءها المنشأة في ضواحي مدننا الكبرى مما لا يتسع المجال لشرحه وإيضاحه. أخصها ما يتعلق بجهاز التعليم والإدارة. فمدرسة سلمية لا يأتيها إلا كل حديث العهد بالتخرج من الكليات الزراعية (كل غشيم الكار) الذي لم يسبق له خبرة وممارسة في التدريس النظري والتدريب العملي ولا معرفة في فروق الأجواء والأتربة واختلاف الظروف والشروط. وبعد كبوات وخطيئات جمة عن قصد أو سهو خلال سنتين أو ثلاث، وما أن يعرف هذا المدرس المكان والسكان وتستقيم نظراته حتى يمل ويكل ويحاول الهرب إلى وظيفة في مدينة أخرى. وهو إذا كان أعزب سوف يعيش معيشة الرهبان التي لا يطيقها كل إنسان وإذا كان متزوجاً لا يجد لأسرته في نفس سلمية من وسائل السكن والترفيه ما اعتادت أن تراه في منشأها من الإقليمين الشمالي أو الجنوبي.

والفرق كبير في هذه الناحية بين من يوظفون في مدارسنا الزراعية التي في دمشق أو حلب أو اللاذقية مثلاً وبين الذين يوظفون في مدرسة سلمية، والأمثلة على ذلك كثيرة.

أجل، إن هذه المشاكل والعقابيل التي عولجت مراراً دون جدوى أعيت الحكومات السورية فيما مضى. فعمدت الحكومة التي كانت في سنة ١٩٣٣ إلى اتخاذ آخر الدواء. فأقرت إلغاء هذه المدرسة وتسليم أبنيتها إلى المعارف لتجعلها دار معلمين ريفية وتسليم أراضيها إلى إدارة أملاك الدولة لتستثمرها بطريقة الإيجار

إلى الأهلين.

وهكذا جرى وقتئذ وظلت هذه المدرسة عشر سنوات ملغاة تتعاورها ادارات مختلفة إلى أن أعيد فتحها كمدرسة زراعية في سنة ١٩٤٣ وقد كان ذل الإلغاء صواباً كل الصواب وإعادة الفتح خطأ وأي خطأ.

وعلى هذا فإن إبقاء هذه المدرسة شبه ملجأ خيري أو التفكير بترقيتها إلى ثانوية . هو في نظري رأي غير حصيف بالمرة واستمرار على خطأ فادح . حرام أن يؤتى في حق هذا الوطن المحتاج إلى توفير أقل نقد ووقت وجهد وإضاعة مستقبل الناشئة التي ستحشر فيها مازالت سبل الاستفادة العملية ومصادر الإشعاع قد فقدت منها. وصوابه الرجوع عن هذا الخطأ وتكرار ما عمل في سنة ١٩٣٣ أي إصدار قرار بإلغاء هذه المدرسة وتوزيع أساتذتها وتلامذتها على مدارسنا الزراعية الأخرى التي كثر عددها وتسليم أبنيتها الحاضرة إلى أي من وزارات التربية والتعليم أو الشؤون الاجتماعية أو الصحة أو الدفاع أو غيرها لتتخذها كما عرضته آنفاً مكاناً لمؤسسة غير زراعية وبيع أراضيها أو إيجارها بمعرفة إدارة أملاك الدولة.